

قوس ...

ولا نهاية

سارة بنت عمر الحمود



(قوس ... ∞

ولا نهاية

مذكرات بين الرياض وجلاسكو وبوسطن

٣ سارة عمر عبدالعزيز الحمود ، ١٤٤٣ هـ

مهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الحمود ، ساره عمر عبدالعزيز
(فوس... ولا نهاية: / ساره عمر عبدالعزيز الحمود -
الرياض ، ١٤٤٣ هـ
٢٢٣ ص . . سم

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠٣-٨٥١٦-٤

١- السيرة الذاتية ٢- المذكرات أ.العنوان

٩٢٨,٩ نيوبي ١٤٤٣/٥٣٥

رقم الإيداع: ١٤٤٣/٥٣٥

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠٣-٨٥١٦-٤

الطبعة الأولى: أكتوبر (تشرين الأول) ٢٠٢١

جميع حقوق الطبع وإعادة الطبع والنشر والتوزيع
محفوظة لمدارك. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب
أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو
نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي من مدارك.

Madarek مدارك
Madarek Publishing House دار مدارك للنشر

8470 طريق عثمان بن عفان، حي التعاون، الرياض، المملكة العربية السعودية
8470 Othman Bin Affan St, Al Taawun Dist, Riyadh, Saudi Arabia
Zip Code: 3844 - 12478 Riyadh, Saudi Arabia Tel: +966 114541148

mdrek.com

read@mdrek.com

DarMadarek

٣) سارة عمر عبدالعزيز الحمود ، ١٤٤٣ هـ

مهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الحمود ، ساره عمر عبدالعزيز
(فوس... ولا نهاية: / ساره عمر عبدالعزيز الحمود -
الرياض ، ١٤٤٣ هـ
٢٢٣ ص . . سم

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠٣-٨٥١٦-٤

١- السيرة الذاتية ٢- المذكرات أ.العنوان

٩٢٨,٩ نيوبي ١٤٤٣/٥٣٥

رقم الإيداع: ١٤٤٣/٥٣٥

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠٣-٨٥١٦-٤

الطبعة الأولى: أكتوبر (تشرين الأول) ٢٠٢١

جميع حقوق الطبع وإعادة الطبع والنشر والتوزيع
محفوظة لمدارك. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب
أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو
نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي من مدارك.

Madarek مدارك
Madarek Publishing House دار مدارك للنشر

8470 طريق عثمان بن عفان، حي التعاون، الرياض، المملكة العربية السعودية
8470 Othman Bin Affan St, Al Taawun Dist, Riyadh, Saudi Arabia
Zip Code: 3844 - 12478 Riyadh, Saudi Arabia Tel: +966 114541148

mdrek.com

read@mdrek.com

DarMadarek

(قوس ... ∞

ولا نهاية

مذكرات بين الرياض وجلاسكو وبوسطن

د. سارة بنت عمر الحمود

إهداء

لمن منحوني عَشًّا أو أجنحة
وأخص والديّ..
مع الدعاء لهم بحسن المثوبة

(كيف وصلت إلى هنا؟!)

جمعتُ في هذه المذكرات شتات حرفي وحياتي بين الرياض، وجلاسكو، وبوسطن، وركّزتُ فيها على الجانب المهني بالدرجة الأولى، وعلى شغفي واهتمامي بمجال الحاسب الآلي وعلومه، بدءًا من شرارة الشغف الأولى في الطفولة، مرورًا بـ «حراج الكمبيوتر» في الرياض، ثم جلاسكو في سكوتلاندا، حيث دراسة الدكتوراه، ثم عودتي للرياض، وعملتي في مواقع مختلفة، انتهاءً ببوسطن في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث كانت زمالتي البحثية في جامعة معهد ماستشوتس للتقنية (MIT).

رحلة حملت دهشة أوائل الأشياء في سماوات الفرح أو في حفر الخيبات العميقة، كنتُ فيها أصعد وأهبط وأكتب هنا وهناك. تلك الرحلة كشفت لي الإنسان فيّ وفي من حولي، كما أطمح الآن أن أتصل بالإنسان الذي يقرأ كلماتي هذه، وأن يجد فيها صلة وسلوى، أو عبرة. كل ما ذكر هنا قد حدث بالفعل، لكن ربما بتغيير الأسماء والشخوص وبعض التورية، إن لزم الأمر.

(الكتابة المؤقتة، حلٌّ دائم)

إننا نحتاج الكتابة في تدوين السيرة وغيرها لا كترَف زائد، بل نحتاجها لتداول الثقافة، ولتكون بيانًا صادقًا وتاريخيًا موثقًا للأحداث، والأمكنة، والناس، ولتنقل للقارئ خبرًا وخبرة. أليس من الخسارة أن يرحل أحدهم وفي صدره تجربة، وفي عقله فكرة، أن يرحل وتنطفئ فيه ومعه للأبد؟

بقراءة تلك القصص والسيرة نمتد خارج أجسادنا الفانية، نعبر زماننا المحدود إلى اللانهاية، ونبحر في الكون لنلتقي أرواحًا عَبَّرَتْهُ، نَعْتَبِرُ، ونلتمس أنسًا، نأْسُ، وننمو.

سابقًا كنت أكتب لنفسِي، للتقويم الذاتي والاستشفاء والترويح، كلما سنحت لي الفرصة، لكن بعد ذلك، اختلف الأمر تمامًا!

في إحدى ليالي «بوسطن» الحافلة، إبان زمالتي البحثية في جامعة معهد ماستشوتس للتقنية (MIT)، هناك حيث يزدحم كل شيء بالتقنية والابتكار والعلم والعقل، ويبدو كل شيء سريعًا وقابلًا للنسيان، وبعد يوم حافل ومهم بالنسبة لي، عُدت إلى منزلي لأكتشف أنني لم ألتقط ولو صورة واحدة توثق الحدث. نعم لم ألتقط أية صورة، ربما خجلت أن أبدي مختلفة عن البقية، بمحاولة تصوير البدهيات، ربما انغمست في اللحظة لاستيعاب كل شيء، لست أدري، لكنني حزنت لذلك. وسألت نفسي سؤالًا جوهريًا: ماذا لو ضحوت غدًا ونسيت كل شيء؟ كم ستبقي في ذاكرتي هذه الأحداث والصور؟ هل سأدعها تغادرني مع الأيام؟! قرَّرت فورًا أن أدون ما حدث في تلك الليلة بالتفصيل، ولم أتوقف بعدها حتى وجدت نفسي أكتب كل ما مرَّ بي من أحداث منذ طفولتي، وحتى هذه اللحظة.

كنت أكتب كأنما أنقش في الصخر، وأحاول استرجاع التفاصيل وكأنني أصيد حلماً، عندما انتهيت أخيرًا وراجعت ما كتبت، اكتشفت أنني كنت أقرأ وأبتسم! نعم! قد لا أستطيع تفسير الشعور المريح الذي انتابني وقتها إلا أنني شعرت بالراحة والرضا والسلام. واعتبرت ذلك دعوة لطيفة من عالم الكتابة الأخاذ لكتابة المزيد، وفهمت حينها لماذا يكتب البعض، ويتفنن في إبداع الروايات ونسجها وخلق حياة تنفس على الورق. حلقت في متعتي بضع ساعات، بعدها نسيت الموضوع كله، وانغمست في عملي وبحثي الروتيني، لا ألوي على شيء.

انزلت في الأيام، حتى صادفت كتاب حرب الفن(1)، وخصوصًا فصله الأول (المقاومة) الذي خلّته مكتوبا لي ويخاطبني شخصيًا!

لم أتركه حتى التهمتُ الفصل كاملاً، كان خفيفاً رشيقيًا مسدّدًا سهامه مباشرة على سلوكاتي ومشاعري. نعم أنا أقاوم بدوافع عدة، منها أنه ليس لدي وقت، وأني لن أنتج شيئاً يرضي طموحي، وأنه هنالك أشياء لديّ أهم من الكتابة عني!

عُقد هذه المقاومة حُلّت عقدة عقدة، مع هذا الكتاب الذي هزّ خجلي وجعلني أنظر إلى داخلي مليًا، أستلهم رغباتي الحقيقية في أن أنظر إلى نفسي من خلال حرفي، وأن يصل حرفي العالم. فكم تمثيلاً أن أقرأ شيئاً يُشبهني، كاتبه من نفس بوثقتي وثقافتني، وأن يقول لي أحدهم «مَرَزْتُ من هنا وأعرف هذا الطريق جيداً». هنالك سبب آخر لمقاومة الكتابة يدفعني دائماً للتسوية، هو أن بعض الأحداث المهمة في قصتي دارت في مسرح لم أبتعد عنه كثيراً، فما زلت مع أبطاله ندور ونؤدي، فالكتابة عنها وتغطية أبعادها كافة، قد تكون مستحيلة إلا بشكل رمزي، ما يفقد الموضوع عمقه ومداه وتأثيره. إذن لأكتب بعد التقاعد! أوه عذر جديد؟ لا بل حتى تكون هناك مدة كافية بين الأحداث والمناصب والأشخاص، قدوتي في ذلك كتاب «حياة في الإدارة» للدكتور غازي القصيبي، الذي أمتعنا فيه، بأسلوب سرديّ رشيقي، بالحديث عن الإدارة وتاريخها في المملكة عموماً وفي الرياض تحديداً، وعن بدايتها في جامعة الملك سعود، مع التطرق إلى الأسماء والأماكن والأشخاص، ما أعطى كتابه جمالاً وقيمة تاريخية تصف بدقة ما حصل في تلك الحقبة الزمنية.

لكن صوتاً في داخلي يقول: ومن يضمن لك أنك ستملكين الرغبة نفسها وقت التقاعد؟ أيضاً هل سيتبقى شيء في ذاكرتك السمكية «بعد مرور هذه السنوات الكثيرة؟»

إن بعض الأشياء مع الوقت تفقد تفاصيلها الدقيقة وحرارتها ووهجها وتؤول للنسيان. ربما تكونين وقتها قد فارقت هذا العالم كله، وانتقلت لحياة أخرى! اكتبني ولكن في مجلدين: مجلد المسموح، ومجلد سري لما بعد التقاعد... كان حواراً عابراً طوّته الأيام والأحداث المتعاقبة.

(كدتُ أنسى «حواديت» الحياة!)

عُدتُ بعد فترة لقائمة أعمالني، لأجد ست مهام تتعلق بكتابة أوراق علمية والتحضير لبعض المحاضرات والاتصالات، وقرأتُ ملاحظة خجولة كُتبت في

زاوية الصفحة «قوس ... ولا نهاية»... هنا قدّمْتُ لِنفسي عذرًا جديدًا، يا إلهام
من العالم، جون فاولز، الذي يقول:

هو سن أبتكم الآن.

For what good science tries to eliminate, good art seeks to provoke—mystery,
.which is lethal to the one, and vital to the other

John Fowles—

ما يحاول العلم الرصين إقصاءه يعمل الفن على إنارته فالغموض الذي يفني أحدهما، يحيي الآخر.
جون فاولز

ذلك أنني أمتهن كتابة البحوث العلمية، التي تتطلب كشف الغموض بإيجاز
هادف، دون استعراض للمشاعر، أو تَمَنَّقَةٍ للنص وزخرفته بعالم مبتكر من الخيال
والبلاغة والاستطراد. الكتابة العلمية هي أداة انتقال العلم بالدليل والرقم والبيّنة
والإيجاز إلى جمهور ذلك العلم المهيب والصيق، والمحدود. تَدَرَّبْتُ جيّدًا، في عمرة
ركضي علميًا ومهنيًا، على أن أُعَلِّفَ مشاعري، وأن أتعامل معها بعجالة شديدة،
فالمقام لا يتسع «للدراما» ولا المقال كذلك. أما الكتابة الإبداعية فعصا سحرية
تخلق كوثًا من لا شيء، تصنع السحر والخيال والجموح والجنون بكلمات لا سقف
لها ولا قاع، الكتابة العلمية عصا أيضًا، لكنها تفجر فقاعة الخيال بالوصف المجرد
الديق المحدود، والذي يكون أجمل كلما انضم إلى النسق المتبع المعروف.

ما زلتُ أذكر كلمة أحد مشرفيِّ لَمَّا كنت صغيرة في عالم الكتابة العلمية.
حين ابتكرت طريقة لترتيب وإخراج فصول الورقة، ظننت أنها الأفضل، ثم وتّخني
بقوله: هذه الورقة ليست قطعة فنية تحتل الإبداع! إياك والابتداع في النسق،
فذلك من خوارم الكتابة العلمية ومفسداتها! وكأنني الآن حرة من كل ذلك؟

عذر ليس بالأخير، الكتابة الإبداعية تستلزم كشف الشعور بتعقيداته، مُتَعَرِّضَةً
للحدث بتفاصيله الكثيرة، ومتعمِّقَةً في التأملات واللاوعي، وهو أمر يخدش هيئتي
الأكاديمية أو نمطي المهني، أو هكذا اعتقدت وطنّنت، ضمن معرض الخرافات
والأعدار التي تَمَقُّئُها وَصَفَّقُئُها أمامي بشكل واضح ومريح لضميري، كلما هَقَمْتُ
بالالتفات لمشروع كتابي هذا.

وكانني أخذت مهنتي بجدية شديدة أنشد الصواب المطلق وخلصه الخلاصة في
كل أعمالي، حتى نسيت «حواديت» الحياة وسلوكات الروح المثيرة، نسيانًا مبرّرًا
وتجاهلاً مشروعًا، ثم غفرت لنفسي، وأكملت الحياة.

حياتنا كأديمين صندوق مغلق مُخْتَرَل في نقاط تُنْتَرُ في السيرة الذاتية،
تخبرنا عن صاحبها أنه: باحث زائر في جامعة كذا، أستاذ مساعد في جامعة كذا،
مؤلف للورقة تلك، ولذلك الكتاب... هذا ما نقوله لنا السيرة الذاتية فقط.. نقاط
مختصرة انثُرعت من حكاياتها وسياقاتها، دموعها وبسماتها. لكني أخيرًا خَلَلْتُ
عقدي، واحترقْتُ السرقة اللذيذة، لِأَحْتَطِفَ حرفي من قَمِ الأيام: أكتب هنا حينًا،
وأعود لنمطي المهني حينًا آخر، في قَفَرٍ مائع، استمرَّ خمس سنوات أو أكثر، وها

(بين الحجاز ونجد)

وُلدتُ ونشأتُ في الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية، جدتي لأمي حجازية من أصولٍ بخارية، وجدتي لأبي من نجد. كلتاها متفردة في العطاء والقوة. جدتي لأمي سيدة أعمال، وبدأت في شبابها تقتفي أثر والدها عبدالله، الذي ترك تركستان وذهب ليتعلم فن الخياطة في أذربيجان. ولما جاء للحج اختاره الملك عبدالعزيز ليكون مصممًا وخياطًا لملابس أبنائه، وقد صار لقب «خياط» اسمًا عائليًا له. كانت جدتي شديدة الأناقة، يبدو ذلك من صورها التي تظهر فيها كعارضة أزياء بهية الطلة بتسريح شعرها، وإيماءاتها، وفساتينها المبتكرة بأحدث الصيحات العالمية، والموشاة بالتطريز والشك، و«الذنتلة» الرهيفة الناعمة. كانت ماهرة، وأورثت بناتها تلك المهارة، وصار في بيتنا مشغل ثياب، لنا وللأقارب والجيران، أصمم فيه ملابس ومعاظفي وحتى حقائبي، إلى أن اكتسح «زارا» ونظراؤه السوق، فسُرّحت العاملات، وتوقف المشغل.

جدتي لأبي كانت شجاعة صلبة، تخرج كل يومٍ، بُعيد صلاة الفجر، رفقة صديقاتها للاحتطاب وجمع القش.. تشق ظلام القرية بنور عزيمتها وقوتها وإصرارها، ورغم أن الزمن كان يفرض طرقًا قاسية في العيش إلا أن جدتي أتقنت التعامل مع تلك الصعوبات، وأضحت هي وأبناء جيلها رمزًا للصبر والتفاني، وحكاية نُسِمتُ منها القوة والعزيمة والإصرار.

كُفَّ بَصْرُ جدي وهو يافع، فكانت هي الأم والأب، تعمل وتحمي وترعى، تتقوى بالإيمان والصلاة. جاراتها في القرية يحتمين بها إن ألمَّ بهنَّ خطب أو خشين على أنفسهن في رحلاتهن من الحيوانات المتوحشة، كنَّ فعليًا يقفن خلفها وتقف هي كالصخرة تذود عنهن ببنيته الضئيلة، وقلبها الرّحْب الجسور. كانت وجيهة في العائلة، محبوبة بين إخوانها.

ما زلت أذكر جسدها النحيل، وبنيتها الصغيرة التي تشبهنى كثيرًا، ووجهها الوضيء المشرق. كانت هادئة وقليلة الكلام، يحكي عنها والدي، ويقص لي مغامراته مع أخته «السوداء» والتي لقبت بذلك من شدة بياضها، يتسابق معها ركضًا للمزرعة المجاورة، مزرعة «الصويدري» المملوكة للحمود، والتي تقيم فيها جدتي مع أهلها وأبنائها فترة الصيف، ينامون على الرمال الذهبية المحيطة بالمزرعة كفراش وثير بارد.

في أرضها الزراعية ينمو النخل، وفي أطرافها شجر الأثل دائم الخضرة
والصبر على الجذب، يصد الرمال التي تغطي أسفله وبالكاد تُظهر أطرافه
الخضراء. فقدت جدتي ابنتها تلك، مع ولدين آخرين، بسبب الأوبئة المنتشرة
حينها مثل الحصبة والجدرى.

لم يمنع فقد البصر جدي من البيع والشراء، إذ كان يستطيع تمييز النقود
باللمس. يبيع بتسامح كبير، فيسأله والدي، لم يأخذ الناس البضائع، ولا
يدفعون؟ فيرد عليه: «سجله عندك، وخلك سمح يا ولدي»، ويتمثل بهذا
البيت دائماً:

أنا بياع القاصي بداني ... لي قال عشر قلت هات الثمان

رغم صعوبة الظروف حرصت جدتي على تعليم أبنائها، إما عن طريق التعليم
التقليدي وطلب العلم الشرعي، الذي تخرج منه عمي محمد قاضيًا حين كان
مرافقًا للشيخ محمد بن معيذر، أو عن طريق التعليم النظامي، الذي ختمه
والدي بدرجة الماجستير في التربية من جامعة إنديانا. وأكمل مسيرته في
العناية بوالديه، مشتركًا مع والدتي في ذلك بكل حب.

بين جدتي لأمي فائقة الأناقة والبذخ و«التكتكة» وبين جدتي لأبي في
قيادتها، وصلابتها، أتيت أنا لأم تهوى الفن، وأب أديب. كان يدهشني
الاختلاف بين الثقافتين النجدية والحجازية، وما زال! أذكر جيدًا هذا
الموقف في طفولتي، حين نكون ضيوفًا في بيت حجازي، يحرص أهل البيت
كلهم على استقبالنا ومؤانستنا وأخذ عباةئنا مع الملاطفة والإطراء بشكل
حميم ليّن، منذ اللحظة الأولى التي ندخل فيها البيت وحتى نستقر في
المجلس. أما في البيوت النجدية، التي زرناها على الأقل، فيكون الاستقبال
هادئًا باردًا، من شخص واحد غالبًا، ثم يتركونا في المجلس ليعودوا إلينا
للسلام بعد بضع دقائق. كنت في تلك السن أظن ذلك صفاقة بالغة إلى أن
فهمت أنهم يصنعون ذلك بهدف إعطائنا وقتًا خاصًا للتزيين والتهيؤ للقائهم،
فيدعوننا «نكمل شغل»، «مع نفسنا» بدون إحراج. ومن الفروق التي تعلمتها
في طفولتي أيضًا، ثقافة الإهداء. فقد عودتنا أمي على إضفاء روحنا
ولمساتنا الفنية على الهدية حين تُهدى أحدًا، وأن نهدى له شيئًا يحبه. وإن
استقبلنا هدية، أن نشارك المهدى مشاعرنا ونحن نرى هديته، نفتح تغليفها

أمامه ونثني على ذوقه، مهما كان، نبحت عن شيء إيجابي في الهدية ونثني عليه، ولن نعدم ذلك! ثم نقوم بتقبيله وشكره، مع تعمد استعمال هديته أمامه تقديرًا له وحتى يرى أنها راقية لنا. في المقابل حصل لي موقف مع إحدى معلمتي في المرحلة المتوسطة، وكانت قريبة جدًا مني، أردت شراء هدية لها حين أنجبت، وساعدني والدي في ذلك، كانت الهدية عبارة عن قلادة ذهبية تحمل اسم ابنتها، غلفت الهدية بنفسي، وصنعت كيس الهدية بنفسي أيضًا، واستغرق ذلك مني ساعات طويلة. حين قدمتها دسستها خلف السرير بلا مبالاة ثم أخذت تثرثر في أشياء أخرى. حطم ذلك قلبي، وما زلت حتى الآن أتساءل: هل تعرف أنني من صنعت كل ذلك بيدي، هل تعرف أنني اخترت نقش اسم ابنتها بنفسي واخترت رسم الحرف ليكون اسمها جميلًا ولائقًا؟ ربما تلك التفاصيل غير مهمة في ثقافتها، وربما أن هذا الموقف هو شكل من أشكال الصدمات الثقافية التي واجهتها باكرًا، وأنا أكبر بين ثقافتين مختلفتين. الآن ربما ذابت جُل تلك الفروق بين الثقافتين، واتحدت في ثقافة واحدة بيضاء تحمل أجمل ما في الثقافات المختلفة.

(النقّاشة)

تعمل أمي أمينة مكتبة، ملأت منزلنا بأنواع الكتب الخاصة بها، والخاصة بنا، فلكل واحد منا «قوقله» أو مكتبته الخاصة. تُحذرنِي من الاقتراب من بعض كتبها، ولكنها لا تُخفيها، بل تتركها مكشوفة في مكتبتها، وهذا كفيّل بعمل رحلات ليلية للسطو وممارسة الممنوع بكل لذة وحذر وترقب. كتبها كانت عن الحياة والثقافة وتقنيات صناعة الأشياء، فهي تحب خلق جُلّ أشياءنا في المنزل بيديها. وتشمل قراءاتها أيضًا المراجع الطبية، كمجلة «طبيبك»، التي تأخذ شكل كتيب ملون صغير، وتحفظ أمي بكل سلاسل المجلة بعناية في رف خاص. أما كتب والدي فكانت غير شهية للسطو، فهي مجلدات كبيرة في التاريخ والأدب والشعر العربي والإنجليزي، بحكم حبه للشعر وتخصّصه في الأدب الإنجليزي. كانت مكتبته قلعة مستقلة مهيبة يتوسطها مكتبته الخاص.

في الصف الخامس، وضمن فعالية «الفصل المثالي»، المقامة في المدرسة، والتي كُنّا نتفَنّ فيها بتزيين الفصل بكافة الوسائل التعليمية بإشراف مربية الفصل، نَمَت إينا إشاعة أن مكتبة الفصل والعناية بها ترفع أسهمنا للفوز بجائزة الفصل المثالي، فاجتهدت الطالبات بإحضار كتبهن. دولاّب معدني قصير يمتلئ رفاه العلويان بالكتب المصفوفة، معلق بجانبه دفتر الاستعارة، الذي نسجل فيه استعاراتنا، أحضرتُ كل كتيبي المفضلة ومجلداتي. مرت المديرة على الفصل وأطالت النظر إلى المكتبة وتفحصت الكتب جيدًا، وأثنت عليها وعلى تلك المجلدات بالذات «قل لي لماذا؟»، «قل لي كيف؟»، «قل لي أين؟»، وعلمتُ أنني من أحضرتها فاتصلت بوالدتي وهي تعلم أنها خبيرة في الكتب ودور النشر لتسألها عن كيفية الحصول على نسخ منها. ملأني ذلك بالزهو والفخر سنيينَ طويلة، وغمرني بشعور واثق أن أمي تعرف «الزين» في ما يتعلق بالكتب، وتمنحنا إياه بتَرَفٍ عرفت معناه الآن. كان غلاف تلك الكتب «كرتونيًا» صلبًا تزيينه الألوان المنوعة وتترتب المعلومات العلمية والحقائق على شكل فقاقيع من ثلاث إلى ست في كل صفحة، تصحبها صورة توضيحية تمثل المعلومة بشكل بصري يمكّنني الغوص فيه للأبد. كنت لا أمل من التهام تلك المجلدات مرارًا وتكرارًا، كانت تُشفي فضولي وتثيره في آن واحد. أما الآن في عصر «قوقل» فلستُ أدري هل كنت حقًا شغوفة بها أو كانتْ خيارِي الوحيد.

وفي القصص والتخييل مررت بعدة سلاسل، منها السلسلة الشائعة في كثير من البيوت السعودية آنذاك «المكتبة الخضراء». كنت أحزن للبت التي طلبت

من والدها وردة، فبرغم بساطة الطلب إلا أنها أوردته الصعاب في قصة «البنات والأسد»، وفهمت وقتها أنني أطلب ما أريد وليس ما أظن أنه يخفف عن والدي. وكنت أتطلع لنبل «هناء» وذكائها وطيبتها، وكيف أنها أصبحت ملكة بتلك الخصال في «بنات الصياد». ولفتني واستقر في وجداني حب مرزوق للعمل بداية من الفجر ودعاؤه وإيمانه العميق الذي كفاه الشر وأنقذه من موت محقق في «خاتم السلطان». كانت «الرفيق المجهول» جذابة إلى الحد الذي كنت أتربق فيه الموقف أو الخير الذي سأصنعه حتى أستحق هذه الرفقة الباذخة والشهية، كنت أنتظر رفيقي المجهول، وجهزت له اسمًا مميزًا.

ضجر أخي الأكبر من كثرة سؤالي لوالدي، «إنت بس تسألين نفس السؤال؟» والدي على العكس من ذلك لم يكن يشعُرني بأدنى ملل من كثرة أسئلتني، بل كان يجيب بالنبرة الهادئة نفسها كل مرة. أحيانًا كنت أسأله لأسمع طريقة إجابته الهادئة ونغمة كل كلمة تخرج منه، كانت تلك الموسيقى كقيلة بززع الأطمأنينة في نفسي والثقة في الحياة وفي ما حولي، فقد كان والدي مفتاح المعرفة، ومصدر المعلومات الغريبة، وكنت لا أشك في أن أجد لديه إجابة لكل سؤال يُلح عليّ.

لم تكن هدايا النجاح ضمن خطط والدي المستمرة، رغم تهديداتي بأن تتأثر درجاتي إن لم تكن هناك هدية، لكنه لا يرضخ للضغط ويجيب بهدوء، درجاتك ونجاحك لك. لكن إلحاحي مختلف هذه المرة، وهو أنني تخرجت من الابتدائية، إن لم تكن الآن فمتى؟ وافق والدي أخيرًا، وكانت الهدية زيارة مكتبة «الوراق» التي لا نعرف غيرها، فصاحبها جَار فاضل كريم. في الوراق انهمرتُ ألملم كل الملصقات والإكسسوارات الفسفورية والميداليات وكل ما هو غريب، أما والدي فكان يحاول جذبني لقسم الكتب ولكن هيهات. كنت أجامله وأحضر معه قليلًا، ثم أعود للعجائب، فيغيب هو في قسم الكتب ليحضر «هدية النجاح». في هذه المرة أحضر والدي «النظرات»، «العبرات»، «الشاعر»، «الأدب الصغير»، «الأدب الكبير»، «كليلة ودمنة»، عبقریات العقاد وغيرها. أقنعني والدي في جلسات غسل المخ:

اقرئي القصص والقصائد واكتبي مثلها، فقط قلديها، استبدلي بعض الكلمات، غيّري قليلًا كيف؟ لا أستطيع! بلى تستطيعين، حتى ولو نقلتها كما هي أنقلها؟

وبالفعل كنت أقضي وقتي في نقش أوراق «الفرخ» الواسعة بحجم (A3) بكلمات المنفلوطي وأفكاره، وقصائد الأناشيد والأغاني التي تمر عليّ، أفهم أشياء وأشياء أظن أنني أفهمها. ثم أطلعتُ والدي على تطوّر المشروع، وقد

نقشت إحدى القصائد العامية، والتي لامستني كطفلة وفهمت قصتها الشائعة في التضحية لأم مع طفلها: «عبرت الشط على مودك.. وخليتك على راسي».

قرأها والدي بتمعن وثقل ورزانه، وشجعني بكلمة واحدة «ممتاز». أما أخي فلم يتمالك نفسه، وصرخ ضاحكاً: هذي أغنية!

ردّ والدي بنفس الهدوء، ما فيها شيء، اليوم أغنية وغداً قصيدة من تأليفك. كنت أصدّق والدي، لكن يغالبني شك كبير في أن مشروع النقش سيفضي إلى شيء حقيقي.

في المرحلة المتوسطة كنت أنا من أختار كتبي، فقد تأثرت بحركة الصحوة، وتعرّفت على الكتب الشائعة في أوساطها، فعرّفت في «الروح» لتشفي تساؤلاتي ولتفتح آلاف غيرها. واكتشفت عوالم الحب في «روضة المحبين»، وتنعمت وتشوقت بـ«حادي الأرواح»، وتعرّفت على وظائف القلب الروحية في «إغاثة اللفهان». تسليت وتمتعت بقصص وحيل وفساسة «الأذكىاء» وثقّضتها بخيال كبير.

كان والدي يزرع بين كتبي كتباً مثل ألفية ابن مالك، أدب الكاتب، والحيوان، والبخلاء. ولكنه سعيد بمجمل اختياراتي وأني أصبحت أقرأ بجدية وأفهم كثيراً مما أقرأ. كان يبدي لي إعجابه الشديد بعبقرية الهمذاني في مقاماته وفي جمعه للنثر، والنظم، والذي يُقدم الحكايا العميقة بقالب طريف مسجوع، وأن ذلك يعد تحفة أدبية تستحق الدراسة والتمعن. كنت أحاول فهم وجه إعجابه، بدا ذلك ثقيلاً غريباً، لكنني شاركته الإعجاب فيما بعد.

تظافر كل ذلك في تشكيل خلفية أدبية، ودينية عميقة، أعود إليها كل مرة لأجدها مستقرّة في ذاكرتي، وكأن كل ما حصل في ذلك السن احتجز أماكن الذاكرة الأساسية، وكل ما أتى في الكبر يحجز مساحات أقل عمقاً في أحسن تقدير، هذا إن لم يتناثر ويُفقد فور المرور عليه. لم أكن أتخيل أن ذلك فعلاً يخلق موصلات عصبية ويحفز التفكير ويؤسس كراسي لموسيقى الكلام في عقلي إلا عندما عملت في الإدارة والتدريس، وخالطت مختلف الناس. أصبحت ألمس الفرق في سعة المفردات وسلاسة التعبير وسلامته. وكان لذلك أثر واضح في رفد مسيرتي المهنية مستقبلاً.

(شرارة شغف)

في الثانية عشرة من عمري، كنت أرافق والدتي في تسوّقها في مجمع العقارية، وكان من المجمعات التجارية الحديثة والرائدة آنذاك. شد انتباهي محل اسمه «صخر»، وكنت أمتلك جهاز التسلية صخر آنذاك، لكن أمامي الآن شيء جديد لم أره قبلاً، شاشة أصغر من التلفاز، أسفلها صندوق به فتحات رشيقة وزرّ للتشغيل.

كان صاحب المحل يدير الجهاز، بعد إدخال شريط الخمسة إنش الرشيق الشبيه بالورقة والذي لا يشبه الأشرطة الضخمة المربعة التي أستعملها للعب، كان يكتب الأوامر لتشغيل اللعبة على لوحة المفاتيح، يكتب بخفة ثم يضغط زر الإدخال لتنفيذ الأمر، فتعمل اللعبة!

شدني مستوى الرسوم وتفصيل جسد البطل وتحركاته الدقيقة والمفصلة، إذ لم أشاهد لعبة تماثلها قط!

وقفتُ وعيّنّي تكادان تلتهمان هذا الجهاز... أصبت بسحره حتماً (2)!

أمي تشدني من يدي فلم أعد أسمع.. «يلا مشينا» ماما بس شوي يلا عندنا كثير ألعاب... عندك أتاري وصخر... سمع البائع ذلك، واستكمل استعراض الأقراص المختلفة، هي ليست للألعاب فقط سيدتي، في أي صف أنت يا حلوة؟ في الصف الأول المتوسط جميل! يمكنك استعراض مناهج العلوم والرياضيات وإجراء كافة التجارب هنا، ليس ذلك فحسب، فلدينا برامج ثقافية باللغة العربية أيضاً.

وازداد إعجابي وعجبي، وظننت أن ذلك كافٍ لإقناع والدتي، فالجهاز «محترم» ويساعد في المذاكرة.

ليس ذلك فحسب سيدتي بل يمكنك استخدام برامج الرسوم والكتابة وطباعة كل ما تريدين! طباعة ما أريد؟

كانت أكثر وسيلة تطوراً في الكتابة استعملتها هي الآلة الكاتبة، أستعملها بعد وعود مكررة بأن أكون رقيقة بها، أضغط حرفاً حرفاً حتى لا تتشابك عصيّ الأحرف مع بعضها فتضطّر أمي للحضور وحل المشكلة. أكتب بها منشورات المدرسة لتخرج فاخرة وكأنها منشور احترافي! أضرب الأحرف

بأصابعي بقوة وحذر شديد، فكل حرف ومد وفراغ يجب أن يكون في مكانه الصحيح، إن أخطأت فليس هناك تراجع، ولا مناص من إعادة كتابة الورقة من جديد أو صبغ الورقة مكان الخطأ باللون الأبيض، وإكمال الكتابة!

انظري! وقام بتشغيل برنامج الكتابة بنفس طريقة تشغيل اللعبة وبكتابة الأوامر على لوحة المفاتيح بكل خفة.

ظهرت في الشاشة نافذة بيضاء بها أزرار مختلفة ومساحة كالورقة يمكن الكتابة فيها، هنا، كل ما أكتبه بلوحة المفاتيح يظهر في الشاشة. «بسم الله الرحمن الرحيم» انتهىنا الآن، هنا أضغط على زر الطباعة، وأخذ يحرك جهازًا صغيرًا بيده، فيتحرك سهم في الشاشة ليشير إلى أحد الأزرار أعلى الصفحة البيضاء. بدأت الطابعة تصدر صوتًا، وأخذت تتحرك بالفعل! كانت تطبع «بسم الله الرحمن الرحيم»!

بسم الله على قلبي وعقلي من هذا الغرام الذي تملكني تمامًا، أمي أريد هذا الجهاز، بل أحتاجة ويحتاجني! منذ ذلك اليوم وأنا مسكونة بهاجس الحاسب الشخصي، وكنت أحلم باقتنائه كل يوم، استعملت الطرق كافة، بالتوسل، بالرسائل التي أدسها تحت باب حجرة والدي، بالإقناع بأنني سأدرس منه ومعه وبه جيدًا، وسيكون رفيقًا متطورًا أكثر من الكتب غير المتفاعلة، حاولت بكل ما أستطيع. كان أفضل رد أحصل عليه، بأنه سينظر في الأمر إذا تخرجت من المرحلة المتوسطة. مرّ عامان والشغف لم يخب، بل كان يتنامى، وكنت أزور المحل كلما سنحت لي الفرصة.

تخرجت وحصلت على الجهاز، وكنت أسعد فتاة في الأرض!

بعد حصولي على جهاز الحاسب الشخصي الذي يعمل بنظام صخر، لم أبرحه حتى قمت بتجربة كل ما فيه من برامج، للشعر والرسم ومناهج العلوم. كانت لكل منهج أقراص مرنة تحوي فيها التجارب حية، كان ذلك قمة التفاعلية التقنية الممكنة وقتها، كنت صبورة لاكتشافها واستعمالها كأني جمهورها المخلص، بل المتعصب، وحليفها الداعم، أراها بعين الرضا التام، وأتعاطاها بكل حب وسعادة. فُتئتُ ببرنامج الرسم، أرسم فيه كل فكرة تخطر ببالي، بل ولشدة إعجابي بتقنية الرسم الرقمية رسمت صفحات للتلوين أقدمها بأناقة وفخر شديد لإخوتي الصغار وكأني مديرة مطابع أبتكر ما أشاء ثم أستلمه وألمسه مطبوعًا. كان انتقال الأفكار من عقلي إلى الحاسب ثم الورقة بشكل آلي متعة تروق لي وتسعدني. كنا نرسل أمر الطباعة فيبدأ خرطوش الطباعة بالتحرك من اليسار إلى اليمين سطرًا سطرًا يطبع نقطة نقطة، ننظر إليه

وننتظر بصبر وشغف ودهشة قرابة النصف ساعة، لتخرج الصفحة مكتملة
نتلقاها بعناية كسبيكة ذهب ونحفظها في ملف خاص.

(اختيار التخصص : سأكون كما تظنين!)

في فترة المراجعة للصف الثالث الثانوي كان الحديث يكثر حول توجهاتنا بعد الجامعة. مسؤولة الفصل «أبله نوال» معلمة المواد الدينية من خريجات كلية الشريعة والمتعصبة كثيرًا لهذا التخصص، كانت تعتقد أن على الأذكى دخول هذا القسم فيقوى بهم، وتقوى بهم الأمة، ويكسبوا الأجر في اكتساب هذا العلم، فهو ليس كبقية العلوم «الدينيوية» التي لا نؤجر عليها. هكذا كانت تحثني على الالتحاق بكلية الشريعة. وفي إحدى جلسات الإقناع «الدعوية» تشجعت وامتلكت الجرأة الكافية لأن أبوح لها بأنني أرغب في دخول كلية الحاسب. استاءت كثيرًا وازدادت قوة ضغطها ولم تكترث ببوحي، بل أهدتني أهم سلاسل ومجلدات كلية الشريعة!

صدمني ذلك وأوقعني في حرج شديد، شكزتها وقلت بصوت ملؤه الاحترام والتردد، ولكني سأكون كما تظنين! لن أنقطع عن محبتي لله وسأستمر في عمل الخير. حقيقة كانت رغبتني شبه حالمة، فلم أكن أعرف أحدًا يدرس تخصص الحاسب في الجامعة من قبل، ولم يشجعني والدي على دخوله، بل نصحني بقسم الرياضيات في كلية التربية لأصبح معلمة رياضيات، ولم يكن للفتيات حينئذ مستقبل مهني واضح سوى التدريس أو الطب.

إضافة إلى أن سمعة الجامعة في المجتمع عمومًا -في ذلك الوقت- لم تكن جيدة، حيث كان يُعتقد أن روادها من المنفتحين، أو ربما يُسمَّون وقتها بالمنفلتين، فلا تفضلها كثير من العوائل المحافظة. بين كلية التربية -قسم الرياضيات- كما يريد والدي، وبين الجامعة وكلية الحاسب التي أحلم بها كانت حيرتي كبيرة. لكنني لم أعمل عقلي ومشاعري كثيرًا، أقنعت نفسي بأن والدي أعلم بمصلحتي، ولا تقوم الدنيا على ما أشتهي فقط، ولم أجد ما يمنعني من الالتحاق بكلية التربية، فلم أكن أكره الرياضيات ولم أغرم بها، كانت علاقتي بها حيادية.

أكملت إجراءات التسجيل في قسم الرياضيات، وبعد أسبوع من إجراء اختبار القبول ذهبت للاستعلام عن النتيجة، وكانت النتائج حينئذٍ تؤخذ من مكتب صغير في الكلية يتزاحم حوله بفوضى عشرات الفتيات، تخرج من المكتب موظفة تنظر إلى قصاصة ورق وتنادي بأسماء المقبولات: خمسة أسماء في كل مرة، ثم تختفي في حجرة القرارات وتظهر من جديد، هكذا والطالبات ينتظرن بقلق، وترتفع أصواتهن كلما خرجت وأعلنت الأسماء... طال انتظارنا، والجميع متحفز لیسْمَع اسمها.

نادت الموظفة: فلانة الفلاني! ثم صاحت بجانب فتاة، تحدّث زميلتها بصوت مسموع، «خير! فلانة أعرفها ماخدة جيد جدًا، وأنا ممتاز! والله لو ما أسمع اسمي لأحوسهم!» وفي كل مرة تخرج الموظفة يزداد زحام الفتيات وغضبهن، مما شكل فوضى كبيرة لا يُكاد يُسمع صياح الموظفة معها...

كنت أرقب بصمت، وكل ما أتخيّله في هذه اللحظة أن أكون في كلية الحاسب في الجامعة الوحيدة بالرياض والتي تقدم هذا التخصص، كم أشتهي ذلك. ازداد تدافع الفتيات وجلبتهنّ، وازدادت معها رغبتني في ترك المكان، غرقت في صراع تُحتدِم فيه المشاعر بين ما هو معلوم ومضمون، ومحاط بتشجيع الوالد الحكيم ورغبته، وبين ما هو مجهول أريده أنا وحدي. لم أنتظر طويلًا، دفعني كل شيء لأن أترك الردهة الفوضوية، للتوجه إلى مكتب القبول في الدور الأرضي لسحب ملفي. كانت غرفة بها قرابة الثماني موظفات، وسألت إحداهن: «كيف أسحب ملفي؟»

أشارت إلى آخر مكتب، وتوجهت إليه طالبة سحب الملف.

بس.. إذا سحبت ملفك الآن فلا يمكنك التقديم مرة أخرى، وستفوتك الدراسة لسنة كاملة! نعم أعلم ذلك. صدقيني ستندمين. لا عليك، سأقدم على الجامعة، قلتها وأنا أجهل تمامًا قوانين الجامعة، ولا أعلم إن كان يمكنني التقديم لهذا الفصل أم ستفوتني سنة كاملة، ولكن إجابتي كانت لتهدئتها فقط. وماذا لو لم تقبلي في الجامعة؟ يا بنتي أنصحك بالتحويل لقسم آخر على الأقل، خير من أن تفوتك الدراسة لعام كامل!

رغم أنني كنت في غاية الحماس لسحب الملف، إلا أنني تأملت كلامها وتراجعت قليلًا، ربما أحول الآن إلى قسم آخر إلى أن تتضح طريقة التسجيل في الجامعة... حولت إلى قسم الأحياء فهو الأقرب إلى نفسي، والذي أحببته تمامًا من خلال معلمتي «صفاء بيومي» التي فتّقت ذهني وشغفي باستطاراتها العلمية خارج الدرس. مرّ أسبوع وأنا أستشير كل من ألقاه. استشرت خالتي، وكانت مديرة مدرسة، وأثق برأيها وخبرتها العلمية والتربوية، وقالت لي بالحرف الواحد: لو كنت سأنصح ابنتي لنصحتها بكلية الحاسب. كانت كلمتها شمسًا أنارت ليل حيرتي وترددي، ورفعت ثقتي بميولي أكثر وأكثر.

في الكلية استشرت أ. وفاء أستاذة الأحياء، التي كانت الأقرب إلينا بأسلوبها العفوي البسيط وشرحها الخبير المتقن، وقالت: بصراحة هو تخصص جيد، وسأعزفك على خريجة من كلية الحاسب، علك تستأنسين بخبرتها ونصحها.

أخذتني إلى معمل الحاسب وقابلت مسؤولة المعمل، كانت ملامحها جادة وباردة في أن واحد!

أستاذة أمل، هنا سارة تود معرفة المزيد عن كلية الحاسب التي تخرجت منها، هلأ ساعدتها؟ وودعتنا أستاذة وفاء أستاذة أمل: ما الذي تودين معرفته؟ أجبت بفضول، أود معرفة كل شيء عن دراسة الحاسب والجامعة. قالت باقتضاب وببطء وابتسامة ساخرة: كُنا ندرس كل شيء! ازدادت دهشتي.. وأجبت بصوت خفيض «كيف...؟» ندرس مواد عامة مثل الاقتصاد والتربية والصيدلية والمحاسبة، إضافة إلى المواد الأساسية مثل البرمجة وأنظمة التشغيل وقواعد البيانات، والشبكات، والرياضيات والمنطق. برمجة؟ يعني أن تكتبي الأوامر لينفذها الجهاز آليا يعني مثل أوامر صخر بيسك؟ نعم يشبه ذلك ولكن بشكل متوسع.

كانت تتحدث وتُصِف، وعصافير عقلي تغرد فرحًا وسعادة، فهذا ما أحبه حقًا، وبينما أنا غارقة في سمفونية عصافيري أشارت بيدها إلى رف الكتب بجانب مكتبها، وقالت: هذه هي كتب البرمجة بلغة كوبول، وأنا لا أستغني عنها إلى الآن. نظرت فإذا هي عدة مجلدات ضخمة، بل هي أضخم ما رأيت في حياتي، فكانت تلك أول مرة أرى كتابًا مكعبًا من كثرة صفحاته!

فزعتُ عصافيري واختبأتُ وساد الصمت وابتلعتُ خوفي وقلت بتردد: صعب؟

قالت بنبرة جادة باردة خالية من أية مشاعر، وهي تشير إلى الكتب: إذا تحبين البرمجة، لا.. وكانت كلمتها تلك تذكرة سفر إلى بلاد التقنية!

بعد لقائي بها أصبح شغفي يتكئ على بعض المعرفة، ولم أزد إلا رغبة في التعامل مع الجهاز الفاتن وبرمجته. عدت إلى البيت وطرت إلى والدي لأخبره بخطتي الجديدة.

بابا، خلاص أنا ودي أدخل حاسب باستنكار كبير: في الجامعة؟ يا بنتي مؤهلك ما راح يكون تربوي ولا تقدرين تدرسين في المدارس بتعلم.. بابا سألت كثير وكل من استشرته أيديني، وأتوقع الحاسب له مستقبل.. وبصوت خفيض «حتى خالتي تؤيدني» هذي نصيحتي لك... وأنت مسؤولة 100% عن قرارك

صدمتني تلك الكلمة، وكسرت أطواق الراحة والأمان التي أنعم فيها بقرارات والدي وتخطيطه، لم أقف في حياتي موقفًا كهذا، شعرت بالوحدة الشديدة،

وأن والدي ولأول مرة يتركني، خشيت أن أكون مخطئة. وبقدر الخوف الذي
نما تلك اللحظة، اتقد في شيء جديد لم أختبره قبلاً قط، هو التحدي! لأنجح
من أجلى ومن أجل إثبات صحة قراري واختياري، مهما كلفني ذلك، وأكون
كفؤة لتلك المسؤولية، ولأول مرة «وحدى». تظاهرت بالتماسك، وأجبت «إن
شاء الله». أنهيت إجراءات النقل، وذهبت إلى الجامعة.

(100 عال)

بتوفيق الله لم يفتني العام الأول في الجامعة، تسلّمتُ جدولِي من وحدة القبول والتسجيل، وكان ورقة مليئة بالرموز الغريبة بالنسبة لي، سطورها متشابهة جدًا، مثل هذا السطر: 100 عال

5 3 1

10:00

230

006

130

خالتي ايش هذا؟ قلتها مصدومة ضحكت خالتي، المتخرجة للتو من الجامعة: هذا اسم المادة، وهذه أيام الأسبوع، الوقت، رقم الشعبة، المبنى، القاعة.

بعدها ترجمتُ الجدول إلى صحيفة كبيرة بها كامل المعلومات وأسماء المواد كاملة والأيام وغلفتها بتجليد الكتب الشفاف وخبأتها معي لأحفظها في يدي وعقلي جيدًا. كان كل شيء رغم بساطته فيما بعد، معقدًا في بدايته وعجيبًا. أه الآن لديك محاضرة للغة الإنجليزية، هل تودين الحضور؟

مرت في ذهني تجربة الطفولة مع اللغة الإنجليزية، إذ بدأت سنوات دراستي الأولى في مدرسة «روضة منصور»، التي تُدرّس فيها المواد باللغة

الإنجليزية، الفن والعلوم، والرياضات، والرياضة. نتحدث بإحدى ثلاث لغات، إما الإنجليزية أو الفرنسية أو العربية، بحسب المادة والمعلمة، فلكل أستاذة، لغة نخاطبها بها، نخاطب بانضباط شديد ونُحاط بالكثير من العناية والحزم.

كان كل شيء في المدرسة متخصصًا ومتميزًا في آن واحد. ما زلت أذكر ترقبنا للذي المدرسي «المريول» ومتابعة أخباره في الصحف، حيث يأتي مفصلاً بمقاساتنا ومحملاً بإخرة من فرنسا. ثم انتقلت من تلك المدرسة الأرستقراطية إلى مدرسة أخرى تختلف تمامًا. الفتيات هنا أكثر شغفًا وحرية وضحكًا. المبنى عشوائي كثير الحجرات والردهات كأنه منازل متشابكة. كنا نجلس في انتظار معلمة اللغة الإنجليزية، والبنات يتهاמשن: «جت جت مسز ميمي». هن يعرفنها، وكنت الوحيدة الجديدة في ذلك الفصل.

بادرْتَنِي بالسؤال: «اسمك إيه»، ثم طلبت مني أن أُعرِّف نفسي، كنت أقف بانضباط عال وأجيبها بإنجليزية متقنة، احترامًا للمادة وأستاذتها كما اعتدت سابقًا، وبعد السؤال الثالث قالت لي: «إنت بتتكلمي انجليزي ليه؟». كانت كلمتها تلك مُربكة لكل ما أعرفه واعتدت عليه، صدمني سؤالها وخَيَّبَ أُملي في كل حصص اللغة الإنجليزية، فقدت اهتمامي بها تمامًا، ومما زاد الأمر سُوءًا هو أن معظم محتوى المادة بدائي ومُمل ويبيعث على الضَّجْر. كنت لا أجلس مقابل «مسز ميمي» في حصص اللغة الإنجليزية أبدًا، كنت أميل وأقابل الجانب الآخر من الفصل طيلة حصَّتها، كاحتجاج صامت مستمر، كان وقت الحصة ثقيلًا مُهدرًا ولا نتحدث الإنجليزية فيه إلا لِمَامًا، وإن تحدثت المعلمة فبلهجة مُكسرة وحروف متداخلة.

سارة.. وين رحتي؟ هاه؟ تحضرين المحاضرة؟ يلا الآن بدأت يمديني؟ ايه يلا نروح وعادي تنتظريني؟ أكيد عادي...

ويشكرها قلبي بشكل غير عادي إلى اليوم على رفقتها وإرشادها المستمر لي. وصلت بعد بدء المحاضرة، وجلست في أول كرسي شاغر، الطالبات مندمجات مع الأستاذة البريطانية حمراء البشرة ذات الشعر الذهبي الخفيف اللامع والمصفف بعناية بقصة «الكاريه» باستقامة مدهشة ولمعان واضح، ترفعه خلف أذنها، وترتدي نظارة دائرية. كانت تبدو جادَّة جدًّا، كما كنتُ جديدة جدًّا، لست أدري عن ما تتحدث، لكنني حَيَّيْتُها بتحية عسكرية في عقلي وفتحتُ نوافذ الاستقبال على مصراعها.

أزمة بداية)

كان كتاب مادة الحاسب الأولي مَحْشُوءًا بالأحرف الصغيرة، مليئًا «جداً» بالمصطلحات الجديدة، حتى حَيَّلَ إليَّ أنها لغة جديدة، وبالفعل كنت أترجم جُلَّ الكلمات وأحاول التعرف عليها. ظننت أن هذا وضعي وحدي حتى قامت إحدى الطالبات في آخر المحاضرة واقترحت: «بنات ما وِدكم نَتجَح؟ شرايكم نَتقاط(3) ونترجم الكتاب؟» تعالت هتافات الطالبات، وتجمَّعن حولها لترتيب المشروع، إلا صوتًا واحدًا هادئًا: «لا بنات ما أنصحكم، هذا الكتاب كله مصطلحات حاسب، لو ترجمتوه الآن بتتكرر عليكم هالمصطلحات كل فصل دراسي، لازم تعرفونها بالإنجليزي» قالته لمي، الأولي على المنطقة الشرقية، راق لي هذا الرأي، وشحذ همَّتي أكثر في أن أفهم وأحفظ المصطلحات الجديدة كلها.

كنت أستغرق وقتًا طويلًا في ترجمة المصطلحات، وبعضها حفظته وفهمته من سياقه المتكرر. رفقائي في تلك الرحلة، هذا الكتاب، وكتاب معجم أكسفورد الورقي، ووالدي. كنت أؤدي وظيفتين، التعرف على المصطلحات الجديدة، وتعويض ما أضعته في التعليم العام، من رفض لأي تعاطٍ مع اللغة الإنجليزية، كنت أرفض التدرُّب على الإملاء قطعًا. هكذا كنت أتجاهل المادة وكل ما يتعلق بها، وكنت أجتاز الاختبارات بالحظ، بسبب صدمتي الأولى مع «مسز ميمي». الآن صرت أعلم نفسي من خلال أقراص تعليمية للكتابة والقراءة والمحادثة، وفنون اللغة كافة، هنا أنا في تحدٍّ مع نفسي، أنظر إلى اللغة الإنجليزية كجسر مهم وقاعدة قوية أنطلق منها لإتقان تخصص الحاسب الذي أحب، بعد أن كانت موضع إهمالي التام.

«بنات انتبهوا ولا تضيعوا السنوات، صدقوني معدل الرسوب بيكون كبير في مادة البرمجة، والتحويل الآن أفضل، بدل تضييع الوقت» هكذا كانت تُخَطِّبُ فينا أستاذة مادة الحاسب، كان هناك اتفاق على توعيتنا أو «إرهابنا» جيدًا من التخصص وصعوبته، رحمة بنا وبهم أن ننشأ و «نقعد بحلق الكلية» مثل الدفعات السابقة التي يكون فيها الرسوب كبيرًا، بل يصل أحيانًا إلى أكثر من نصف الشعبة، ويتكرر. قررت البقاء وخوض الصراع، رغم أن المستقبل مجهول تمامًا، وليس لي سفينة ولا مجداف في ذلك الخضم سوى حبي الكبير للحاسب والبرمجة وإصراري على فهم المادة وابتلاعها جيدًا. كل خطاب مثل ذلك يشعل فيَّ عنادًا وإصرارًا على الاستمرار «ما كنت أسمع». مضى الشهر الأول كماراثون للتعرف والتعرّف على كل جديد حولي. «بنات

درجات الكويز جاهزة وممكن تشوفوا الأوراق بمكتبي» قالتها أستاذة المادة عند نهاية المحاضرة. خرجت مع أفواج الزميلات نقصد مكتب الأستاذة، كنت أرقب خوف زميلاتي وسخرية نوف منهن، كانت تكسر جدية الأشياء بضحكتها التي لا تنتمي لشيء إلا لروحها ونظرتها الساخرة للعالم، يعجبني أنها لا تكثر لشيء ولا تعرف أو تعترف بالقلق. انتظرنا دورنا لدخول مكتب الأستاذة، واتخذت مكانًا أقف فيه بين الزحام لأطلع على الورقة. كادت عيناها تخرجان من مكانهما «ستة من عشرة»! بعد كل محاولاتي الجادة والطويلة والصادقة والدقيقة لابتلاع الكتاب، «ستة من عشرة» كائت صفة قوية، خصوصًا أن الأخطاء غير متوقعة. الجميع مُنكبَّ على الأستاذة بالترجي والاستعطاف، «بس هذا أستاذة تكفين ما دريت». كان هذا ديدن الكثيرات، لكن كبريائي، أو خجلي، أو عصاميتي تمنعني أن أستعطف أحدًا، واستمر ذلك إلى التخرج، خصوصًا إذا فهمتُ خطئي وكنت أستحق الدرجة، فكيف أسأل ما ليس لي فيه حق؟

«أمل كم جبتي؟» سألتها نورة، ردّت أمل ووجهها أحمر محتقن وعيناها ممتلئتان بالدموع: «خمسة من عشرة» أغقبتُها بدمعة ممزوجة بالقهر.

«خمسة يا الظالمة وتصيحين؟ احمدى ربك، أنا ماخذة واحدا!» قالتها نوف وهي تهزُّ رأسها «واحد زي الصفر يعني لو ما اختبرت أزين لكرامتي والله» وتختتم كلامها بضحكة هستيرية قطعت سكوننا وصدمتنا الأولى، ثم بدا لي أنني محظوظة، بل محظوظة جدًا... لملمتُ نفسي وأعدت الورقة للأستاذة ثم خرجت.

(النزول من القطار!)

أثناء سنتي الأولى في الجامعة، درّستُ مادة البرمجة الأولى، وكانت تحية أستاذتها لنا «نصّكم رأسيين.. أحسن تحولوا من الحين». في خِصَم صراعي مع تلك المادة كنت أجهّز كعروس، أمضي في رحلات التسوق وقتًا طويلًا، أجرب هذا الفستان وذاك، وتُشري لي أشياء كثيرة وغريبة، كل ما أعرفه عنها أنها لي، وبمقاسي، وبعضها سألبسها بدل «بجاماتي» الواسعة المهلهلة. مضت الأشهر وأخذت الحاجيات تزداد في غرفة مخصصة لجمع المشتريات البراقة، الزاهية، اللامعة والجديدة. حجزنا أجمل قاعات الأفراح لإخراج تلك الليلة بأبهى حُلّة، وكما يليق بأول ابنة وحفيدة في العائلة. كنت في السابعة عشرة من عمري، وتقدم لخطبتي شاب يكبرني بعشرين عامًا، طبيب طيّب، كان من جملة الشباب الذين يعرفهم والدي من خلال عمله كمستشار أكاديمي، فأسرّ والدي بعصاميته، واخترق قلبي بقربه، ولطفه، ووروده التي تحيطني دائمًا. كنت أنظر إلى نفسي في المراة بشكل لا يمكن لي نسيانه أبدًا، كنت أشعر حينها وللمرة الأولى بأنني جميلة حقًا، أنا أميرة قلب أحدهم، ومحور اهتمامه الشديد والمستمر. كان إحساسًا لذيذًا جديدًا وغريبًا.

بعد عقد القران، أو ما نسميه بالملّكة، أصبح يزورني بكثرة. كنت أوافق في كل شأن، إلى أن جاء ضغط الاختبارات وشعرت حينها بأن حاجتي للتفوق تضاءلت، وحلّت محلها رغبتني في النجاح فقط، رضيت حينها بالكفّاف: النجاح فحسب. أصبحت تُشكّل زياراته الطويلة عائقًا لي عن استذكار دروسي جيدًا، إضافة إلى بعض المنعّصات التي كانت تحدث أثناء تلك الزيارات، ما خلق هُوّة سحيقة بيني وبينه. لكنني كنت أتجاهل كل ذلك في غمرة حماسي، ورغيتني في إكمال تلك الرحلة المقدسة التي تقطعها معظم الفتيات في مثل سنّي.

تضخّم إحساسي بتلك الهُوّة السحيقة التي كانت تتّسع بيننا كل يوم، ومع كل انتهاك، إلى أن اعترفت لوالدي أنني لا أودّ إكمال هذا المشروع إن كان سيعيقني عن الدراسة، أو هذا ما استطعت قوله. كان ذلك صادمًا لوالدي، خصوصًا أنه تم إعداد كل شيء ولم يتبقّ سوى حفل الزفاف. تفهم والداي موقفني، وأوكلوا مهمة الاعتذار لي وحدي. جلست مقابل خطيبي، وأبي إلى جانبه، وأمي إلى جانبي، لأعترف له: لا أستطيع إكمال هذا المشروع!

(هايرلنك - 1999)

في مادة (أسمبلي) لتعليم لغة برمجة الآلة، وهي لغة من لغات المستوى الأدنى من البرمجة، تُخاطب العتاد مباشرة، وتحتاج جهدًا أقل من المعالج لفك شيفرتها، كما تتميز بالسرعة والخفة. تُستخدم هذه اللغة المهمة حتى وقتنا الحالي، في كتابة برامج الفيروسات التي تخترق قلب الحاسب مباشرة دون مترجم أو وسيط، إضافة إلى أنها مازالت تُدرّس في كثير من كليات الحاسب لأهمية المفاهيم التي على دارس هذه اللغة تعلّمها عن برمجة العتاد. أظن هذه المقدمة كافية، ولننقُد إلى القصة! هذه المادة كمعظم مواد الحاسب التطبيقية تدرس على شقين: المحاضرة والمعمل، والمعمل وقتها تُدرّسه البروفسورة القديرة أ. د. هند الخليفة، التي كانت معيدة حينها، وكنت محظوظة بأن درستُ على يديها!

كنا نأخذ درس المعمل في القبو الكبير الممتد أسفل مبنى 20، وهو مبنى كلية الحاسب في حي الملز. المعمل عبارة عن حجرات كبيرة متشابكة منفتحة على بعضها، لن تُصل لآخرها حتى تقطع كل المعامل في البداية، وفي أطرافه كانت توجد حجرات بحواجز منخفضة بها مكاتب المعيدات، أحد هذه المعامل، وأقدمها، كان يحوي أجهزة حاسب ضخمة بشاشات تعرض نصوصًا باللون الأخضر فقط! بلوحة مفاتيح ضخمة بحجم جهاز الفيديو وقتها! أعتذر لكل الألفيين الذين لا يعرفون ما هو جهاز الفيديو.

وفي إحدى محاضرات المعمل طُلب منا الانتقال إلى المعمل الجديد الثمين الذي يحوي أجهزة «وندوز 95»، كانت المحاضرة غريبة ومهيبية، ربما لأننا في معمل «ملقوم» وعلى مقربة من إدارة الكلية!

ابتدأت البروفسور هند -المعيدة المسؤولة عن المعمل وقتها- استعراضها موقعًا مكتوبًا بلغة التوصيف (HTML)، وكانت تنتقل بسلاسة بين الصفحات، وتسحب الصفحة للأسفل والأعلى بالتحكم الجانبي. «واو» أول صفحة إنترنت أراها في حياتي! ثم تضغط بمؤشر الفأرة على رابط أو «هايرلنك» لتنتقل إلى صفحة جديدة. كان هذا «الهايرلنك» أو الرابط العجيب كافيًا جدًا لأن يربطني للأبد ويدفعني للاستكشاف والدهشة... فلغة البرمجة التي استعملناها في ذلك الوقت «باسكال» كانت نصيّة. ونتائج البرمجة تظهر مصفوفة كنصوص في شاشة سوداء وأعظم تطور وقتها هو أن نستعمل مكتبة الرسوم لرسم ذوائر، خطوط ومربعات في شاشة النتيجة. كنا نتفتن

في استعمال بعض الحروف والرموز المكررة «لتزويق» شاشة النتيجة
وزخرفتها، فهذا سقف الفن والإبداع حينها.

بعد استعراض الموقع والهايبرلنك المدهش، حدثتنا أن الإنترنت هو فرصة
عظيمة للجميع، وأن كل الشركات سيكون لها وجود على الإنترنت، وسنتمكن
من التواصل مع أي نقطة في الكرة الأرضية من خلال هذا الإنترنت. حدثتنا
عن (ياهو) و(نتسكيب)، ولم تكن نسمع وقتها عن أي من ذلك، فضلاً عن أن
نعرف الفرق بينهما.

(موقع بلا «نت»!)

سألنا الأستاذة: من جرّب الاتصال بالإنترنت؟

تبادلنا النظرات متأمليين أن ترفع إحدانا يدها... لكن ذلك لم يحدث... بعد صمت، رفعت إحدانا يدها وقالت: والدي يتصل من مكتبه الموصول بكيابل من البحرين... ثم استدركت، ولكني لم أجربه شخصيًا...

لم نكن نعرف ما هو الإنترنت وقتها، كنا نسمع أنه سيتيح الكثير من المصادر والمعلومات وسيسهّل التواصل بين أرجاء الأرض. كان شيئًا كبيرًا مهمًا مبهمًا، كأنه تقنية العملات الرقمية في وقتنا، يُحدث ضجة كبيرة ويعد بأمال عظيمة على مستوى الاستثمار والجدوى، ولكن لا أحد يدرك بالضبط إلى أين يتجه، وماهي الوعود التي سيفي بها.

بعد زوبعة جهالتنا التي ثارت، أثارت الأستاذة أيضًا زوبعة أخرى، سيكون مشروع المادة تصميم موقع!

كان الطلب صادمًا، إحدى الطالبات تجرّأت وسألت بصوت مسموع: «كيف نصمم موقع على الإنترنت بدون ما نكون متصلين بالشبكة!». أخرى تهمس باعتراض ممزوج بالدهشة والعجز والسخرية من الذات «وش الموقع أصلاً؟»

قُطع التهامس بصوت واضح: المطلوب هو صفحات مثل هذه... انظرن... ويمكن كتابة شفرة الصفحة باستخدام برنامج المفكرة «نوت باد» وبمجرد حفظ الصفحة بامتداد (HTML) يتغير نوع الملف ويصبح صفحة شبكية يمكن استعراضها في متصفح الإنترنت «نت سكيب».

كل التساؤلات التي أودّ طرحها، قد طُرحت، بل كل الاعتراضات الطريفة والعنيفة تم قذفها في ساحة النقاش. استمعت بصمت، انتهى وقت المعمل، فلنصمّم موقعًا! كنت قد تعرّفت على منال، وهي تشبهني في كونها تهوى التعلم الذاتي والتجريب، في وقت كانت فيه الطالبات على صنفين: صنف يحرص جدًّا على درجاته ولا يركز كثيرًا على التجريب والتبحر في التطبيق، لأن ذلك سيستغرق وقتًا يمكن استغلاله في الحفظ والاستذكار وحصد الدرجات، وصنف يجرب ويطبق ويتوسع ويختبر كافة الاحتمالات، ولو أدى ذلك إلى التقصير في استذكار بعض المواد وعدم إحراز الدرجة الكاملة. طبعًا هناك من يجمع بين الاثنين، وهم الندرة، ومن يخسر الاثنين وهم كثر!

اتفقت معها على أن نكوّن فريقًا واحدًا، وتوجهت إلينا زميلة أخرى ترغب بالانضمام ولم نرفض. كانت شديدة التحفظ، ولم تحضر معنا في أيّ من اجتماعاتنا، ولم نرّ صفحتها الخاصة إلا بعد إلحاح شديد وقبل التسليم بوقت وجيز! بدا مع الوقت أنها من الصنف الأول.

صادف وقتها انعقاد معرض الكتاب، ذهبت ولم أكن أعلم ماذا أريد؟! سأبحث عن كل ما يساعدني في تصميم الصفحة بترميز (HTML). أيضًا أحضرت كتابًا آخر عن تصميم صفحات الشبكة «ويب ديزاين» وتكوين الرسوم «جرافكس ديزاين». كنت أحتاج لأكثر من فنّ لأنهي الصفحة باحتراف. أجتمع مع منال في القاعات الفارغة، نخطط ونتبادل الكتب والأقراص المرنة، التي تحتوي على الأعمال التي انتهينا منها.

نزلنا إلى المعمل، كان السقف قريبًا، تحمله عشرات الأعمدة الغليظة، والمكان يوحى بالضيق... عند باب مكتب المعيدة تتكوّم عشرات الطالبات اللاتي ينتظرن فرصة الدخول لسؤال المعيدة والاستفسار منها بشأن المشروع المُقرّر عليهن إنهاؤه. هنا وفي هذا الزحام تسمع الشكوي والتذمّر والحنق المتبادل وتفريغ الشحنات الغاضبة، التي تصهر أي رغبة في إكمال المشروع، أو ربما تشعلها! تعاهدت ومنال أن نهي هذا المشروع دون أن ندخل في زوبعة الطالبات السلبية. «داري على شمعتك تضيء» هكذا اتفقنا واعتزلنا «شوشرة» الطالبات. كما أن كبرياءنا العلمي كان عاليًا ويمنعنا أن نصطف لإلقاء الأسئلة، فكل ما نريده موجود في الكتب وليس علينا سوى القراءة، وإن كلفنا ذلك وقتًا أطول، فسنصل في النهاية...

كنت أقسم جدولي بدقة شديدة وأطبع هذا التقسيم وأراجعه وألتزم به لأنهي كافة متطلبات المواد. رغم ذلك، لا تسير الأمور كما أخطط وأريد أحيانًا، ولا تسير بأناقة شكلها الملون في جدولي المطبوع.

كنت أجلس في قاعة فارغة، أقرأ وأعمل على المشروع، وانتبهت للوقت فإذا هي العاشرة! وقت محاضرة المحاسبة. لا أحب كيف تسرق هذه المادة، بمحاضراتها الثقيلة واستذكارها المطول، وقتي الثمين لإنهاء المشروع، وكيف أنها تقطع حبل العمل والاستغراق والأفكار. لكن عليّ أن أحضر وأنجح فيها! كان صراعًا لتحديد الأولويات والالتزام بها. وربما تسرب ذلك التملل إلى اللاوعي فلم أتنبه إلا وهي العاشرة وعشر دقائق! حزمت أمتعتي وهرولت إلى قاعة المحاضرة. كانت المحاضرة تشرح ببطء شديد وبتفصيل ثقيل على الروح. كنت أتابعها بعيني، وأسرح بعيدًا في مشروعني جُلّ الوقت، كيف سأنهي كافة الصفحات قبل الأسبوع القادم حتى نربطها قبل التسليم،

وماذا عن الخلل الذي لم نكتشف موضعه بعد يا ثرى؟! وماذا عن تصميم الصفحات وتقسيماتها وموادها وألوانها. ماذا لو لم ننجح في الربط؟ يا ترى هل انتهت منال من جزئها الخاص؟ يقطع حبل أفكارى صوت عال لهاة مضمومة ممطوطة تسير باستهتار «منه» ... ممن؟ من المدين، وإليه... إلى من؟ إلى الدائن، بنظرة سريعة إلى اللوح، مازلنا في نفس النقطة، ونفس الجدول ونفس معاملة الزبون «أحمد» الذي يحاول شراء سيارة من شركة النمر، لم يفتني شيء.

كان اجتماعنا في يوم صيفي حار، عند الثانية عشرة ظهرًا دخلنا مبنى الكلية، مررنا بصندوق الثلج للمشروبات، أدخلت يدي لأخذ علبة الماء الغارق أسفل الثلج، أظاهر بالبحث بينما أبرد يدي بالثلج، عادة سرية لذيذة! اتجهنا إلى المصعد الذي يزينه شباك يكشف المبنى طابقًا طابقًا، كان النظر إلى تلك الطبقات التي تمر إلى الأسفل ونحن نصعد مثيرًا ومسلّيًا... وصلنا إلى الدور الثاني... توجهنا إلى قاعة معمل اللغة المهجور، فهي قاعة من لا قاعة له! مشينا إلى نهاية القاعة، اتخذنا ركنًا منها وأنزلنا كل ما نحمل، تربّعنا جيدًا، ولم أنس تلك الجلسة التي لملنا فيها أكبر خيباتنا. نظرت إلي منال بصمت... وفي عينيها إحباط وتململ...

ما الذي حصل منال؟ أظن أن خطتنا الرهيبة في أن نعتمد على أنفسنا باءت بالفشل! ماذا؟ نعم... مرت سبعة أسابيع ونحن لم نتمكن من ربط الصفحات واستعراضها بشكل صحيح! لقد تعلمنا كيف نبرمج الصفحات وأحرزنا تقدمًا ملحوظًا.. عن نفسي تعلمت كثيرًا قاطعتني بنبرة ملؤها الإحباط... ولكننا لم نصل وربما لن نصل في الوقت المطلوب!

صمت..

هل سنتوقف عن العمل منال؟ الموضوع معقد بل شبه مستحيل... كتابة البرنامج في المفكرة يستغرق دهرًا، ولا يوجد مترجم أو «كمبايلر» يوضح مواضع الخطأ قبل الحفظ... دقيقة! سمعت عن برنامج لتحرير صفحات الويب سيساعدنا في كتابة واستعراض الشيفرة وتجميعها بشكل أفضل من المفكرة. حقًا؟ لم لم تخبريني قبلاً؟ عرفت ذلك صدفة بالأمس من الطالبات! رائع!

هنا ازدادت سرعة التصميم وتجميع الصفحات بشكل مُطرد وكبير، وتمكنا من صناعة وتجميع كافة الوسائط وإظهارها بشكل صحيح على الصفحة.

صادف وقتها احتفال المئوية الوطني، فأضفنا صورة للمئوية، يبدو فيها الملك عبدالعزيز يمتطي جوادًا ويحمل علمًا يرفرف، استطعنا تكوينها بدمج صور عدة، وحركنا كتب مناهج المستوى الخامس بعد تصويرها وتحريرها وتجميعها يدويًا، كان موقعنا مرجعًا للمستوى الخامس بكل مواده وكتبه. تم استغلال كل ما يمكن استغلاله من أدوات بسيطة آنذاك. في يوم المناقشة، استأذنت من أستاذة المادة أن نستعمل مكبرات الصوت، توجست في نفسها خيفة، «فيه موسيقى؟» لا أستاذة ما فيه. أدخلنا القرص المرن في الجهاز واخترنا الملف الرئيس

[index.html](#)

واستعرضنا ثُحفتنا التي تعجّ بكل التقنيات الممكنة وقتها، المرئية والمسموعة، والتي صنعناها يدويًا. لم ولن أنسى ملامح وجهها وإشراقة أساريرها وهي تتباهى بما صنعنا أمام أستاذة المادة التي نادتها لتحضر مناقشتنا. كانت تلك المكافأة! وكان يومًا جميلًا بحق.

(مصلى ليبرالي!)

كل يوم قبل بداية المحاضرات، من الساعة والنصف صباحًا إلى الثامنة أدخل في غرفة أشبه بالقبو، مكانها أسفل إحدى القاعات المدرّجة، وسقفها منخفض يتدرّج في الانخفاض حتى يبلغ ارتفاعه أقل من مترين عند نهايته. ذلك هو مصلى الأقسام العلمية في الملز، الذي كان يُلقى فيه يوميًا درسٌ هو عبارة عن قراءة من كتب التفسير أو السيرة. أحرص على حضوره كل صباح كما عدد لا بأس به من الزميلات من مختلف الكليات، عددنا يتراوح بين العشرة والمائة. دخول المصلى والجلوس فيه للدرس ثم الخروج دون التفوه بكلمة يغمرنى بسيل من السكينة والسلام. فأمشي لمحاضرتي الأولى بحماس، أدخل القاعة وقد امتلأت بالطالبات اللاتي يثرثرن هنا وهناك، وبعضهنّ تنفض عوالق النوم ببطء وكسل. في المستويات العليا أتاحت لي الفرصة لأكون من يقرأ كتاب السيرة، كنت أستمتع بذلك كثيرًا... وتحضر معنا بعض الأستاذات والمحاضرات وطالبات الدراسات العليا من كافة الأقسام العلمية، الجميع يجلسن على الأرض جنبًا إلى جنب بكل تواضع للاستماع، وكأن على رؤوسهن الطير.

على جدار المصلى لوح إعلانات لأوقات المحاضرات والدروس المسائية. مع فسحة لنشر المقالات المفيدة بعد أن تراجعها إحدى الأستاذات. فكان هذا ملعبى الصغير للإبداع. فأصمم مقالات كاملة ببرنامج «كورل درو». أتذكر شكلها ومحتواها إلى اليوم، مقالات في التربية وفي الأخلاق والسيرة، وأكتب أحيانًا مقالات ذات طابع اجتماعي. كان لتلك المقالات صدى كبير لجرأتها وصراحتها وأسلوبها الخفيف، كان يسعدني ذلك ويدفعني لكتابة المزيد. في المستويات العليا، أصبحت أكتب وأرسم صور المقال باستخدام «وورد» وحده، واعتبرت ذلك قمة الاحتراف، كوني أرسم بحرية وبراعة باستخدام برنامج مخصص للكتابة (مرفق هنا أحد المقالات التي نشرتها في لوح الإعلانات).

العلاقة الأخوية في المصلى سمة واضحة، تستند على أساس عقدي وهو الحب في الله، الدافع الرئيس لعمق ومعنى تلك الصلات الوثيقة. قوة الأخوة تكمن في العُصبة، وفي إبعادك عن الترهات ومُضيعات الأوقات، في حثك بالمحفزات وإحاطتك بالأقران المتوثبين دومًا والتّواقين للتسامي أبدًا، لتتنافس معهم، وتستحي من أن تتخاذل في دوائرهم. ومن أشكال تلك الأخوة الطريفة أن البنات انقسمن إلى أم وأبنتها، الابنة تكون غالبًا مُستجِدّة،

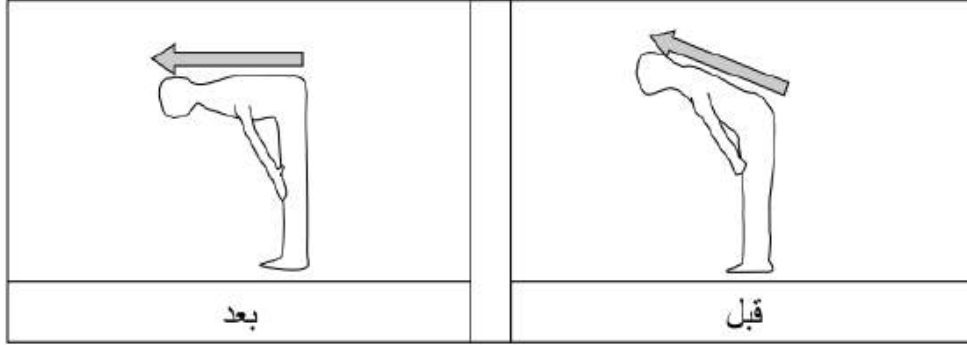
والأم في آخر أعوامها الدراسية. وعلى الأم الرعاية والعناية بكل شأن لابنتها، تفعل ذلك بلا مئة، بل حبًا وكرامة. يشمل ذلك شؤون الغداء وترتيبات التنقل والمساعدة في تسجيل الجدول الدراسي. وكأنه نظام المرشد المنتشر حاليًا في العالم. كان الإيثار سائدًا، والبذل خلقًا معروفًا نبيلًا تجده دائمًا من رائدات القصى. لا أذكر أن لي أمًا، ولم أكن أمًا لأحد، يضحكني ذلك بيني وبين نفسي كثيرًا، رغم جديته وجدواه عندما أتأمله الآن.

ما زلت أذكر تلك الرسالة المدسوسة في حقيبتي بعد إقائي للدرس الصباحي. «إقاؤك كان أسرًا.. أحبك». لست أدري إلى اليوم ممن تلك الرسالة. وكان يحصل ذلك، ويكون بشكل رسائل مكتوبة أو صوتية تستخدم فيها أناشيد الأخوة ومشاعرها القوية، مذيبة أحيانًا باسم أسطوري عجب يزيد اللغز إثارة. كانت تلك أقصى «الشطحات» العاطفية في تلك البيئات التي تفصل فصلًا تامًا بين الجنسين. وليس ذلك فحسب، بل تحيط الذكور بهالة درامية مرعبة وتصفهم بالذئاب البشرية الماكرة، والفتاة شاة ضعيفة بلا عقل. وتجرم أي صوت، أو حوار يكون بينهما. يصعب تصديق ذلك الآن لولا أنني عشت شاهدة في ذلك الزمن.

المصلى مدرسة صغيرة، ونحن من ئديرها بحرية كاملة وصلاحيات مطلقة مع الأستاذة المسؤولة، نهتم بإعلاناته ونشراته، ونشغل محاضراته الصباحية بقراءة الكتب أو الدروس، ودوراته المسائية في التجويد وغيرها. وفي نهاية العام، تمنحنا الجامعة بكل كرم وثقة عالية، المسرح الكبير ليوم كامل «لحفل المصلى». ذلك يوم عظيم نؤدي فيه مسرحياتنا وننشر فيه أحلامنا الكبيرة «جدًا» بحجم «الأمة» وبقداسة «الدين». يوم الحفل نتفنن بإبراز حبنا وشغفنا لتاريخنا ولغتنا وللشعر العربي الذي ننظمه بأنفسنا مع بقية فقرات الأداء بكل براعة ومهارة، نعم كنا نكتب قصائدها ونخرج حفلنا بشكل كامل. يتوج الحفل بحضور الأستازات ووكيلات الجامعة، وتكرّم فيه كل من ساهمت في نشاط المصلى أو تنظيم الحفل الكبير. وهو يكون دائمًا آخر يوم دراسي في العام، قبل الإجازة نودع فيه بعضنا وعامنا بختام نفخر به، ونتذكره للأبد. كان ذلك وجهًا جميلا للصحة، وكان المصلى ليبراليًا من ناحية سماحته وانفتاحه، فهو حر منضبط مغرم باللغة والأدب والقرآن والسيرة، وصيانة القلوب وتنقيتها. بعكس بيئات أخرى غرقت في التنميط والتمظهر دون صيانة أو إشارة للإنسانية والروح، فائقة في اعتقاد الفوقية، وأنها تملك الرأي الأصوب الأوحده... أظن أنني نجوت وقتها من كل ذلك وأكثر، لحسن الحظ.

1312

نقطة انطلاق



ما هذا الشكل؟ .. قبل .. بعد .. ما هذا؟
 سأخبركن عن كل شيء .. واليكن الحكاية:
 كان ذلك في أحد الأيام وفي مصلى الجامعة .. حيث صلت بسمه الضحى وانتهت وقامت بطي
 عباءتها وجلست في انتظار أخت لها ستأتي .. وفي تلك الأثناء اقتربت مشاعل من بسمه وهي
 أخت لبسمه قد عرفتها منذ ما يقارب العام ولكنها كانت لا تراها إلا نادرا ..

- السلام عليكم (ومنت يدها للمصافحة)
- وعليكم السلام
- أنت التي كنت تصلين بعباءتك هناك؟
- نعم
- ولكنك .. لم تنمي ركوعك كما يجب

عبارة صغيرة وصريحة .. لكنها حملت من معاني الأخوة والتناصح والرغبة في الخير ما
 يقف أمامه الإنسان ليتأمل طويلا .. حقا .. (المؤمن مرآة المؤمن) لقد كانت أربع كلمات ..
 ولكنها صنعت الكثير في نفس بسمه ..
 فقد زاد حبها في الله لمشاعل وعزمت على أن تبدأ (مشروع ركوع) لتليين عضلاتها ..
 وتحسين ركوعها .. وكان هدف المشروع أن تكون كما قيل عن النبي صلى الله عليه وسلم
(كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا رَكَعَ لَوْ وَضِعَ قَدْحٌ مِنْ مَاءٍ عَلَى ظَهْرِهِ لَمْ يَهْرَاقْ)
 وأبشركم نجاح مشروعها ﷺ ..
 وأنا بدوري (وعشان تحبوني وتدعون لي) أدعو نفسي وأدعوكن إلى مشروع آخر ..
 وهو (مشروع الخشوع) وأنا أتق أنه بتوفيق الله وبدعاءنا إياه ومحاولتنا الدؤوب سنصل إلى
 نتيجة ..
 (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون) ... أتمنى للجميع النجاح .. وبالتوفيق ﷻ

لحظة .. نسيت أن أقول شيئا ..
 هناك نوع آخر من الركوع الخاطي (غير ركوع بسمه القديم)
 وهو أن يكون الرأس أخفض من الظهر كما في هذا الرسم
 إلى اللقاء :)



(حراج الكمبيوتر)

مكافأتي الجامعية كانت تُسكب كلها في شراء مستلزمات التقنية. نهاية الأسبوع تعني مكتبة جرير، أتزّه بها، وأتصفح المجالات التقنية، أنتقي كل جديد مميز من أقراص الليزر (CD) التعليمية في اللغة والرياضيات، بل حتى الطب. كنت أطور لغتي بالتعلم الذاتي. والطب هو حبيبي السري الذي أتعلمه بنهم لأشبع فضولي الحيوي المستمر.

تلك الأقراص كانت مفتاح العلم، إضافة إلى مجلات الحاسب الدورية التي تأتي بكل جديد في عالم التقنية الساحر، كانت المجالات تلك «قوقلي» وكنت أنا «قوقل» من حولي، إذ يمكنني آنذاك الإلمام بمعظم التقنيات الشائعة والحديثة ولم يكن يفوتني شيء منها، أصبحت مرجعًا مهمًا لكل من حولي، حتى أستاذاتي. كان بالإمكان العيش وقتها بمتلازمة فومو(4) أو «خوف الفوات» والفوز عليها! فليست هناك مشتتات رخيصة تسرق الانتباه، بل كل ما حولي حينئذ هو إعلام منضبط، تمت مراجعته ونشره في مصادر معروفة ومتخصصة ومسؤولة من مجلات وكتب ووسائط تعليمية. حين كبرت وصرت في المستويات العليا في الجامعة تعرفت إلى «حراج الكمبيوتر»، فكنت أجوبه مع والدي دكانًا دكانًا لشراء العتاد أو (hardware).

يلا مشينا بس هذا المحل بابا شوي بس

أقولها في المحل العشرين، وكان والدي يضيق أحيانًا من رغبتني في زيارة كافة المخلات لأخذ صورة واضحة عن الجودة والأسعار. فتنت بعمارة الحاسب، وقطعه المختلفة، أخذت أقرأ عنها من كتاب عمارة الحاسب، وبدأت رحلتي في تفكيك جهازي واستكشافه ثم إعادة تركيبه والتأكد من عمله كل مرة، مهمة عالية الخطورة كتلك كانت عالية الإشباع. أتعاطى القطع بحذر شديد خشية التماس الكهربائي، أو خوفًا من إتلافها. أتقنت تلك اللعبة واشتقت أن أبني حاسبًا حقيقيًا من الصفر.

كانت فرصتي الوحيدة لتحقيق ذلك هو أن أقنع أختي بأهمية اقتناء حاسب شخصي بدل أن نشترك في الحاسب الذي أستعمله للدراسة ولشؤوني الأخرى، فصندوق السحري منحني أجنحة أحلق بها في فضاء لا نهائي من المعارف والأفكار والأشخاص، منحني فرصة لاكتشف فيها الشعب الذي أعيش معه في نفس المدينة والمكان، لكن بمعزل! إذ تفصلنا صناديقنا محكمة الإغلاق في الواقع والمحاطة بالأسوار العالية وبالكثير من الغموض.

منحني صندوقي مفتاحًا ومجالاً رخبًا تَجَاوَزْتُ به أسواري الصامتة، وكان نقطة مهمة لتحزري ونضجي الفكري. أتقل بانهار بين «غرف الدردشة» للفن والحوارات الفكرية والاجتماعية، وغرفة تعلم اللغة التي يتناوب على إدارتها كهول بريطانيون. شُعرت بدهشة جميلة حين رأيت مُسِنَّةً في السبعين يتداول الحوار ويُعلم الغرباء بكل كرم ولطف وجدية هكذا دون مقابل. بين تلك الغرف كانت صدمتي الاجتماعية الأولى، التي بدأت مع سؤال التعارف الغريب الذي يتكرر دائماً: «بدوية أو حضرية» لأجيب بسخرية: من اللي يسكن خيمة الآن؟ بيتي في العليا، شمال التحلية! مع تكرار الأمر مع عشرات الأشخاص، بدا أنه سؤال جاد وحقيقي وأني «مدري وش السالفة» بل إن الناس في بلدي ينقسمون إلى 110 و220، فصرت أرد على السؤال بـ«لا أعلم» ولا يصدقني أحد!

فور موافقة والديّ على اقتناء أختي جهازًا خاصًا بها اقترحت عليها شيئًا آخر:

ما رأيك أن أصنعه لك؟ ساورها الشك كثيرًا، كيف تصنعيه؟ أنا أبنيه لك... صدقيني سيكون مثل الأجهزة الثانية وأفضل. قد بنيتي شيء قبل؟ لا... بس صدقيني أعرف... تدربت على جهازي وقرأت كثير. ولو ما ضبط؟ ما ودي أضيع مصروفي على تجربة. لا تدفعين لي شيء إلى أن تشوفينه يشتغل قدامك!

ألقيت بقنبلة الإقناع الأخيرة، وهنا كانت الصفقة. كنت أنفق كل مصروفي ومدخراتي على شراء القطع مفردة، وإن كانت أغلى من الحاسب الجاهز. بعد التعلم لأسابيع عدّة، استغرقت يومين لبناء الحاسب الأول، وحانت ساعة الصفر: أدزت الجهاز مبدئيًا دون وجود أحد، حتى لا أفصح لو فشلت، ثم اشتغل الجهاز! وبدأت بتهيئته وتحميل نظام التشغيل وكافة البرامج اللازمة، ثم ناديتها لتشهد الافتتاح، نجحت في صنع أول حاسب شخصي وكدت أطير من السعادة. شعوري لا يوصف وأنا أرقبها تستعمل الجهاز الذي صنعه لها. كان ذلك كفيلاً برفع ثقتي في نفسي وقدراتي إلى مستويات فضائية. والدي أمن بي وصار يرافقني بلا ضيق في رحلات «حراج الكمبيوتر» التي كثفتها لصنع سبعة أجهزة أخرى!

بداية الشهرة: «معجزة فوق الرمال»

صديقتي في أمريكا ترافق أسرتها لغرض طبي، كان ذلك في أواخر التسعينات الميلادية، والتي ظهر فيها ما يسمى بالإنترنت!

تواصلنا الوحيد هو مكالمة هاتفية بالكاد تحصل كل شهر، ولا أنسى أنني قلت لها مرة: «تعلمي كل شي عن الإنترنت، عشان إذا جيتي تعلميني» كان لدي فضول شديد، وأغبطها لأنها تتصل بالإنترنت وتعلم فعلاً ماذا يعني هذا العالم الجديد الغامض، والذي يقال إنه يحمل كل ما نريد من معلومات ويربطنا بالعالم أجمع!

بعد ذلك بعام، كنا نتصل بالإنترنت فعلاً! نوقع عقدًا «باهظ» الثمن في أحد مكاتب التزويد بالإنترنت في العقارية، ربما كان المكتب الوحيد آنذاك! وكان ذلك العقد بمثابة بوابة للعالم، يُحضره والدي فأمسكه بكل عناية وامتنان.

بتركيب قطعة إضافية في الجهاز تدعى الخادم «مودم» ثم بسلك منه إلى مقبس الهاتف نتصل تقنيًا. تُرافق ذلك بروتوكولات معقدة تبدأ بإعلان عام في المنزل: «لا أحد يكلم، بنشكك أنت» ثم محاولة الاتصال والدعوات بأن تكلم بالنجاح. إذا نجح الاتصال يصدر الخادم نغمة مميزة وكأننا نتصل بـ«يوفو» من الفضاء، ثم نغمة ضجيج أبيض تستمر طوال فترة الاتصال، وترافق رحلتنا الفضائية الغريبة، بسرعة «سلاحفائية» متواضعة.

نفتح كل الصفحات التي نريد قراءتها، ننتظر تحميلها بشكل كامل، ثم نغلق الاتصال، ونعلن الإفراج عن الجميع «خلاص خلصنا من النت»، ليبداً طابور استعمال الهاتف، ونبدأ نحن بقراءة الصفحات «أوف لاين». كنت أفتح كل شيء دفعة واحدة من صفحات التقنية إلى صفحات «تمر حنا» نجمة الفتيات، والتي تبث فيها سلاسل من القصص المحلية وبلهجتنا أحيانًا، قصص عالية الجاذبية وتسبب الإدمان الشديد، نتحرّق شوقًا لنزول الجزء التالي منها! كنت لا أفتح بداية القصة إلا إذا علمتُ أن الكاتبة قد أكملتها فأقرأها دفعة واحدة، حتى لا يُحرقني الشوق والاحتمالات هكذا في المنتصف!

ما زلت أذكر أول بريد إلكتروني أرسلته، وكان لخالي في أمريكا، لم أكن أعرف تمامًا ما الذي يجري وكيف يعمل، كتبت عنوانه البريدي، وزخرفت البريد بالوجوه التعبيرية المتاحة وكبست «إرسال». لم أكن متأكدة من أن

رسالتي ستصل، ظلت قرب الجهاز، أتصل بالإنترنت، أتأكد من صندوق البريد، وأغلق الاتصال مرة أخرى. كررت ذلك مرارًا، بعد قرابة ساعتين وجدت رسالة في صندوقي، يا للروعة! كانت رسالته حدثًا هائلًا، لم أصدق سرعة الرد، حملت رسالته أجزاء مختلفة من بناته، كل واحدة منهن كتبت لي شيئًا، رسالة موشاة بالصور المتحركة والألوان الزاهية، أسعدتني تلك الرسالة وخلقت لدي إشباعًا وسعادة كبيرة، وصرت أنادي كل من في المنزل ليقرأ هذا الرد العظيم! لقد توصلنا عن طريق الإنترنت!

سرعة المعالج في جهازي وقتها أربعون ميگاهيرتز، وإذا تم ضغط زر (التيربو) في الجهاز يصبح «أسرع»، ليكون ستين ميگاهيرتز! مقارنة ذلك بالسرعة الآن فإنها قد تضاعفت ألف مرة على الأقل. أما سعة القرص الصلب، أي الذاكرة التي تحفظ البرامج والملفات، فكانت لا تتعدى أربعمائة ميجابايت، كنت أحذف اللعبة بأوامر (دوس) لأحمل أخرى وهكذا، لأن الجهاز لا يتسع لأكثر من واحدة!

عند مقارنتها بالمساحات الآن والتي تُقدر بالتيرابايت، والتيرا ألف جيجا، والجيجا ألف ميجا، فإنه لم تزد المساحات والقدرات الحاسوبية فحسب، بل ازداد معها أطراد التطور وسرعته. عادت صديقتي واستقرت في الرياض، وهاتفنتي..

سارة، شفت البنيتين السعوديات اللي اخترقوا عالم الإنترنت؟ وين؟ وكلي فضول ودهشة ما أدري مريت على الخبر في الجريدة عندك الجريدة؟ ما حفظتها والله بس بدورها

أصابني إحباط صغير... وفات هذا الحوار. بعد أيام عدّة التقيت بها صدفة في ممر الكلية الرئيسي في الدور الثالث، وهو دور الوكالة والأستاذات وغرف الاجتماعات. تبادلنا أطراف الحديث، ثم قالت وهي تشير إلى لوح الإعلانات: اها، هذا هو الخبر اللي قلت لك عليه، الحمد لله ما فاتك. التفتُّ إلى اللوح خلفي، وما إن وقعت عيني على الإعلان حتى أصبت بدوار، ولم أفهم ما الذي يجري، معجزة فوق الرمال؟ سارة ومنال... سارة أنا؟ معقول؟ هذا تصميمي السنة الماضية... هذا... موقعي... ولكن... أذكر أننا سلمناه على قرص مرن... كيف؟... توجهت بسرعة لمكتب أستاذة المادة، فورًا بادرتهَا: «هذا موقعنا.. حقنا؟»

قالت «نعم، رفعته لكم على الإنترنت وجهدكم يستحق الظهور.. وهذي نسخة من الجريدة لك...»

طرت إلى المنزل وأطلعت والدي وشريكي في كل نجاحاتي علي الخبر، ولم يتمالك نفسه من الفرح فقَبَّلَ رأسي، وكانت تلك أول مرة يُقَبَّلُ فيها والدي رأسي، كان الموقف سعيدًا محفورًا بعمق في تلافيف السعادة في عقلي إلى اليوم. بعدها كان يشار إليّ بالبنان، «البنات اللي صممت موقع إنترنت، بدون إنترنت». انتشر الخبر في الصحف المحلية والإذاعة، وكنت أرى موقعي حتى في أغرب المجالات مثل مجلة خاصة بأحد البنوك، كان لذيذًا إحساس القفاجاة الجميل والشهرة الصغيرة.

(امسكي الثور من قرونه!)

ظَهَرَ موقعنا المرجعي عن المستوى الخامس، المتضمّن صفحات وطنية عن المثوية، في صحف محلية عدّة، وظهرنا في إذاعات عدّة كذلك. أصبحت شهرتي الصغيرة تقودني إلى المزيد من الشهرة والنشاط اللامنهجي، فكنت أقبل دعوة الكلية في المشاركة في نشاطاتها، أشرح الموقع وأسهم في أغلب المعارض. كان ذلك شهياً جداً، أصبحت مشهورة في الكلية وخارجها، أحادث الغرباء عن شغفي وعن كسب التحدي الذي وضعتة لنفسي.

كنت أسير وأقول: هل من تحدٍّ آخر! ضَحَمَ ذلك ثقتي في نفسي بأنني أستطيع فعل أي شيء، حتى النجاح في اختبار مادة أنظمة التشغيل دون مذاكرة حقيقية. وهذا ما حصل فعلاً في الاختبار الفصلي الأول. لم أمض وقتاً في استذكار المادة، بل خلطت كل ما يمكن خلطه في عقلي ليلة الاختبار، ونتج كائن غير معروف لا رأس له ولا قدم، انسكب على ورقة الاختبار بفوضى، محفوقاً بقلقي وإستيائي. حصلت على أسوأ درجة منذ دخولي الكلية، وأصبت بإحباطٍ حَظَمَ غروري ونشوتي.

طيلة مرحلتي الجامعية، كان والدي هو من يتولى إيصالي وإرجاعي من الجامعة، وأستغل تلك الرحلة في الاستذكار صباحاً، وفي سماع فلسفات أبي مساء. عشرون دقيقة من الحديث الحر مع صديقي الوفي ومعلمي البارع. وفي غمرة ضيقي الشديد ويأسي، صارحته..

– بابا أحس أني طفح كيلى وتعبت، ولا عدت أعرفني، درجاتي تأثرت، ويمكن أرسب!

– أفا! وش العلم؟

– أبغير تخصصي، أبصير مثل خالتي طبيبة أسنان، على الأقل أشتغل على شيء حقيقي!

هكذا قلت له بإحباط وغضب أو ربما أنه ادعاء كاذب مليء بجنون العشاق... فكل ما أعرفه حقيقة عن طب الأسنان هو تقرير خالتي الذي تُمليه للممرضة في كل مرة تفحص أسناني: «بي ساوند.. دي ساوند...».

– أسوأ شيء ممكن تسوينه الآن «الهروب»

- ما هربت، عادي أغير التخصص

- خروجك في هذه اللحظة وهذه الظروف، هروب! مشكلتك ثور هائج، يحاول ينطحك، هل تديرين ظهره؟ طبعًا لا، لأنه ييلحقك ووقتها يكون أضعاف حجمه وأثره النفسي، يكون «يروع»! والأدهى أنه ما راح يوقف طالما أنك مستمرة بالهرب.

- كنت أتابع التشبيه باهتمام شديد، مطعون بالإحباط والغضب واليأس، ومكّلل بالصمت المطبق

- لكن المواجهة، وإن كانت صعبة، مع أخذ كامل الاستعداد ستكون لا شك أفضل، «امسكي الثور من قرونه»

- ... ايه... ودار في خلدي استهانتي بالمادة وبالاختبار وظنّي المغرور أنني سأنجح دون مذاكرة حقيقية...

- نظر إليّ والدي وأكّد: ليس أي استعداد، « تحزّم للواوي بحزام سبع»

- واوي؟ هههههههه والله تصلح اسم للمادة المرعبة.. ايش الواوي بابا؟

- الواوي هو ابن آوي من فصيلة الكلبيات، والسبع أكيد تعرفينه الأسد، عليك التفوق على عدوك في سلاحه إن جاك بخنجر تجين بسيف، وإن كان جيشه عشرة فجيشك يكون عشرين، الاستعداد في كل شأن سبب للتفوق والنجاح... كان يلقي كلماته بنبرة واثقة قوية جادة!

لكنها كانت ثقيلة على روعي المُشوّشة، وصادمة لغروري وجهلي. حاولت استيعابها ونقل تركيزي ومشاعري من التورّم والغضب والتنصل إلى الاعتراف والمواجهة والتحدى. كان سلاحه هو اعتكافي على كتبي للاستذكار وعودتي للنمط الهادئ المنتج البعيد عن الصخب والأضواء.

(علاقة غرامية)

تراكيب البيانات، شاع أنّ من يأخذ هذه المادة، نادرًا ما يتجاوزها في المرة الأولى، فهي أشبه بلغز تعجيزي عديم الحل، فمثلاً يكون الاختبار عبارة عن مسألة أو مسألتين مع أسئلة أخرى. عند الإجابة، يستنزف حل مسائل الحالات جُلّ الوقت، وحلها يكون بخلق كافة تراكيب البيانات التي تناسب الحالة وكافة خوارزميات العمليات التي تتسق مع هذه الحالة، تكتب شفرات كل ذلك ولا يكفي في كثير من الأحوال دفتر الإجابات الأخضر الجامعي العتيق، فنطلب دفترين، ويتم لصقهما ببعض. يحصل كل ذلك في غضون وقت الاختبار الفصلي أو النهائي، الذي لا يتجاوز ثلاث ساعات! كانت علاقتي مع المادة غريبة، وصلتني أخبار صعوبتها في الفصل الذي يسبقها، كانت تفصلني عنها فترة إجازة الصيف فقط.

بابا يقولون ما حد ينجح في هالمادة من صعوبتها! وأنتِ أي أحد؟ عندك الصيف ثلاثة أشهر تستعدين فيها...

كان يشكّني والدي بكلماته، فكل ما يقوله لي تصدقه نفسي وتعتقده اعتقادًا راسخًا كإيمان يسكن الروح. كنت أتسلى بقراءة كتاب المادة والتدرب من خلال كتب التمارين التي وفرها لي والدي، أو «قوقلي» باركه الرب! فكان يحتاج مني اسم المادة فقط ليبحر في مكتبات المدينة بحثًا عن كل كتاب أو كتيّب أو كراسة تمارين تناسب وتطور مهاراتي في تلك المادة! والدي يعتقد أن ليس ثمة مستحيل، فالتعلم والإصرار هو السلاح الأقوى في تحديات الجامعة.

تطورت علاقتي بالمادة قبل الفصل الدراسي، فقد قضيت أشهرًا أقرأ فيها وأحل التمارين. بدأ الفصل، أحبت المادة في منطقتها ومفاهيمها واتسقت معها، وأظن أن قلبي دليلي في كل المواد! ما أحبه أبدع فيه، وما لم يرق لقلبي وعقلي، يكون حملًا ثقيلًا مهما كان سهلًا!

كنت أرافق والدتي والتي كانت ترقد في المشفى، وفي إحدى الليالي التي زان فيها البوح أطلعتها على خاطرة.

نظرت إليّ مليًا وقالت بتأن مشوب بالحيرة: لمن كتبت هذه الكلمات؟ قلت بابتسامة خفيفة: لكتابي... قالت: هل.. حقا كتبت لكتاب؟ سؤالها أحبطني

قليلًا، لماذا لا أكتب مشاعري لكتاب؟ لا أكاد أصدق، فهذه المشاعر تكتب للبشر عادة...

شرحت لها علاقتي به والتي بدأت في الصيف وامتدت إلى أن درست المادة، لا يفارقني أبدًا، أحمله في عقلي وهو بين يديّ دائمًا.

مازلت أحتفظ بالقصاصة!

عذراً رفيعي
وروداً

رفيعي
كنت أنسى يوماً
كنت أرى... بلقائنا
تكرراً والقاعاً

عذراً رفيعي
وروداً

رفيعي
أتذكر يوم كنت أنا
سألك عنك
أهم غموضك... رسولك
أتذكر ذاك الليل؟
يوم كنت أسمع
فيه صوتك

رفيعي
قد كانه أكل بعد لنا
الليل السريع

النهار بطيخه
الحلم لتفعل
لكن حنا كان أكبر بكثير!!!

رفيعي
قد كنت في نعيم
مأنا مل عاشقاً
دوماً تسع رجبتك
تزينيك بأفراح الرهد
مترهد

حلال عليك

رفيعي
قد كنت في نعيم
تحملك في كل مكان
يدريه تتدسد فيهما العطفه
أكنت تحب فيهما (الدرجات)
أتذكر مشوقك لهما كل صباح؟

رفيعي
قد ذمنا سوريا طعم التمدي
كل يوم... ولبننا أظهار الكفاح

رفيعي
تعاقت لدومع ولبيسات
ورعد البند لايه ههاد

رفيعي
لأنه... قد هزنا الأرض
لقد... رفيعي... وروداً

☆ ☆ ☆ ☆

رفيعي
كأني ألعنك العتاب

وهوذا العذاب
لأنك تحش رنونا بقر !!

عذراً رفيعي
ولكن لا بد من الحال طيب
في البرد (الطويل) في (لومنا) العفير
لا بد من مواصلة (النجاح) بالكفاح

وعننا ذلك
أنه صحتك مثلك وادعاهم... بلا تخزبه
ربما ربح غيركم... فلا تحش
ولكنه... سنلتقي... رفيعي
سنلتقي

ولا تخزبه... وانسا العتاب

سابق
1419

(عُدْتُ إِلَيْكَ)

فور تخرُّجي، عُرِضَ عليّ العمل معيدةً متعاونةً فقَبِلْتُ.. عملتُ بكل حب في نفس الجامعة والكلية، وظننت أنه الامتداد الطبيعي لما كنت أفعله في مرحلة الدراسة. كان توزيع الجداول بين المعيدات يتم في مناقشة حامية والكل يشدّ ويدفع تلك المادة والأخرى.

ريم: أنا لا أستطيع أخذ هذه المواد الثلاث دفعةً واحدة، فاثنتان منها جديدتان عليّ! بادرت المنسقة بشكل سريع: إذن نحولها إلى نوب نوب ردت بتبرُّم: أنا أيضًا جدولي مزدحم ولا أستطيع!

كنت أتعجب، لماذا يرفض المواد بهذه الشراسة؟ كيف تكون ثلاث مواد صعبة؟ كنت أدرس خمس مواد في فصل واحد، وكل شيء تحت السيطرة، بل لم أرفض يومًا أي واجب أو مشروع مهما بدا صعبًا ومستحيلًا. هل هناك تعارض بين المواد؟ نظرت إلى جداولهن... لا... فكل مادة في وقت مستقل!

قطعت حيرتي المنسقة: سارة؟ إذن تأخذين هاتين المادتين؟ ليصبح مجموع موادي خمسة؟ وحدثني نفسي أنني لم أقل يومًا لا أستطيع، ولن أقولها الآن! كان صوت الطالبة النجيبة المثالية المعتدة بذاتها يتحدث عاليًا. باغتتني برجاء مستعجل وابتسامة صفراء: ماذا قلت؟ هاه، حسنًا سأخذها

وكانت نظرات المعيدات من حولي وابتساماتهن تشي بشيء من الشفقة. كانت أول مادة هي تراكيب البيانات. ولحسن الحظ أو سوءه كنت أدرس هذه المادة التي هرب منها الجميع! من الطريف أنه حين كنت طالبة أدرس المادة، كتبت قصيدة أقول فيها إنني سأعود إليك! كنت أرى نفسي وأنا أعود للمادة كمعيدة، وأدرسها من جديد. لم أكن أعيا بأي اختصار أو تلخيص للمنهج، كنت أستذكر الفصول كاملة، وتحققت التوقعات «وعدت إليك» (5)!

كان تحضير تمارين تلك المادة مرهقًا وطويلاً.. لكن شرحها ممتع ولذيذ.. يزيد متعته تفاعل الطالبات ورغبتهن الكبيرة في فهم ما أقول. يوم السبت يوم حافل، فجدولي به خمس مواد. كطالبة، ذلك يعني أن أجلس على الكرسي، وأستمع وربما أدون بعض الملاحظات، وإن جُعت فأخرج شطيرتي وألتهمها وأنا أستمع للمحاضرة. لكن كمعيدة فالأمر مختلف! في المحاضرة الخامسة من الأسبوع الأول، من اليوم الأول، كانت القاعة ممتلئة بتسعين طالبة، كنت أشرح بحماس إلى أن أسدل ستار أسود أمام عيني وأصبحت لا أرى وأصبت

بدوار واستأذنت وخرجت. توجهت إلى دورة المياه ولست أدري ما الذي أصابني! كل ما أعرفه أن جسمي أرسل رسالة التوسل الأخيرة! فقد كنت قبل تلك المحاضرة أركض من قاعة إلى أخرى دون ماء أو غذاء، ولم تكن لي وقتها غرفة أو مكان في الكلية أستقر فيه، أحمل حقيبتني وعباءتي معي في كل مكان. ما فعلته جريمة في حق جسدي الذي أعلن الاستسلام، وأعلنت بعدها اعتذاري له ووعدته بأنني سأعتني به جيدًا! تفاهمت مع المسؤولة عن الجداول لتغيير جدولي بأن تكون محاضرات السبت غير متصلة، وأن يكون بينها محاضرة استراحة. وفعلا تم ذلك ومضى الفصل الدراسي بسلام!

(الدرس الأول.. درّس لي!)

بين يديّ جدول التدريس، بخمس مواد تبدو أسماؤها مألوفةً لديّ، تملأ أسبوعيّ كاملاً كما لو كنت طالبة. تدريس هذه المواد الخمس المألوفة سيكون إعادة ظريفة، أو هكذا حدثني نفسي المتخمة بالثقة «الدافورية» (6) العالية!

رصيد الفصول الدراسية العشرة التي قضيتها وأنا طالبة تمخّض عن صراعات كسبت فيها الرهان معظم الوقت، فلم أجرب إلا كفاً فنجاحاً! وكانت هذه معادلتني التي لم تخطئ يوماً. الاستعداد لكل يوم في الجدول مرهق بعض الشيء، خصوصاً أنه يتعلق بالمعيدات الأخريات وأستاذة المادة، ما يستلزم منا التنسيق معها للتمارين المطلوبة وإرشادات الحل المثلى إن وُجدت. يوم الأحد في المحاضرتين الخامسة والسادسة سيكون أول درس لمادة البرمجة الأولى في الكلية، معي معيدتان بخبرة سابقة وأنا ثالثتهن. راجعت ورقة الأسئلة وكان السؤال الأول يبدو كما يلي:

اكتب برنامجاً يفعل التالي: ... يليها سرد المواصفات المطلوبة، ومرفق معه صورة المخرجات المطلوب أن تظهر على الشاشة. رائع هذا يبدو كشربة ماء! ويمكن حله في ثلاث دقائق على أكثر تقدير. قطعّت زميلتي حبل أفكارني المغرق في الحماسة: هاه سارة تبدئين في شرح المسألة الأولى؟ قلت: بالطبع! دخلنا المعمل وكان المنظر مهيباً! تسعون طالبة وكلهن ينظرن وينتظرن بترقب وتركيز حاداً!

وزّعنا أوراق الأسئلة. «كلكم أخذتوا الشيت؟» تأكدنا من أن الجميع لديه ورقة التمارين كتقليد افتتاحي. الآن جاء دوري، أخذت الورقة وتوسطت المعمل المزدهم ورفعتها عاليًا. بنات قرأتوا السؤال؟ ونظرتُ فإذا بعض الطالبات يُشرن برؤوسهن ببطء وبعينين واسعتين بريئتين أن نعم ... ثم أردفتُ قائلة ... جيد إذن اكتبن الشفرة التي تنتج المخرجات الموجودة في مربع المخرجات هنا في الورقة! واضح؟ لم أنتظر كثيرًا وأدّرتُ ظهري منتصرة: انتهى درسي الأول بحمد الله. جاءتني زميلتي مسرعة يختلط في وجهها الدهشة والقلق، بشفتين مزوممتين تحبسان ضحكة تكاد تتفجر...

أرخت رأسها وهمست في أذني: «هذول طالبات برمجة 1، ما يعرفون برمجة لسا.. لازم نشرح حبة حبة». بالفعل اتجهتُ إلى السبورة وبدأتُ بشرح المسألة بالتفصيل المُهل وقالت الآن ابدأوا البرمجة!

مازلت أدين لها بالفضل الكبير لحكمتها و«لملمة» الموقف بشكل سلس دون إرباك أو حرج أو فوضى! كان ذلك أول درس لي في الانتقال من مهارات الفهم والتواصل كطالبة تعلم ما تريد وتعرف كيفية الوصول إليه، إلى معلمة تشرح المسألة بشكل أولي وتفصل في كافة المعلومات بحسب مستوى المتلقي، تبوّبها وترتبها لتسهّل على الطالبات استيعابها!

كان ذلك في قاعة الدرس، في البيت يتحول مكتبي إلى مصنع «تصحيح» لمئات الواجبات وأنا العامل الوحيد. ففي كل أسبوع تأخذ إحدى المعيدات الواجبات لتصححها. معي الآن أكثر من ثمانين قرصًا مرفقًا معه الواجب مطبوعًا، أصحح تلك الواجبات واحدًا واحدًا بإدخال القرص المليء بالأخطار والفيروسات إلى جهازي الذي أعيدته بكلمات الله دومًا ليبقى سليمًا! وفي كثير من الأحوال أضطرّ إلى «فرمته» بعد كل تصحيح. أصحح سطرًا سطرًا، وأنفذ برامج الواجب في جهازي وأكتب ملاحظاتي على ورق الواجب، ذلك كان من أكثر أعمال الإعادة ثقلاً واستهلاكًا للوقت. وفي أحد الأيام قابلت المحاضرة التي كانت تجيب عن أسئلتى بمهنية عالية وصبر واسع حين كنت طالبة وكانت هي معيدة. كنت أشغل وقتها بأسئلتى الكثيرة كل أسبوع بعد المعمل وفي نهاية الدوام. حين تخرجت عرفت ثقل ذلك، وبادرتها: «شكرًا أستاذة أنك صبرت علي، ممتنة لك»، بادرتني بجوابها «بل أنت شكرًا، إجاباتك في البرامج الطويلة كانت نموذجية، كنا نحتفظ بها ونعود لها كمصدر مثالي للإجابات الصحيحة». أتى ردها كشمس سطعت «فجأة» أسعدت روحي، وأدفأت قلبي وأضاءت أفقي وأيامي.

(واختفى الأسد!)

خلال أيام الدراسة، مررت بفترة إحباط شديدة، وزادها أنني لم أتواصل مع أي أحد لشرح ما أمر به، وأسرت خيبتني في نفسي. سقطت في وادٍ سحيق بين الطموح والواقع، وتدحرجت عميقاً. لم أكن أعي آلام عقلي وروحي، ولم أكسر روتيني، بل ازددت عزلة، وكانت أطول مسافة أقطعها في اليوم هي من السرير إلى المكتب. في ذلك الوقت لم تكن هناك مراكز للرياضة، ولم تكن ثقافة المشي منتشرة. كان الناس لا يخرجون من بيوتهم إلا لبيوت أخرى أو للعمل أو الأسواق باستخدام السيارة.

في مساء مطبق الهدوء، وبينما كنت أقبع في حجرتي، أحسست بشعور غريب، شعرت بأنني أفقد توازني ولم أستطع الوقوف، «ماري... ماري...» ناديت الخادمة.. كنت أفقد وعيي تدريجياً ولكنني لم أفقده كلياً. شعرت بدوار خفيف... ترافق مع خفقان شديد في القلب وشعور بالخوف والارتباك وأن ثمة دوامة تبتلعني للمجهول، لكنني بكامل وعيي وفي أقصى درجات الخوف الذي يتنامى ويحاول أخذي للموت لكنني لا أموت...

أسندتني الخادمة ونزلت إلى أمي أخبرها أنني سأموت.. كانت بكامل أناقتها الباذخة، فهي مدعوة إلى حفل كبير اليوم، لكنها أخذتني مع والدي فوراً للطوارئ. لم أستطع الوقوف فساقاي خائرتان، وكأن عضلاتي تحولت إلى مطاط رديء لا ينفع لشيء. ساح جسمي على الكرسي المتحرك. قابلني طبيب سوداني يرتدي نظارة سميقة... نظر إلي نظرة خاطفة، وفحصني بشكل سريع، وقال لأمي بنبرة واثقة ساخرة: «ما فيها شيء، دا شوية هلع».

قالت أمي: «البتت بتموت وأنت تقول ما فيها شيء! لو سمحت اعمل كامل الفحوصات». بقيت هناك أجري الفحوصات ولست أدري ما دهاني. وبالفعل كانت الفحوصات سليمة مائة في المائة. خرجت إلى بيتي وكلمة الطبيب ترن في رأسي «هلع» يا ترى ما هذا الهلع الذي يشبه الموت وليس هو؟ ما زال شكل الطبيب السوداني وهو يقول كلمته ساخرًا عالقًا في ذهني.

من حسن حظي أنني أسكن خلف شارع التحلية بالرياض في وقت ازدهار التجارة فيه، وعليه مركز طبي بقيادة أشهر الأطباء النفسيين. تقبل المجتمع لفكرة عيادات الطب النفسي كان في بدايته آنذاك. حدثت نفسي أن أذهب وأستشير، طلبت من والدي ذلك، وأقق على الفور. حاولت مقابلة الطبيب صاحب العيادات نفسه لكن أقرب موعد معه كان بعد أربعة أشهر. كانت هناك

خيارات أخرى، اخترنا أحدها وحجزنا الموعد وسجلت باسمي الثاني، والجميع هناك يتخفى باسم ثنائي أو مستعار، والمستوصف يتغاضى و«الدنيا ماشية». في غرفة الانتظار المكتظة، تَمَّت مناداتي باسمي الأول، دخلت على الطبيب. كان ممتلئًا، يفيض على الكرسي ويمتد للمنضدة أمامه، يرتدي قميصًا مقلّمًا ونظارات دائرية، «يلا احكي لي كل اللي بتحسي فيه».

كنت أحكي له وأحكي له... وكان هو الآخر يحكي لي مشكلات مرضاه الآخرين... متجاهلاً موضوع «الهلع» الذي لم نتحدث عنه رغم إشارتي إليه... حقيقة كنت أتسلى بالحكايات التي يحكيها، كان يُشبع فضولي، لكن في الوقت نفسه كنت أحترق وأذوب في دوامة أجهلها تمامًا... كنا نتكلم عن كل شيء إلا عن حالتي...

في ثاني زيارة كان مستغرقًا يحكي قصة أحدهم بالتفاصيل الدقيقة والتي ما زلت أذكرها جيدًا... هنا قلبي بدأ يخفق بشدة وبدأ الخوف المالح البارد يسري في عروقي، وشعرت بأن قلبي يوشك على الخروج من حلقي وأن خفقاته تهز جسمي وتجعلني خائرة القوى، يصاحب كل ذلك دوار شديد مزعج... ارتبك وأعطاني كأس ماء... خرجت من عنده وأنا لا أود الرجوع أخرى... فقدت ثقتي به... كان الطبيب أملي الأخير، والعيادة مكانًا مثاليًا تشبّثت به لأقضي على هلعي الذي أفقدني ثقتي بنفسي. غرقت في شعور عميق بالضيق والخذلان، وكأني طفل تُرك وحده في صحراء قاحلة يصرع الضياع ويلحق السراب.

في نفس المركز، وُفقت بمقابلة أخصائية تتحدث في موضوع الهلع وكيفية التصرف حياله عن طريق «العلاج السلوكي المعرفي» أو (CBT). لا تقاومي.. تقبلي.. واعلمي أن الهلع هو خوف في غير محله، ولا يسبب الجنون، أو الموت...

الهلع يتلاشى بعدم اكترائك.. الهلع يتصاغر جدًّا عند تقبلك لحقيقته، حتى إنه يختفي.. نعم... ي خ ت ف ي

استأنسي أسدك! روضيه، تعرّفي عليه، واغمريه باستسلامك وتقبُّلك له مهما كان مريعًا. لا تقطعي نشاطاتك وتغيّري حياتك من أجله. في اللحظة التي تتوقفين فيها عن الهرب أو المقاومة، وتوقنين أنه ليس بقائك، يتحول إلى قط صغير أليف يأتمر بأمرك، ويفقد كل خواصه الوحشية ويكون أليفك الذي يطل عليك ثواني أو دقائق ويرحل. تذكري.. سيختبرك في البداية ويختبر صدق استسلامك وعدم اكترائك بوجوده، سيسمعك ترددتين «أنت أسد

مزعج أعرفك زين لكن عاااادي بصبر عليك» ويوقن عندها أنه لن يستطيع اللعب معك مجددًا لعبة الخوف، ويشتعل في عقلك قنديل المعرفة الخالد ويرحل الأسد للأبد...

نظرتُ باستهجان، ويأس كبير... أسد؟ ويتحول لقط...؟

نعم صدقيني بل يختفي... أقولها لك ولمئات المجريين والناجحين غيرك، عقلك اعتاد الهلع كأسلوب للتعبير... هكذا وحتى دون أسباب يزورك.. وبناء عادات عقلية جديدة يستغرق وقتًا... سيكون صعبًا ربما.. ولكن ممكن جدًا.. تذكرني أنك ستفرحين لنجاح الخطة هذه... ثقي أن غيرك استعمل هذه المفاهيم ونجحت معه... ثم ساعدي نفسك على إحداث هذا التغيير بضخ الأكسجين في جسدك ودماعك بالرياضة، انتشلي نفسك بالرياضة وإن كنت لا تريدين! قومي ولا تستسلمي! ولو أن تمشي نصف ساعة يوميًا!

او كي.. أنا أمشي بالبيت... المقصد هو المشي الجاد، والذي تتغير معه سرعة تنفسك!

كان صعبًا عليّ تصديق ذلك كله وتنفيذه... بدت التعليمات صغيرة تافهة، بل هزلية، عند خطوة الهلع المريع الذي لا أدري متى سيأتي لزيارتي أخرى. لكن لم يكن لي خيار سوى التنفيذ أو البقاء في دوامة الخوف الذي يُغذي الخوف ليزداد الخوف في حلقة مفرغة. اصطدمت بقاع الألم، وخِلت أنني سأمكث عمري هناك. حاولت تطبيق التعليمات... مع كل هلع أرحب به أطأطئ رأسي له بكل تواضع ليمر.. أخبره بأنني أعرفه جيدًا، مهما تنكر بالموت، ومهما غطى ناظريّ وعقلي بأسوأ فكرة سلبية في الكون. أبتسم له، وأحبيه كما أحبي الأصدقاء، أركز في تنفسي الاسترخائي، أغسل وجهي بماء بارد. أشتت تفكيري بالتركيز بما أرى وأسمع، أدعه يعصف في دقائقه الغريبة إلى أن تنتهي، أشكره على الزيارة، وأبتسم لذهابه، نجحت مرة ثم مرات. كنت أفعل ذلك، إلى أن اعتاد عقلي على ردة فعلي الجديدة الواعية المستسلمة الهادئة، واختفى «الأسد» من وجودي.

بعد سنوات من هذه التجربة، أستطيع ربط نجاحي فيها «بالاستسلام»، في وقت كنت أتحكم فيه بكل شيء ولا أعرف سوى أن لكل فعل أفعله ردة فعل وأنا من يتحكم بذلك كليًا. لكن معرفتي بأن ثمة أشياء علاجها المرور والاستسلام والرضا، كان جسر عبوري الأهم. كنت أقاوم فكرة منتشرة في ذلك الوقت تعزو ما أمر به للضعف الديني. رغم التزامي الشديد في تلك الفترة بقراءة القرآن والنوافل والأذكار، صرت أسأل نفسي: هل الله يعاقبني؟

هل قصرت؟ هل عليّ أن أصلي أكثر؟ كان يُهَشِّمُنِي ذلك الإحساس ويغرقني بالذنب، إليّ أن فهمت أنه لا يمكن ربط ذلك الخوف والكثير من الاضطرابات الوجدانية أو العقلية بالضعف الديني بعلاقة سببية بشكل مطلق، فذلك الاعتقاد خطر جدًّا، إذ إنه حتى فكرة قراءة القرآن كعملية روحية دينية ينوي بها الشخص تخفيف الخوف، قد لا تخففه ربما، فلا يزول الخوف، ويدخل في حلقة مفرغة من الخوف المتنامي. والأدهى من ذلك أن يُطعَّم هذا الفرع بالخذلان الديني، والشعور غير المسوغ بالذنب، فهو قرأ القرآن ولم يزل الخوف!

إن الهلع كحالة قلق قصوى لها تداعياتها الكيميائية والجسمانية، فهل يصح أن نقول للجائع اقرأ القرآن لتشبع؟ ببساطة، يأخذ ما يبرئ جسده من العلة، فيرتقي لعلاج روحه. أما الدعاء والتضرع لله والامتلاء بحبه، كصلة وصلاة وتطهير روحي فهو خير كثير، ولا يلزم استجابة الدعاء في الوقت نفسه، ولنا في أيوب عبرة لما ابتلي في جسده وماله، من بعد الخير والسعة، دعا ربه: «أني مسني الضر» فاستجاب له الله وأرشده لدوائه «اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب» وشفى، ولكن بعد ثمانية عشر عامًا!

وبتأمل المفارقة بين الأمراض الجسمانية الظاهرة وأمراض واضطرابات العقل والنفس أن أصحاب الثانية كثيرًا ما يعانون وحدهم وبصمت. بعكس المصابين بأدواء الجسد الظاهرة، عليهم معلومة وزيارتهم للطبيب مبررة بل ضرورية، تقاريرهم قابلة للإذاعة والنشر، فهنا كسر في الساق، وهنا التواء، وهنا اختناق في شريان القلب. هم يستطيعون وصف الداء بدقة، وبلا حرج، ليكللوا بالدعوات، ويُسَدُّ أزرهم بالتحفيز والسلوان. قد يحاطون بجمهور داعم، وربما هتافات تخبرهم بأنهم أبطال، عظماء وملهمون، ويحصلون أحيانًا على لقب المحاربين. يزودهم الطبيب أحيانًا بجدول التداوي ونسبة الشفاء و«روشتة» الدواء، ليستمرؤا في روتين التشافي الواضح. لكن عليل النفس ففي مكن جرحه شفاؤه، ونعيمة مخبوء في شقائه، وفي عقله النجاة والداء. كما أن جريح العقل والنفس، كسير الذات، حزين القلب، فقير هرمونات السعادة ومسبباتها، قد يهرب منه الناس، ولا يطيقون انهزامه، وانكساره، وسوداويته، يتركونه ويتركهم. علاقاته الاجتماعية، هشة مُشوشة مليئة بالفراغ والفراق، ليغرق أكثر وأكثر في بحر علته. لا أحد يصفق له، أو يشجعه، أو يعرف كنه مصابه، ربما حتى هو! يسير في الحياة رماديًا ميتًا مهدورًا. ولا يدري في كثير من الأحيان أن علته ليست سوى كسر يقبل الجبر. وإن أدرك ذلك فقد يوصم سعيه لعلاج نفسه وطلب راحتها بأنه «عيب» يقدر في «سمعته». وفي ذلك خسارتان، خسارة راحتته، وخسارة أثره السلبي على من حوله لو استمر نزفه بلا بلسم. أظن أن من كفايات العلم الأساسية

للإنسان، معرفة شؤون نفسه وتعلم لغة ذاته والتي تضرب جذورها بعمق
جينات أجداده، وشكل ولون طفولته، وبيئته. أن يتعلم «نفسه» بنفسه، أو
يطلب لها العون، ليكون أقوى وليكون قادرًا على أداء رسالته في الأرض
بأيسر طريق، [وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ].

(حلم الدكتوراه)

بعد أن تخرجت من البكالوريوس في تخصص الحاسب، من جامعة الملك سعود، المقدم الوحيد والحصري لهذا التخصص في الرياض آن ذاك، بثُّ أبحاث عن أعرق الجامعات التي تُشبع نهمي وتحتضن إقبالي الشديد على علم الحاسب. رغم أن الاتصال بالإنترنت وقتها كان متواضعًا، إلا أنني تمكنت من الحصول على قائمة أعلى مائة جامعة في العالم في تخصص علم الحاسب. طبعتها، ودرستها جيدًا وودت لو أدرس الماجستير في (MIT) أو ستانفورد. حلمت بذلك وصرت أحمل قائمة الجامعات في حقيبتي لتراافقي في كل مكان. لم يمض وقت طويل حتى صدرت قائمة القبول لبرنامج الماجستير في جامعة الملك سعود، والتي قدمت عليها فور تخرجي. لم تبدُ الخيارات الأخرى سانحة أو قريبة المنال أبدًا، لم أكن أعمل بشكل رسمي في الجامعة، ولم تبدأ بعثات الملك عبدالله حينها. إضافة إلى أن فكرة ذهابي للدراسة في الخارج كانت «تابو»، خصوصًا أن البديل الوطني موجود. درست علم الحاسب في جامعة الملك سعود وأنا أحرس في داخلي حلم (MIT).

بعد التخرج من الماجستير... تراقصت أمامي الأحلام مرة أخرى وبشكل جاد ومُليح. أذكر أنني في الكلية صادفت دكتورة لبنى، وأعلم أنها درست الدكتوراه في أمريكا، سألتها ما رأيك في جامعة (MIT)؟ كنت أودُّ سماع أي شيء، ولو جملة واحدة، تحفزني للدراسة في الخارج عمومًا، وفي (MIT) خصوصًا... قالت لي كلمة لم ولن أنساها: «ياللي بيتخرج من (MIT) بيتأتلوا عليه!».

لمعت عيناى، وابتسمت بسعادة غامرة لسماح ذلك، وكأنها أسرّجت قنديلاً من إصرار وأمل في قلبي وعقلي لا يطفئه ظرف أو صعوبة.

كثرت مداولات النقاش مع والدي، والتي تبوء بنتيجة واحدة هي الرفض، لم أستسلم وأصبحت أناقش بكل حجة ممكنة. والدي كان أريبًا كما يقول من يعرفه، وهو من زرع في حب العلم والتعلم. وهو نفسه من أستمع إلى مناقشته في تخصص التربية من إنديانا وأنا في المرحلة الابتدائية، لا أذكر منها سوى شيء واحد، نبرة صوت والدي الهادئة وهو يناقش المشرف، وكلامه المتصل والمنساب بسلاسة وكأنه نهر جار عذب لا يقف أمامه شيء. يحدثني دائمًا عن مواقفه الدراسية الفائقة بكل فخر. ويزودني برسائل الدكتوراه لكل من أشرف على ابتعاثهم في تخصص الحاسب للدكتوراه. كنت أعتبرها قوانين ونماذج أكاديمية ثمينة، أذكرها جيدًا. كنت مغمورة بحبه للعلم وللأكاديميا، متأثرة بطبيعة عمله التي يتفانى فيها كمستشار تعليمي

لشؤون الابتعاث. كل ذلك، يتبخر، ويحل مكانه الرفض قطعًا عندما أريد أنا ابنته الأثيرة أن أجرب الدراسة في الخارج. حقيقة في تلك الفترة لم أكن أعلم أن واحدة خرجت للدراسة إلا في سياق دراسة زوجها أو في كنف أسرتها. لكني لم أياس وكنت أقوّض الفكرة النمطية في عقل والذي بتكرار الطرق من كل الاتجاهات، خصوصًا أنني أملك الآن حجتين قويتين، أن العمل في الجامعة يتطلب مني إكمال الدراسة، وأنه لا يوجد حاليًا في الرياض برنامج للدكتوراه في علوم الحاسب.

الوقت قبيل المغرب، في أحد الشتاءات، أثناء تناول القهوة والتمر «القدوع» واجتماع والدي وإخوتي لذلك، ولا أزال أذكر ثوب أبي الصوفي الأسود وشماغه الأحمر، والذي أضفى طابع الرسمية والجدية للجلسة. غمزتني أمي، أن انطلقني وقولي ما لديك، هزرت رأسي ومططت شفتي بملل ويأس صغير لإدراكي بتعلمه ما سأقول، فلم تكن تلك المرة الأولى ولا العاشرة التي أتحدث فيها لوأدي عن طموحي في دراسة الدكتوراه في الخارج. غمزتني بجدية أكبر وكأنها تقول كلنا جلوس وسنكون عونًا لك. لم أفكر كثيرًا، فخياري الوحيد هو المحاولة والمحاولة أخرى.

بابا، ودي أكمل دراستي برا، أرجو أنك توافق لي سيكون لك ذلك، ولكن بعد الارتباط إن شاء الله وهل أنتظر فارس الأحلام حتى أحقق أحلامي الخاصة؟ ماذا لو لم يتقدم الكفو؟ هل أضطر لارتباط من أجل مصلحة؟ هذا ما لدي ولا يمكن أن تسافري وحدك أبدًا قطعت أمي هذا الحوار بمداخلة غير متوقعة وقالت: ليست وحدها بل سيكون خالها معها

دهشت من هذه المفاجأة، اتسعت عيناى وشعرت بأن مشكلتي انتهت الآن، والله ماما؟ سكت والدي وعمّ الصمت، ولم يكن ذلك علامة الرضا بل كان علامة إعلان جولة جديدة بسيناريو جديد.

فخلافًا لأفكار المجتمع السائدة والعار والكلام الذي سيحلّق على رأس والدي وأسرتي بأكملها إن خرجت وحدي، أظن أبي يعلم أنني أنعم في فقاعته الكريمة بحياة مدللة، ويخشى أن يصيبني مكروه إن خرجت للعالم وتركت حضنه الآمن. استدرك الأمر وقطع الصمت وقال: «يكون خير». هكذا يرفض أبي المواضيع بدبلوماسية شديدة، ولا أخرج منه بقرار.

عندها لم تكن لي دعوة أبتهل بها إلى الله إلا أن «يوافق والدي». ركبت المياه، وصرت أسبح بين الإحباط والأمل، بعد أشهر جاءني والدي مغتبطًا وحائرًا في الوقت نفسه، فقد قابل بالصدفة مشرفي لرسالة الماجستير وسأله عن

حالي، وأخبره والدي بأنني أتوق لإكمال الدراسة، وأنني «خرمت» رأسه بذلك الشأن ليل نهار، لا حديث لي سوى ذلك.

فهم المشرف مخاوف والدي وتحفظاته، وطمأنه بأن زوجته تدرس في بريطانيا والأمر يسير، فهي تسكن في بيت مع أولادها قريب من المدرسة والجامعة وتتنقل مشياً وبحجابها بلا أدنى مشكلة. كانت كلمات المشرف مهمة جداً في طمأنة والدي من كافة النواحي الاجتماعية والوالدية والأكاديمية. قطع مشرفي شوطاً لن أقطعه مع أبي وأنا أطرق وحدي بمطرقتي الجاهلة الصغيرة جيلاً كبيراً تضرب جذوره عميقاً في ذهنه. حديث مشرفي وكلماته فرصة وهدية من الله فتح بها قلب وعقل أبي، حديث من رجل نجدي آخر يفهم قلقه ويستوعب مخاوفه الاجتماعية والأبوية.

(محطةٌ أولى لطريق لا ينتهي)

بعد عملي معيدةً متعاونة مدة فصل دراسي في جامعة الملك سعود، بدأت رحلتي للماجستير في نفس الجامعة. في ذات الوقت عُرض عليّ الانضمام لكلية الحاسب المزمع إنشاؤها حاليًا في جامعة الإمام. رفضت الفكرة قطعًا، فأنا أريد أن أعمل في المكان الذي تخرجت فيه، فكنت أرى نفسي أكبر وأتدرج من كوني طالبة إلى عضو هيئة تدريس، فمستقبلي نسجته وتصورته مع كل مادة أدرسها وكل ضغط أمر به وكل فصل أتجاوزه بسلام.

بعد مداولات ونقاشات ونصائح، اتضح أن الإستقرار في وظيفة مضمونة أفضل من مجرد انتظار وظيفة قد لا تنهياً. أجريت لي مقابلة، ثم انضمت للكلية التي كانت عبارة عن غرفة واحدة أجلس فيها مع الوكيله والسكرتيرة! كنت أقوم بالتدريس في يومين، وأحضر محاضراتي للماجستير في الأيام الأخرى. خروجي من جامعة الملك سعود، وعملي في جامعة أخرى كان أشبه بالانشقاق والانفصال، ومازلت أذكر أنني عبّرت عن ذلك بقصيدة ألقيتها على مسرح الجامعة يومًا للتعبير عن ذلك، اليوم أتأمل تلك المساحة التي منحتها لي الجامعة، وأغرق في الامتنان والتقدير لقياداتها أن منحونا الصوت والمساحة الكافية لإحداث الضجيج والتحرك والاختيار.

هل بالجفاء ..

نجزي

من بالود صافانا؟

زهور عمري ..

في أيامها ..

تفوح تسعدني

وانتشی أمني ..

في روضها.. وازدانا

قد سرى

حب كبير

في دمي لها

ولها

في كل ناحية

في كل زاوية

لغة تخاطبني

تذكرني بالذي كانا

هذا الجماد يا صاح

فكيف بمن حوث

من أناس

قل لي بربك إن كنت إنسانا!!

بالوفاء..

بالود

ألقي ألف تحية

وتحية من قبي

يزفها تحنانا

سأذكركم

وأذكركم

وأذكركم

فلن أطيق لودكم نسيانًا!!

1423هـ

ما زلت أذكر حوارِي مع إحدى الزميلات، وأنا في المستوى السادس، عندما سألتها.

ايش طموحك؟ عادي بس أبي أخرج، وأنت؟ أنا ودي أصير في هذا المكتب، مكتب د. منى بيوم من الأيام!

د. منى كانت تدرسنا مادة الشبكات، وفي ذات الوقت هي وكيلة الكلية! كنت أراها في قمة الهرم الأكاديمي، أكثرنا علمًا وأرفعنا مؤهلات في الكلية كلها، ماذا أريد أكثر؟ الدكتوراه ومكان د. منى، وفي الكلية التي أحب!

عندما أتذكر ذلك الآن أضحك كثيرًا، رسمت صورة دقيقة لما أريد أن أكون، والطريق الذي سأسلكه، والمؤهلات التي سأحصل عليها. لا شك بأن وجود الشغف الكبير والهدف الحارق، هو قوة كبيرة دفعتني للصمود والعطاء والاستمرار. ولكن بعد أكثر من عشر سنوات من تقليدي وكالات مختلفة، وجلوسي على كراسي عدة، وحصولي على دكتوراه في الشبكات اللاسلكية، وخوضي عشرات التجارب في أكثر من دولة في العالم. بعد ذلك كله، أرى الحياة أوسع وأكبر من مجرد محطة أصل إليها، الحياة هي رحلة تعلم وعطاء مستمرة لا نهائية، رحلة طويلة بعدد سنواتها، قصيرة بسرعتها الشديدة، شاقة، ممتعة، أصعد فيها وأنزل. والوصول هو الاستيقاظ من حلم تلك الرحلة، هو النَّقْس الأخير الذي أخذه في الدنيا. وهو انتهاء العمل، وبدء التنعم بجنسه، وبالأفكار والنوايا التي كنت أحملها طوال رحلتي، حلمي، أو سفري في الدنيا.

(دكتوراه ولكن..)

كان موضوع رسالة الماجستير عن الشبكات المترابطة متناهية الصغر. ونويت إكمال نفس الموضوع في الدكتوراه. ولكن لست أدري كيف أبدأ التقديم، ولا أين أدرس، فما زلت أرنو إلى جامعة (MIT). رغم أن الظروف المحيطة تشي بغير ذلك، فوالدي اطمأن إلى بريطانيا لقربها ولوجود معارف له هناك. تشبثت بهذه الفرصة ولم أفرط بها.

باستشارة مشرفي للماجستير اتضحت طريقة التقديم، ونصحتني أيضًا بإجراء اختبار (IELTS) في الرياض لتوفير عام كامل لدراسة اللغة. اختبرت، بعد جلسة تحضيرية مدتها خمس ساعات في المجلس البريطاني بالرياض، وبحمد الله حصلت على الدرجة المطلوبة والتي خولتني للحصول على قبول غير مشروط للدكتوراه. حدث ذلك سريعًا ولا مجال للتراجع. كنت أطيّر في فرحي وأملي عاليًا... ووالدي يرعاني في كل خطوة، فهو مستشاري الأمين.

كان التقديم بالمراسلة الورقية وبالبريد الإلكتروني. وصلني ظرف أصفر كبير يحتوي على القبول غير المشروط، ومعلومات عن الجامعة والسكن، كان أثنى ما يمكن أن يصلني من العالم، كنت أتحمس كل ورقة وأشم كل خطاب فيه وأتأمله جيدًا. صور غرف سكن الطلاب البسيطة والصغيرة حفرت في وجداني وتخيلت أنني سأعيش بها ووطنت نفسي على ذلك. في نهار هادئ رتيب، سمعت أُمي تحدث شخصًا:

ما شاء الله مبروك.. ايوا... ما شاء الله.. ايوا.. الله يبارك لكم ويجمع بينكم بخير... ماما مين هذا؟ خالك، الله يوفقه، يمكن ما يقدر يرافقك للبعثة...

أصابتني كلماتها في مقتل... وتصورت حلمي يتحطم أمامي... بالكاد أمسكت بالحلم، وها هو يتوه مني مرة أخرى. أكملت إجراءات التسجيل بإحباط وحيرة... ووالدي يساعدي رغم صراعه ورغبته بالمحافظة عليّ تحت جناحه وفي كنفه. في تلك الفترة تقدم لي شاب وسيم وجيه، قابله والدي وقبيله، ثم تقابلنا للنظرة الشرعية، وبعدها بدأنا التعرف هاتفيًا. اكتشفنا الكثير عن بعضنا، وفي إحدى المكالمات صارحني قائلًا: «وش لك بالدراسة، لا وفي جلاسكو، ذيرة مظلمة وكثيية.. نجلس هنا أفضل وأريح». وهو يعلم أنه لا يوجد برنامج لإكمال الدكتوراه في تخصصي هنا. حاولت إقناعه، لكن بدا أنه مصرّ. فكانت تلك دعوة لطيفة منه للتخلي عن حلمي. كان حلمي وقتها أحب إليّ من أي شيء آخر، واكتشفت حينها ما جعلني أجزم أن مشروع الارتباط

ليس ما أود فعله حاليًا. صارحت والدي وفوجئ بالأمر، لكنه قدّر رغبتني الكبيرة في أن أكمل دراستي، واستهجن تثبيط الشاب لي في موضوع إكمال الدراسة، قيسّر لي إنهاء الموضوع بشكل مناسب.

صرت أنا وحلمي والأمل نسبح في قدر الله. كنت أبتهل بأن تحصل معجزة لأتمكن من إكمال دراستي. ولم أياس من توضيح الصورة مرارًا لوالدي. وقت بدء الدراسة قد أزعج، وأنا غارقة في ابتهالاتي حينًا وفي يأس حينًا آخر، أسبح بينهما. وفي عصر أحد الأيام كنا نجلس في المجلس، والدي في منتصف المجلس على جلسة أرضية أسفل الكراسي، هو يحب الاتكاء هكذا قريبًا من الأرض، تخترق أشعة الغروب الذهبية نوافذ المجلس الكبيرة وتهبط بسلام على ظهر أبي ليكون ظلّه أمامه بشكل هادئ. كنت في قمة الإحباط وسألت والدي.. سؤالًا أخيرًا..

يعني خلاص ما راح أكمل دراستي؟ ليش؟ تعرف بابا... ما فيه أحد ممكن يروح معي... أنا أعرف أهمية الموضوع هذا لك... وأنا قدمت على التقاعد... كان كلامه صادمًا... صدق بابا؟ ايه نعم وبكون مرافقك في البعثة

لم تحملني الأرض من شدة الفرح، قبّلته وشكرته، هذا أجمل ما يمكن أن يحصل بالفعل، فوالدي خبير وثقة، لكن هناك مشكلة صغيرة، فكيف يترك الأسرة ولفترات طويلة؟ كان قرار مرافقته لي قرارًا ثمينًا تداولته الأسرة كاملة ودفع ثمنه الجميع.

أكملت الإجراءات، وكنت أرقب منتديات الطلبة وأراسلهم لمعرفة ما يمكنني الاستعداد به لتجهيز نفسي. فلم يسبق لي العيش خارج غرفتي بالرياض فضلًا عن العيش في قارة جديدة ولمدة سنوات. كان الجميع يقول «اسكتلندا باردة مرة»، كنت أتبع كل النصائح التي تمرر إليّ والتي بدا بعضها طريفًا الآن، خصوصًا بعد الخبرة والمعاناة، والتي منها إحضار «بطانية روز» لأنها «تدفي مرة»، لم أكن أعرفها قبل ذلك، وكانت أثقل شيء أحمله معي، وندمت على إحضارها فالعناية بها وتنظيفها صعب، و«الدوقيت» الصيفي والشتوي يقوم بالمهمة بشكل لطيف وخفيف. لم أكن أعرف حينها أن أؤمن ما يمكنني التزود فيه في تلك الرحلة، هو جرعات من الاطمئنان، وحبوب مضادة للوحدة الشديدة، ومرهم لعلاج الصدمات والرضوض المتكررة.

لما رأيت صناديقي جاهزة، عشرة صناديق فيها كل ما أريد. وها هي تسبقني بالشحن الجوي! بقيت معي قليلًا، وشعرت بحيرة عميقة وسألت نفسي: «هل سأندم؟»

تمنيت حينها صوتًا واحدًا يقول «أنتِ صح.. كملي». لكن بدلا من ذلك غرقت في سيل أسئلتني:

هل سأترك بيتي ووطني وأهلي في السادسة والعشرين من عمري، للمجهول؟
هل ستضيع فرصة ارتباطي للأبد إن خرجت الآن لمدة سنوات، الله أعلم كم هي؟

هل سأكون السهم الذي مرق من سياق المجتمع وشروطه... هل حقًا يبدو الأمر كذلك؟

هل عليّ أن أختار أحد الأمرين؟ إما الخروج للغربة لإكمال دراستي أو التنعم في الوطن والاتساق في نسيجه؟

كانت تلك الأسئلة تعصف بي ولا أدري كيف أجيبها... إلى أن استشرت من أثق برأيها: «فرصة وجتك لا تضيعينها! الارتباط ملحوق عليه إن شاء الله».

استشرت بعدها الكثير... وكان رأيهم واحدًا، ومن استشرتهنّ من أستاذاتي، نصحنني بأن لا أترك فرصة إكمال الدراسة واستغلال الوقت لتحقيق ذلك. زادني ذلك الرأي ارتياحًا، وهذا ما كان. تعلمت بعد هذا الدرس أن بعض الفرض العظيمة لا يمكن التنبؤ بنتيجتها بشكل كامل، تأتيك متراقصة في بحار الشك والغموض، فإما أن تتركها، وإما أن تستخير، ثم تترك قاربك الصغير، وتجدف جادًا إلى «الأخير»، تدفعك نيتك الحسنة، وإصرارك الكبير، للوصول إلى شاطئ الفوز الأثير.

(لم يبق غير الدموع)

بجانِبِ والدي في الطائرة، أتجه من الرياض إلى بريطانيا لدراسة الدكتوراه. كنت أصحو وأغفو بجانبه، أتقلب بين الأمل، والقلق... قلق خفي وأسئلة كثيرة، هل أستطيع؟ كيف سأقضي سنوات الغربة؟ كيف هم الناس؟ هل ستكون الدراسة سهلة عليّ؟ هل سأصمد في التحديات؟ كيف سيتقبلني مجتمع الجامعة بحجابي؟ هل سأندم على إصراري الشديد للخروج وترك كل شيء ورائي؟ وفي نفس الوقت كنت أحمل معي آملاً وثقة ودعاء يغالب القلق، يأتي عليه كالموج فيمحوه حيناً وحيناً يظهر القلق بوجهه الكالح الجاف.

كان سفري بعد عام من أحداث لندن الإرهابية، وبعد شهر فقط من اكتشاف مذكرة من القاعدة تكشف خطط تفجير طائرات باستخدام السوائل المهربة إلى داخلها. هبطنا المطار، وتوجهنا لإكمال الرحلة إلى سكوتلاندا، وكان التفتيش غريباً، فقد فرض للتو قانون منع حمل السوائل للطائرة، ولم يكن مقيّناً بكمية ١٠٠ مل أو معلناً بشكل واضح مثل ما هو عليه الوضع الآن.

مررت بنقطة التفتيش واستدعانا مفتش أسمر بدين، يرتدي عمامة ووجهه دائري كبير تحقّه لحية سوداء عظيمة وتبدو عليه علامات الشدة والحدّة، وتطقر من عينيه الحمرابين شرارات الغضب: ههذه حقيبتك؟ نعم، ثم أخذ يفرغ جل ما فيها ويتخلص من محتوياتها في حاوية المهملات الكبيرة المعدة خصيصاً لذلك.

رأيت مستحضراتي والتي جمعتها بكل فرح الحياة وأحضرتها جديدة، وهي تُقذف أمامي، أقلام الشفاة القرمزية الجديدة من ماك، تركتها بقرطاسها لتليق بمرحلتني الجديدة، وحمرة الخدين المشمشية في العلبة المربعة الصغيرة. العلبة العجيبة، فهي متكاملة بمرآة وفرشة ومسحوق! كلها في مكعب واحد صغير. عطر صغير جديد أيضاً لا يزال في علبته. فطر قلبي منظر أشياءي «المقرطسة» تُرمى في حاوية المهملات، كنت أنظر إليها بحسرة وهي تختفي في بطن الحاوية، لكن لم أتمالك نفسي عندما رأيته يهّم برمي الدواء، وقلت في نفسي، قد تكون مستحضرات التجميل هذه مؤهلة لصنع أسلحة الدمار الشامل، إضافة إلى أنها غير مهمة مقارنة بالدواء. أما حبات الدواء هذه فيستحيل أن تستعمل في صناعة شيء خطر. قلت: هذا مهم بالنسبة لي! رفع صوته عاليًا بأنه لن يسمح!

انسكبتُ أشياءي في القمامة، وانسكبتُ داخل نفسي بانكسار وألم. لم يسبق لي في حياتي أن أعامل بمثل ذلك، كيف يجرؤ على لمس وإتلاف ممتلكاتي الخاصة دون إذني؟ بل كيف يرمي مضادات القلق التي أخذتها بإشراف طبيب لأشهر عدّة لتعيني على تخفيف قلق المرحلة الجديدة، ونصحتني بالاستمرار عليها بداية الدكتوراه. رمي ذلك الدواء أصابني في مقتل. كيف سأحصل عليه هناك؟ كيف سأقضي وقتي دونه؟ هل سأنتكس بسرعة؟

كان شعوري ثقيلاً حارقاً، وكنت مرهقة بفعل الرحلة ولم أنم جيداً، تراكم ذلك لأنفجر باكية بلا تحكم، بكيت بحرقة وشهقاتي تملأ المكان وأبي بجانبني محتار في ردة فعلي، فهو قد سلّم كل ما طلبوا منه بيّسر، حتى مقصّ شعراته الصغير ذي المقابض البرتقالية الذي تستعمله أمي منذ بداية زواجهما لتهديب شاربه كل جمعة، والذي قد نسيه في حقيبة اليد! بكيت من قسوة المفتش، والذي خشيت على نفسي أن أقابل مثله فترة الدراسة. وبكيت على بكائي الذي أمارسه ولأول مرة في العلن وأمام الناس، كانت صفة قوية لم أنسّ طعم دموعها إلى الآن...

(في جلاسكو.. أعاتب المطر)

تَدُكُ العُرْبَةُ أَمْنَكَ، وتفتش عن أناك المتورمة، لتفتتتها، وتعري روحك لتطلقها بخفة.

وصلت إلى اسكوتلاندا بنعومة كل شيء: نعومة سني، وفكري وتجربتي وحتى ملابسي، كل شيء فاخر ناعم لامع جديد. بداية وصولي سكنت في نزل في شارع الجامعة، كانت الغرفة بفرش أحمر وسريرين ودولاب عتيق، ومساحة ضيقة بالكاد تكفي للسجود. كانت تلك بالنسبة لي ثاني صدمة بعد عنف المفتش في المطار، صدمة المساحات. كنا نتسحر ونفطر ونصلي بالتناوب في ذلك «الخن» الصغير. لم نَمُضْ وقتًا طويلًا حتى أخذنا شقة صغيرة في سكن الطلاب. الشقة في سرداب في بناية عتيقة تُرى من نوافذها عجالات السيارات وأقدام المشاة، وتسكنها العناكب بجدارة فلا تزول. بدأت بتعلم كل شيء مع والدي، الذي يجب أن يقضي مشاويره سيرًا على الأقدام، مهما كانت الظروف، حتى نعتاد الأماكن، وهي كما يقول فرصة للتحرر من السيارة في الجو البديع. علمني والدي بالتجربة والمثال كل شيء، حتى عبور الشارع!

في رمضان كانت بداية اشتداد الشتاء، تُمسك عند السادسة فجرًا ونفطر عند السادسة مساء، بترف كبير لا نشعر فيه بأي جوع أو عطش. كنت أعود قبيل المغرب فأجد والدي يُعد الإفطار بكل حب وسعادة، يمارس اختراع الحساءات الغربية، رغم إصراري عليه بأن نتقاسم الأيام، إلا أنه يقول: «أنا مستمتع جدًا بهذي الهواية! إذا ودك تشاركي، فدورك هو اللي بعد الطبخ، شاي وغسل الأطباق». نأكل بخفة ونشرب شاي الياسمين بعسل الزهور البرية. رائحة الياسمين زكية جدًا وكأنها هدية فاخرة، ودعوة للهناء، تلف الحواس وتداعبها بطيف لطيف، لنبتسم برضا في كل مرة نحتسيه.

يالرياض! أهكذا خبأت عني والدي، غلّفته بأعماله، وبمجالس رجاله، واجتماعاته، فلم أكن أعرفه؟ اليوم هو لي، من أول اليوم لآخره، علمت أنه يهوى المشي الطويل والطبيعة والاكتشاف، ومقابلة الآخرين والتعرف عليهم. هو طاهٍ ماهر، وحكواتي باهر! رقيق في ملاحظه ومجلسه، يحفظ الشعر والقصص، بشكل يدهشني ويُحرج ذاكرتي جدًا، فشكرًا جلاسكو أهديتني والدي!

لم يكن في الشقة تلفاز، فإذا انتهت حكاياتنا أنا ووالدي، اضطررت لاستغلال كامل المواد المخزنة في جهازي المحمول لتسليتنا في ليالي الشتاء الطويلة. وأحياناً كنت أستعير قرص ليزر «سيدي» من مكتبة الجامعة التي تعرض المنتقى من الأفلام للقصص والروايات الكلاسيكية أو الوثائقيات المهمة، أو أفلاماً أنتجها طلاب الجامعة. ما شاهدته تلك الفترة حُفر في ذاكرتي جيداً، ربما لأنني لم أكن أشاهد الكثير من الأفلام وقتها، فكان ذهني مستعداً، أو ربما لأن ذلك حصل قبل عاصفة الدكتوراه التي ثقت عقلي تقوياً أبدية رتق بعضها الزمن وبعضها لا يزال يتسرب منه الكثير من الذكريات.

كنت أحمل معي قصيدة، كتبها لي خالي، في كل مكان، تشعرني بالحب والوطن والأهل والأمان، وضعتها في جيب الحقيبة الجلدية القارحة وسرت للمحاضرات التمهيدية. وأنا أسير بين المباني كانت السماء تمطر هتئناً لطيفاً مستمرّاً. أشعر معه بأنني في حلم جميل، سحاب وخضرة ومطر وهواء رطب نقي يدل ويسعد رثتي المشبعة بغاز الفريون. الجميع يتقي المطر، يغطي رأسه ويضم شفتيه ويصرّ عينيه، إلا أنا فأستقبله بكامل الشوق والامتنان، أبتسم له وكأنني على موعد مع السعد. دخلت القاعة وانتبهت إلى أنني أسبح في ملابس مبللة ورأس غارق، اخترق المطر كل شيء! حتى حقيبتى ورسالة خالي الغالي، اختفت الحروف تماماً واستحالت القصيدة إلى جزر ملوثة من الجبر. تألمت لفقدان القصيدة، فهي الصلة المحسوسة الرمزية بكل من أحب، وعاتب المطر والحقيبة المترفة الساذجة وتركتها لحقيبة ظهر متواضعة ولكن ذكية، تؤدي الغرض وتقي كل ما فيها من المطر، وهكذا تخففت رويداً رويداً من بذخي الواسع ورفاهيتي الناعمة إلى الكفاف والتكشف في كل شيء.

كنت في مُدرّج القاعة الخشبي الكبير، وبجانبي فتاة أسكتلندية، بدأنا المحاضرة بالتعارف، تعرفت على اسمها وتخصصها «ماس» سألتها: ماس؟ وهي تكرر بنفس النطق «ماس». وكلما سألتها فسّرت «الماس» بـ«الماس».

عجباً! هل للفيزياء تخصص دقيق يدعى «الكتلة»!؟

بعد أن شَرَحْتُ التخصص أكثر اتضح أنها تقصد «ماث» أي الرياضيات. ولم تكن تلك آخر صدماتي مع اللهجة الأسكتلندية، فقد توالى الصدمات وأصبحت أفهم اللهجة جيداً، بل حتى الكلمات غير الإنجليزية «الجيليك» المنتشرة حينها، والتي يُنطق فيها حرف «الخاء» بكل وضوح. أما والدي فبرغم تخصصه واختصاصه في اللغة الإنجليزية فكان عصياً عليه بعض ما يقولون. في صباح أحد الأيام دق الباب ساعي البريد وفتح له والدي ودار الحوار التالي:

«وسيا نيم سو» «سارة»

تكرر السؤال نفسه والإجابة ذاتها ثلاث مرات، والذي يقول إن هذه شقة سارة، وساعي البريد يطلب اسم والذي، فهو حتمًا ليس «سارة». ولست أذكر كيف انتهت تلك الحلقة التكرارية، لكن استلمت الطرد أخيرًا.

ملأتنا المحاضرات التمهيدية استعدادًا وتأهبًا للمرحلة القادمة. دخلت برنامج الدكتوراه مباشرة دون مرحلة اللغة. وددت أنني فعلت ذلك ولو لشهر واحد في معهد اللغة التابع للجامعة كونه عالي الجودة ويتيح التعرف على ثقافة البلد والناس وأماكن الخدمات والعروض الخاصة بالطلاب، كل ذلك عرفته من زميلة أخذت اللغة في الجامعة. وهو أيضا يكسر العزلة التي تغمرك بها الغربة بعيدا عن كل مألوف، فحضورك الدروس يوميا ولقاء الزملاء يمنحك فرصة التواصل المكثف. كان حظي أن خرجت للدراسة قبل بدء بعثات الملك عبدالله التي ملأت بريطانيا وأمريكا بالطلبة المبتعثين لكل المراحل. فكنت إذا حضرت للنادي السعودي مع والدي، أكون في قسم النساء حيث ربات البيوت من زوجات المبتعثين لدرجة الدكتوراه على الأغلب من النساء الأكبر مني والمهتمات في «الطبخ» و«المكياج» و«التسوق»، فأغرق في الملل الشديد. وكلي يقين أن والدي الآن يخوض نقاشا مثيرا مع الطلبة المبتعثين هو أكثر إثارة وجدوى من جلبة الأطفال وصراخهم المستمر والأحاديث التي «لا ناقة لي فيها ولا جمل».

كانت تلك المرة الوحيدة التي حضرت فيها العيد في النادي. انقطعت إلى أن ابتكرت طريقة أحضر فيها وأتسلى، فقررت حضور حفل العيد ولكن بعمل شيء مختلف، سأقوم بتصوير كل الأطفال وأرسل صورهم إلي والديهم! كان ذلك مشروعًا لذيذاً مسلياً وأقمت من خلاله صلات جميلة مع الأطفال وذويهم.

في الكلية تعددت لقاءاتي مع المسؤولين والمشرفين عليّ فيها، وكانت لي جلسة مع أحدهم وهو من أصول عربية، كنت أستمع له بكامل جوارحي، فهو أكبر مني علمًا وقدرًا. قال لي بحزم في أول مرة لقينته: سارة سأخبرك بشيء: «لا تظني أنك ستنجحين بشراء شهادة، كما في الخليج، الأمر هنا مختلف، نحن هنا لا نبيع الشهادات». أذمت كلمته أذني وقلبي وعقلي، جرحتني بسوء الظن البالغ وحطمت بقايا الزهو والثقة التي أحملها. سألت نفسي هل يقول ذلك لأنني أبدو أصغر من الجميع؟ فشكلي «البتيت» قد يعطى أنطباعًا أنني في المرحلة الثانوية. هل شكلي مؤثر سلبيًا؟ لماذا ابتدرني بتلك العبارة وهو لا يعرفني؟ كيف يتهم شعبًا بأكمله؟ كنت من خيرة الطلبة في جامعتي، بل

أدرّس بتفان وتميز، ومحاضرة خبيرة، محبوبة من طالباتي وزميلاتي وأستاذاتي، الجميع هناك يعرف من أكون وما هو حجم عزمي وعلمي. أتيت هنا وتغير كل شيء وانقلبت المعادلة، فصرت نكرة صغيرة، في عالم كل من حولي فيه أخبر وأكبر، من الأساتذة والزملاء. وكانت تلك الكلمة قشة قصمت ظهر التغيير الكبير الذي أمر به، بل كانت ركلة قوية مؤلمة دفعتني لمستوى مختلف من التحدي والتعاطي بنديّة مع كل ما هو حولي.

(في الشارع ولا يراني أحد!)

مهما بلغ الأمر من السوء، فهو ليس سيئ إلى ذلك الحد

كل شيء حولي جديد، حتى أنا جديدة على نفسي! والجنيه الإسترليني حينها، يفوق السبعة ريالات سعودية، زاد من همّي هذا الغلاء، وأن عليّ -وللمرة الأولى- إدارة حياتي كاملة من أثاث وملبس ومأكل ومشرب وقواتير للكهرباء والتلفاز والماء والغاز والتنقل والقرطاسية. كان لكل شيء ثمن هناك، حتى التلفاز الملون كانت له ضريبة أحرص على دفعها حتى لا أقع في المحذور! من هول ذلك كله في البداية، حلمت بأنني قدمت على مائدة شهية وأنا جائعة، أحاول قراءة أسعار الأطباق فلا أستطيع، كانت عبارة عن أرقام طويلة عصية على القراءة، وأنا حائرة، أعد أموالني ولا يغطي ما معي تلك الأرقام العجيبة، كان شعورًا قميئًا مرًا سيئًا، قمت وأنا أحمد الله أنه حلم أو كابوس، لا يهم، المهم أنني في فسحة ونعمة وقادرة على الأكل والشرب وإدارة شؤوني.

تذكرت ترفي في الرياض، وأني لا أقوم بشيء سوى الاستذكار والتعلم، وممارسة هواياتي المختلفة، وسائر شأني تقوم عليه أسرتي ومن يخدمني. حتى مراجعة الطبيب لم أكن أباشر شؤونها بنفسني، بل كنت أرافق من يقوم بكل شيء، ويتبقى عليّ فقط إجابة أسئلة الطبيب. مشاويري ورحلاتي كان يرافقني فيها والدي معظم الوقت، حتى سائق العائلة، لم أتعامل معه إلا نادرًا. انفجرت فقاعة الترف، وبانت علامات التحدي الجديدة.

في اغترابي تبدلت كثير من الأفكار التي كنت غارقة فيها، فقد شذبتّها السنوات، وهذبتّها الغربية. ما زلت أذكر بداية صدور قرار حظر الأكياس البلاستيكية في مدينتي، عمارة للأرض وحفاظًا على الحياة.

بعد أن حاسبت سألتني الموظفة، هل تريدن كيسًا؟ استغربت سؤالها، وأجبت باستغراب: طبعًا! ودار في رأسي، «تبيني أشيل الأغراض بيدي؟ أو كيف؟». تفهمت استغرابي واستطردت بابتسامة: نبيع الأكياس ترشيديًا في استهلاكها وتشجيعًا لإحضار أكياسك الدائمة. «أها» واشتعل نور في رأسي وتعرفت على هذا القرار في ذلك الموقف. ومن الحضارة أن تهذب الناس بالنظام في بعض الشؤون.

تراكمت التجارب والمعارف، حتى إنثُ وانفتحتُ لاستيعاب وجهات النظر المختلفة، وأنه ثمة أسباب خفية تحرك الظروف، وتدفع البشر لسلوكات تجعلهم يرون ما يفعلونه حقًا معتبرًا محترمًا، مما يجعل ردة فعلي الأولى التروّي، فلست أعلم إلا النزر اليسير وغير الكافي لإصدار أي حكم، والتسامح فلست رب الناس.

في الرياض، كنت لا أخرج إلا بإذن مسبق وترتيب مُطوّل، وحراسة غير مغلنة، ورفقة مستمرة، ثم تستقبلني بعض الأعين المُهتمة أو «المُشفحة» والجائعة، وكأني كائن هابطٌ من القضاء. أسير بحجاب يغطي حتى عيني، ولكن مكشوفة بطريقة ما، وكأني نجمة مسرح «بايخ» وحولي جمهور لا يصفق، بل يتربص.. ينظر.. يترقّب. وربما كان أحدهم الذئب الذي خلقه وحذر منه الوعاظ والخطب والقصائد المنمطة (7). الذئب، رمز لشخصية مزدوجة، أفرزتها الضغوط لتُظهر نفاقًا يتماهى مع الفضيلة والتجويد، ولتبتن النزعات الإنسانية والاحتياجات العضوية والعاطفية والتي صارت وحشية تمتهن السرقة والمراوغة والغدر. ثم هأنذا اليوم هنا أترك كل ذلك وأخرج بِنِيَّة الخروج فقط، دون إجراءات وحرس ومنتطفلين، أسير في الشوارع وحدي، بل وحدي جدًّا، تصحبني الظلمة، وأصوات السيارات العابرة، ووجوه الغرباء الخالية من الملامح، وجوه لا تكثر لوجودي، لقد فقدت دور الشخص المهم جدًّا، فأنا غير مرئية هنا.

في شهر ديسمبر الداكن، وبعد انتهاء معمعة الاستقرار في المدينة والشقة والجامعة، كنت أسير من الجامعة إلى بيتي وحدي في رحلة تكررت وحدتي فيها لمجرد أن اخترت أن أخرج وأغترب لإكمال دراستي. الجو شديد البرودة، أتقيه بطبقات من الملابس ومعطف تعلوه سترة رأس في أطرافها فائق النعومة يحتضن وجهي ويحميه من قسوة الرياح الجافة أو المبللة بالمطر الذي يأتي بالطول وبالعرض و«في الوجه» بأعجوبة تكسر كل قوانين الجاذبية! اشتريته في أول أسبوع وصلت فيه إلى جلاسكو، كتقليد أثير يتبعه والدي، «جكيت البلد، يحميك من جو البلد». مهما أحضرت معك، فمعاطف البلد نفسه مختصة بشكل أفضل لحمايتك من جوها.

أسابق الزمن للوصول إلى بيتي قبل أن تغيب الشمس -حقيقةً- عند الخامسة، وإلا فهي غائبة خلف الغيوم دائمًا! تحفني أشجار عارية، وأرصفة يزخرها الجليد، وأسوار قصيرة تكللها قطرات المطر المتجمدة، والتي كادت تسقط، ثم قررت التوقف في الزمن، قطرة جامدة، كجمود الشتاء، ومواته وندرة المشاة فيه. هدوء وظلام أثار زوبعة من الأسئلة في رأسي.

لماذا أنا هنا؟

هل ما فعلته صحيح؟ أن أخرج عن كل أمني ودفء عائلتي وترفي من أجل أن أدرس؟

هل سيفوتني قطار الارتباط وأنا هنا أدرس وأدرس في عزلة شديدة ...

هل البداية من الصفر في هذه الرحلة يُعدُّ أمرًا جيّدًا؟

هل هذا الهدف يستحق كل هذا العناء والانقطاع الوطني، والأسري، والاجتماعي؟

«جلاسكو، ديرة مظلمة وكئيبة»

دقّت في رأسي كجرس هائل، كوسواس قاتم احتل مساحات عقلي، أعوذ بالله من الحزن والقلق.

كسرت أطواق أسئلتني صباحات جديدة تأتي كمعجزة تخبرني بأن لكل ليل صبحًا، ولكل شتاء ربيعًا، وأن لا شيء يدوم، لا الفرح ولا الهموم. وأن «المُرَّ يَمُرُّ»، ولا أحد يبقى في مرحلة اغتراب الدراسة للأبد!

أو هكذا حدثتني بهذا الكليشيه «آنستي التشيخوفية الطموح» في مزاج متفائل نادر، لأنها عادة لا وقت لديها سوى لتقريعي، ودفعي للمزيد من التعلم والعمل، تحثني دوما للترقي في السلم، دون هوادة. أه يا «إليف شافاق» نساؤك الأربع كنّ يقتتلن بداخلي ولم أكن أعرف ما أسميهن، وددت لو أني قرأت حليبك الأسود في تلك اللحظات، فحليبي احترق في عقلي الآن و«دخن».

كنت أصدّق آنستي الطموح، أحشر عبارتها المتفائلة في عقلي وأردها حينًا وأغرق في أطواقي حينًا آخر، أسلحتني في تلك الحرب مع الأفكار السلبية والمزاج المنخفض: المشي، والدراجة، والصديقات، ومكتبة «بوردرز»، ولوخ لومند!

«ما بقي بالعمر كثر اللي راح!»

تبّأ كيف تخترقني هذه الكلمة التي قالها لي أحد أقاربي لما حادثني، كانت مكالمته الوحيدة لي، أعذره فهو مستاء ربما كوني لم أتزوج، وخرجت في

سٔ كان فيه كل من حولي يُقبلن على الارتباط وليس الاختفاء التام. كان ينوي تشجيعي لأن أنتهي بسرعة وأعود، لكنها أتت عليّ كشبح ضخم يطارده أنستي الطموح! تحاربه بالمنطق وبخطابات الكفاح والتجاح، تم يسخر منها هكذا بهدوء وهو يرفع كتفيه «ايه.. بس ما تزوجت».



(PhD)

السنة الأولى في الدكتوراه هي سنة تعلم مكثف للكتابة الأكاديمية، وأدوات البحث العلمي، وفهم المجموعة والكلية والجامعة والمدينة. بدأت في بحثي بداية سريعة بفضل النقاش مع أعضاء المجموعة البحثية ممن سبقوني، نتحدث عن الأفكار الممكنة والجديرة، فكلنا يبحث في مجال البث اللاسلكي للشبكات المتنقلة. استفدت كثيرًا من طرقهم في البحث والمحاكاة، تعلمت الكثير منهم، كانوا منفتحين للعطاء ومستعدين للإفادة الكبيرة.

زرت مارك ملك المحاكاة ومحترف «ns-2» أو هكذا قالوا لي، في مكتبه المشترك العتيق، شاشاته المتعددة مصفوفة أمامه تحتل كامل مساحة مكتبه الصغير، كتبه وأوراقه الكثيرة متكدسة على المكتب وأسفله، أكوام هنا وهناك. أظن أن كثيرًا من تلك الأكوام هي تراكم لمن سبقوه من طلبة الدكتوراه. أرى على مكتبه فوضى عارمة لقرطاسية مشاغبة، وأكواب كثيرة أحدها به بقايا قهوة تصلبت، وكأنه لشخص مات فجأة دون إكمال كوبه الأخير. كيف يتصالح مارك مع كل ذلك، بل ويعمل؟ كانت لمكتبه رائحة مميزة تشي ببعض الرطوبة بفعل الندى المتراكم على النوافذ الباردة جدًا من الخارج والدافئة من الداخل. زرته وقت العصر، لم يُشعل الأنوار بعد، كان المكتب مظلمًا بعض الشيء ويعطي انطباعًا مهيبًا وغريبًا، خصوصًا مع الفرش الأزرق الداكن.

مارك اختباري بعد ستة أشهر وأنا بالكاد أنفذ بعض أوامر «لينكس» البسيطة، أخ متى سأتقن «ns-2»؟! لا عليك سأعلمك الأساسيات الآن، واسأليني في أي وقت.

«ns-2» هو منصة ذات مصدر مفتوح لمحاكاة الشبكات، وتُمكن الباحثين من إثبات الأفكار نظريًا، وبتكلفة قليلة قبل تنفيذها بشكل كامل على الشبكات في الواقع. يعتمد عليها المجتمع البحثي لإجراء تجارب الشبكات، ولتطوير بروتوكولاتها، ومعايير التراسل اللاسلكية مثل: «IEEE 802.11b/g». كانت المنصة جديدة ولم يكن هناك ثمة مراجع أو كتب، كل ما هنالك هو الموقع المتواضع مع قائمة بريرية لحل الأسئلة جُلها أسئلة بلا إجابات. تعلمت مع مارك الأبجديات، واستغرقت مع نفسي أتعلم الكثير لأنفذ الخوارزمية الأولى بنجاح. اقترب موعد اختبار السنة الأولى: «first year viva» فهو بعد شهر. وهو مفصل إكمال دراسة الدكتوراه، إن نجحت فيه، سُمح لي بإكمال السنوات القادمة. سلمت تقرير «الانتقال» وانتظرت تحديد الوقت. في يوم

الاختبار كنت أجلس في مقدمة الطاولة ويقابلني عن اليمين مشرفي، ويُقابله عن يساري بروفيسور جيكوب. كنت أعرض -بثقة- خطتي للسنوات القادمة وما أنوي بحثه. كان بروفيسور جيكوب يكتب كثيرًا. أثار ذلك قلقي، لكني بكل ثقة قلت أي أسئلة؟

بدأ يُمطرني بالملاحظات «الجوهرية» والأسئلة. انكملت، وغرقت في صدمة، «لماذا لم يقل لي مشرفي أيًا من ذلك؟ فكُلها ملاحظات جديدة وكبيرة». خشيت على نفسي ألا أكمل المشوار من كثرة تلك الملاحظات. كان شعورًا مرعبًا بشعًا، لم يخفقه سوى جملة واحدة قالها الممتحن: «لديك فرصة لتحسين كل ذلك».

بعد الاختبار سألت مشرفي: ظننت من كثرة تلك الملاحظات أنني لن أنجح! كيف لم نتعرض لأيٍّ منها سابقًا؟ بكل هدوء: في البحث العلمي، هناك وجهات نظر مختلفة، ولكل باحث وجهات نظره، لكننا لا نختلف على الأساسيات، نزن الأساسيات موجودة، وأنت قادرة على استيفاء العمل بالشكل المطلوب.

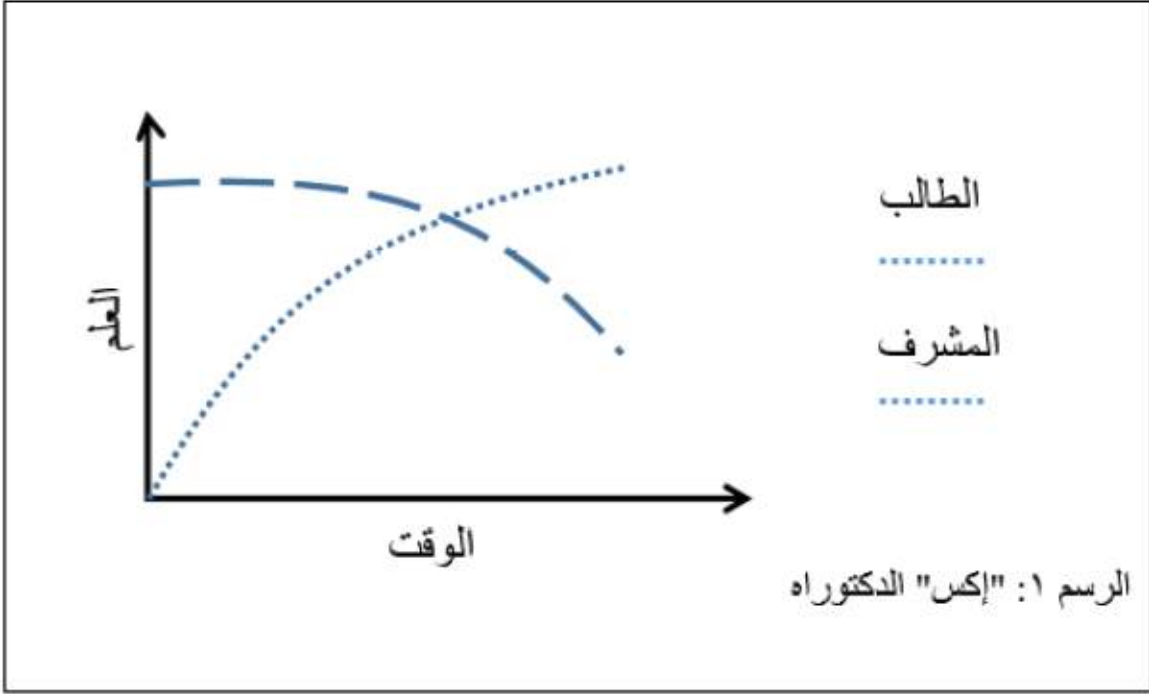
استوعبت بعدها، وبعد عشرات اللقاءات العلمية والمحاضرات والندوات صدق تلك المقولة، ليس ذلك فحسب، بل قد يغيب عن باحث أمر ويكشفه باحث آخر، وهذا روح البحث العلمي، ومن هنا تنبع فرص كثيرة للاكتشاف والتعلم، فليس ثمة عمل بحثي يولد من فراغ، كثير منه يولد من قصور أو نقص في ما هو موجود، ثم يُقدّم بفلسفة علمية، تبرز الفكرة، تنقد وتحلل ما حولها من أفكار لتنتج في النهاية ورقة علمية أو رسالة دكتوراه. وكلما أتقن الباحث تلك الفلسفة أكثر، كلما اقترب من إتمام رسالته، ليُمنح درجة الدكتوراه في الفلسفة في ذلك العلم، وهذا ما تعنيه كلمة «PhD»!

كما تعلمت أيضًا «إكس» الدكتوراه كما رسمها لي مشرفي (الرسم ١) وصرت أختبرها كل يوم وأكبر فيها وتمثلي بكل دقة.

في أول يوم للدكتوراه، علمي في مجال البحث أكبر بكثير من علمك. لا شك! لكن بالتعلم، والخبرة يزداد علمك وفهمك لتقنيات وحيثيات النقطة البحثية وتتخصصين فيها بشكل أكبر، وفي يوم المناقشة تكونين خبيرة فيها أكثر من أي شخص في العالم، فضلا عني أنا مشرفك، ستركين عُشي وتحلقين عاليا!

ما زلت اليوم أذكر أول ورقة علمية كتبتها، اعتنيت بها كثيرًا، سلمتها قبل انتهاء الموعد بساعات، كنت أترقب قرار قبولها أسابيع عدة بشغف. في ليلة هادئة وصلني قرار الرفض مع «تهزء» محترم «وغير محترم» من

المراجعين. كانت تلك من أول صفحة لي في عالم النشر. أن أتلقى نقدًا موضوعيًا أو غير موضوعي يمس خلاصة عملي وفكري توات الأوراق وأصبحت أكثر استعدادًا للرفض، أبحث عن النقد البناء، أهندس ورقة أدعى أن تُقبل في الوقت نفسه! إلى أن نشرت لاحقًا في مؤتمر رائد في المجال، حفزني ذلك جدًّا، ورفع ثقتي العلمية، ودفعني لأن أتعلم أشياء جديدة مع كل ورقة أنشرها!



(إلى أقصى الجنوب.. لمكافحة الاختراق)

من يعلمون للوهلة الأولى عن تخصصي ينقسمون إلى فريقين، فريق يريد أن «أخترق» أجهزة أعدائه، والآخر يريد أن «أصلح» جهازه. كان يسعني فعل كل ذلك في مرحلة البكالوريوس بحكم توفر الوقت. والآن في مرحلة الدكتوراه تخصصت في نقطة واحدة مجهرية في مجال في تخصص دقيق في علوم الحاسب. مصادري أحدث الأوراق العلمية التي تسبق عادة إصدار الكتب في ذلك العلم، أتعلم منها الأفكار وأخر ما توصل إليه هذا المجال، أخترقها جيداً وأفهمها، لا أخترق ولا أصلح أجهزة! بل إنني أستعين بمن يصلح أجهزتي، فما عاد لدي الوقت والفضول لذلك.

لذلك فكرت في معرفة أحدث مستجدات أمن المعلومات والاختراق، في وقت وجيز، بعد بحث معمق، وقَعْتُ على دورة المخترق الأخلاقي، بشقيها العملي والنظري، وكانت دورة مكثفة لمدة أسبوع.. جميل! أخترق الاختراق ليخترقني العلم ويشفي فضولي. التحدي الوحيد أنها في في بيدفورد شاير ولم يسبق لي السفر وحدي. الرحلة بالقطار تمتد من أعلى المملكة البريطانية إلى أقصى الجنوب، وبها ثلاث محطات تبديل. كان قلقي الوحيد أنني لم أجرب ذلك سابقاً ولا أدري حقيقة ماذا سيواجهني، فكل سفري السابق برفقة والدي وبيادارته الكاملة. لم أجرب اختراق منقطة الراحة بهذه القوة وحدي، حسمت حيرتي ودرست الوضع جيداً، بحثت وسألت ورتبت وعزمت على السفر. حديثي الآن عن ذلك يبدو غريباً ساذجاً، ولولا أنه محفور في ذاكرتي لأنكرته، فالسفر والتنقل في بقاع الأرض بكافة الوسائل أصبح أمراً عادياً لا يثير دهشتي أو قلقي.

كان مركز التدريب في منتجع هادئ، كل شيء يبدو من الجنة: الخضرة، الزهور، الأشجار العظيمة الممتدة، جداول الماء، الشمس والغيوم، الهواء النقي، الهدوء إلا من حفيف الشجر وخرير الماء وسقسقة العصافير. المباني قليلة ومنخفضة، مبنية بالطوب الأحمر الصغير بحجم راحة اليد. أرض المكان شاسعة منبسطة وجميلة، ولا داعي للتعالى في المباني، طابق واحد كان ما يحتاجه هذا المركز. يبهجني ويسكب في السكينة ألا تتعالى المباني من حولي هي قريبة مفهومة بسيطة. يرتبط قسم السكن بقسم الدراسة بممر طولية قرابة خمسة أمتار، مغطى بأقواس الورد، بالغ الإبراق والنضرة. المرور من تحت القوس يغمر حواسي بشعور ناعم نادر ولذيذ. رائحة زكية ونسمات رطبة مفرطة الاعتدال في سرعتها وحرارتها، وكثافة ورد يتزاحم برقة، يطل

ويتدلى وكأنه يقترب للتحية والسلام الخاص بي وحدي. المرور من هنا
يمسح تعب اليوم الطويل ويحتضننا بلطف وعدّوبة. إن كان هذا القوس
بقوامه وجماله وأثره فانيًا، فكيف بأقواس الخلود في الجنة؟

هنا كل شيء مثالي، إلا الطعام، فهو أسوأ طعام على الإطلاق، جسيمات داكنة
مقلية، يقال إنها بظاظا ودجاج. في الدورة كنا فتاتين، مع 14 رجلا، كنت
أصغرهم سنًا وحجمًا، ندرس دورة مكثفة في الاختراق الأخلاقي بطرقه
ومبادئه الشائعة في ذلك الوقت. حضر المحاضرات إلى الخامسة مساءً،
وبعدها نحاول فهم المعلومات الكثيرة وإصاقها في عقولنا استعدادًا
للاختبار. في اليوم الخامس كنا قد استهلكنا جُلَّ طاقتنا في محاولة
الاستذكار والفهم. هكذا الدورات المكثفة القصيرة، تخنقك ثم تغذيك
بالامتنان للاجتياز. الآن جلسة مع المدرب بعد نهاية الدورة للنقاش وللإجابة
عن الأسئلة. جلسنا في باحة مفتوحة وسط المباني، باحة محاطة تمامًا
بالأشجار والأزهار، وكأنك في غابة صغيرة في قلب المبنى. كنت أقاوم فتنة
هذا المكان لأستوعب أكبر قدر من النقاش. عدت إلى غرفتي لأستعد للاختبار
في الغد، افترشت كل الكتب وأخذت أراجع منها ومن أسئلة المراجعة
المنتشرة على الشبكة.

آخر اختبار أخذته كان في مواد مرحلة الماجستير، كنت أستذكر لمدة فصل
دراسي كامل، لكني هنا ابتلعت كل شيء في أسبوع، يا ترى هل هذا كافٍ،
وهل فعلا كل شيء محفوظ في ذاكرتي؟ كانت المادة دسمة وهائلة لكن
يخفف ثقلها أنها تتسق مع بعض ما أعرفه ودرسته سابقا في مواد الشبكات
في البكالوريوس والماجستير.

دخلنا المعمل، ثم قمنا بالتعرف على طريقة الاختبار وكيفية وسم الأسئلة
التي نشك في إجابتها للعودة إليها ومراجعتها لاحقًا. إذا ضغطت أنتهاء،
فستخرج حتمًا من الاختبار، انتبه جيدًا لذلك! حسنا بسم الله. مدة الاختبار
أربع ساعات، الجميع يجلس حتى بعد مرور ثلاث ساعات، أصابني ذلك
بالحيرة والتردد في أن أنهي الاختبار. اجتمعنا مع المدرب بعد نهاية الاختبار
وعزّي من لم ينجح، وهم الأغلب، بكلام لطيف، وبيّن لهم أن هناك فرصة
ثانية، وحمدت الله أنني نجحت مع أربعة آخرين.



(الأصعب من الصعود: النزول!)

كيّتي زميلتي في المكتب، تخرجت للتوّ من مرحلة البكالوريوس، ودخلت مرحلة الدكتوراة مباشرة، تصغرنى بخمسة أعوام. كيّتي تثير خيالي دائماً، ماذا لو كنت وُلدتُ مكان كيّتي؟ كُنت بدأت مرحلة الدكتوراه وأنهيتها منذ أربعة أعوام في سن السابعة والعشرين! تنقصها لا شك خبرة ثلاث سنوات قضيتها في التدريس أثناء تحضير الماجستير وما بعده. لكن لا يهم ستحصل على الدرجة في وقت قياسي بغض النظر عن الخبرة. أغبطها حقاً على أنها ستحقق مرادها في وقت قياسي.

ما رأيك أن نتزلج على الجبل؟ أين كيّتي؟ «اكس اسكيب»؟ وكان عبارة عن مجمع للتسوق به منحدر ثلجي صناعي، بالنسبة لي يبدو كثلاجة كبيرة بها منحدر صغير ومصعد للرفع لأعلى... لا بل في الهواء الطلق حقاً؟ هل يوجد ثلج الآن؟ لا، سنتزلج على المنحدر الجاف! جاف؟ هل هذا ممكن؟ وهل سنلبس الزلاجات الحقيقية؟ تعالي معي، أول درس لي هو الثلاثاء القادم... حسناً

لم تكن لدي الخبرة في التزلج الحقيقي، فضلاً عن الصناعي، ولكني لا أمانع في خوض أي تجربة رياضية جديدة. كان يوماً نوفمبرياً مظلماً، خرجنا من الجامعة عند الرابعة، وصلنا إلى المكان مشياً عند الخامسة مساءً، كان الطريق طويلاً وغير مألوف بالنسبة لي. مررنا فيه بحديقة شاهقة الأشجار تتوسطها بحيرة خلابة، منظرٌ أحاذ ولكن الظلام الذي يلف شجر الغابة وطرقها ويغطيها يثير الغموض ويبعث على الخوف بعض الشيء. وصلنا إلى المكان واستقبلنا المدرب، تحلقنا حوله مع المتدربين الآخرين لنستمع إلى إرشاداته، ثم توجهنا إلى خزائن الزلاجات لنختار المقاس والحجم المناسب بمساعدة الفني المتخصص. كانت تلك المرة الأولى التي ألبس فيها حذاء التزلج الضخم، فككْتُ الأربطة وحاولت إدخال قدمي قلم أتمكن. حاولت بقوة أكبر، فهرع إليّ الفني وقال «مهلاً، ستكسرين قدمك!» توقفت عن المحاولات حتى جاء وفتح الأربطة وسحب اللسان البلاستيكي بقوة خارج الأربطة الحديدية وثبّته بهذا الوضع، ثم حرّك رأسه وقال «الآن!» أدخلت قدمي بكل سلاسة، ثم أحكم إغلاق الأربطة الحديدية «قفي وجربي، مريح؟» نعم. أختفى الفني وترك لي مهمة الحذاء الثاني. حاولت تقليد ما فعل، وبالحيلة والفكرة والقوة واللين وبعد وقت طويل لبست الحذاء الثاني، والتفتُ صوب الباب لأرى أن الجميع ينتظرنى هناك، تقدمت ومشيت بصعوبة فقدمي مثبتة مع ساقى وكأنه لا مفصل بينهما، مشيت كالبطريق، أتأرجح وأنا

أحمل زلاجاتي بيدي، اعتذرت عن التأخر. خرجنا فإذا هو منحدر شاهق عليه بساط بشعيرات بلاستيكية وفوقه إنارة مشعة عظيمة كإنارة الملاعب، وينزل من منحدره ويصعد ببساطه المطاطي المتحرك عشرات الأطفال بانتظام بهيج. أول فكرة خطرت لي وأنا أتأمل المنحدر البلاستيكي هي: كيف سأنزل منه وأنا أردي الزلاجات، «بطولي» دون أن «أتكرفس»، فالارتفاع شاهق ومخيف. تدربنا على صعود المنحدر بالعرض خطوة خطوة، نرفع قدمًا لنحط الأخرى وهكذا نرتفع نتفة نتفة. كان ذلك التمرين مرهقًا للغاية لكنه مكّننا من فهم ديناميكية المنحدر والتحكم بحركة الساق والقدم الثقيلة بشكل أكبر. حان الآن وقت الصعود باستخدام البساط المتحرك. تأملت الأطفال الواحد تلو الآخر ينقلون أنفسهم برشاقة من الأرض إلى البساط المتحرك، يقفون بثبات ويصعدون بانزان إلى القمة. يبدو أنهم يفعلونها بطلاقة وبلا وعي أو عناء، لكنها لم تكن مهمة عادية بالنسبة لي، كانت تستدعي الثقة والخفة والتوازن، الثقة في نقل نفسي من تحكمي الشخصي إلى تحكّم البساط المتنقل ثم الخفة في نقل الزلاجتين متوازيتين من الأرض إلى البساط ثم التوازن عليه حتى الوصول إلى القمة. تعلم كل ذلك دفعة واحدة تحديّ عادات التفكير لديّ وخلق موصلات جديدة في دماغي. وقفت مليًا أمام البساط المتحرك، أمارس التأمل والاستيعاب، أخيرًا قرّرت الانضمام للصف، كنت أكبر شخص فيه، أكبر من كل من كان واقفًا قبلي وانضم بعدي من الصغار، بشكل يحرّج سرعة التعلم لديّ ويشحذ همّتي للتقدم. الآن حان دوري، نقلت قدمي بالزلاجات الطويلة من الأرض إلى البساط، واحدة ثم الأخرى، تأرّجحت قليلًا، لكن لم أسقط! لا أكاد أصدق أنني نجحت في ذلك، وأني أقف وأصعد للأعلى! كنت أغالب قلقي بمحاولة الثبات والاستمتاع بالمنظر حولي والتحرك البطيء للأعلى، الشعور رائع! غرقت في ثوانٍ لذيذة إلى أن تنبّهت لنهاية البساط المتحرك، حيث ينزل الأطفال أمامي ويلتفون بخفة استعدادًا للنزول. حسنًا لا أريد أن أفقد توازني وأتدحرج أمام الصغار البارعين الآن لأكون مثار الضحك والسخرية. راقبتهم بتركيز شديد، قرّرت نسخ ما يفعلون، أزيل زلاجتي بسرعة وأنحرف قليلًا. نجحت، هأنذا أقف أعلى التل!

في القمة كان المنظر مهيبًا أسرًا يُطلُّ على المدينة وحدائقها وبيوتاتها القضاء. انتقلت ببصري إلى أسفل المنحدر فأصبت بمغص ودوار خفيف، كيف سأنتقل إلى هناك؟ تعمّدت أن أكون آخر من ينزل؛ علّ كثرة الملاحظة تفيد. كان النزول على طريقة «البيتزا»، وهي أن تكون الزلاجتان منفرجتين من الخلف ومضمومتين من الأمام على شكل شريحة بيتزا، وهذا أقل مهارات النزول صعوبة، ويخفّف من سرعة النزول بشكل كبير.

كان الحفاظ على البيتزا والاتزان للنزول صعبًا للغاية، وبدأ النزول وكأنه دهر،
أرهقني التركيز ومحاولة التحكم بـ «البيتزا» والمحافظة عليها، لكنني أخيرًا
وصلت. التقطت أنفاسي وحمدت الله على السلامة... وأنا في غمرة أمتناني،
نزل المدرب كالطلقة، وبسرعة خاطفة استدار أمامي بحركة ماهرة، هيا، هيا
لنصعد مرة أخرى.

(الحياة تزلج أكبر)

«الحياة تبدأ بخطوة واحدة خارج دائرة الراحة»، شانون ألد

حلّت إجازة رأس السنة، واقترحت مريم رحلة تزلج على ثاني أعلى قمة في اسكوتلاندا قرب بلدة أفيمور (Aviemore).

تروحي أفيمور نتزلج؟ بس ما قد تزلجت قبل أبدأ والدروس اللي مع كيتي؟
لسا بس درسين... عادي... أنا ما أخذت ولا درس، وخاطري أجربة قبل ما
أرجع، هذي آخر سنة لي هنا

أقنعتني كلامها وتعاطفت مع دوافعها، فضلاً عن كون الرحلة بحد ذاتها ممتعة،
أما التزلج فسأكون في سعة من أمري وأستطيع إلغاه في أي وقت.
اصطحبت معي كتاب تعليم القيادة السميكة لأذاكر منه القوائين، فاختبار
القيادة بعد أيام، لم أفوت الرحلة بسبب الاختبار، قررت أنني أستطيع فعل
الاثنين معاً، لأنها فرصة قد لا تتكرر. كانت الرحلة في يوم مشمس نادر
الحدوث في أيام اسكوتلاندا الرمادية المكسوة بالغييم الكثيف.

في القطار مريم تهاتف فندقاً حجزناه في البلدة قريباً من جبل التزلج
«كيرينفورم». ويبدو أن هناك مشكلة في الحجز. بحثنا عن أسماء فنادق
أخرى. وتذكرت عندها كلمة إحدى الصديقات: «كل حجوزاتي مؤخرًا من
بوكينق دوت كوم ولم أواجه أي مشكلة». كانت كلمتها كفيلة بصنع الثقة في
الحجز عن طريق موقع بوكينق، لم تكن تلك الطريقة مألوفة حينها، فضلاً عن
الدفع عن طريق صفحة إنترنت! أتممنا الحجز ببطاقة الفيزا، وصلنا إلى
البلدة، السيارات حولنا فارهة حديثة واسعة، علي عكس السيارات في
جلاسكو، خنفسائية وعتيقة. كل شيء لَمَاع ومتأنق، الشوارع فسيحة
بلوحات وألوان جديدة، حتى طلاء الأرض للمسارات والأسهم يبدو وكأنه
صُبغ للتوّ بصبغ أصفر ناصع كطبقة سميكة لم تدسها العجلات بعد. شعرت
للمرة الأولى من وجودي في اسكوتلاندا بأنني مسافرة و«أغير جو».

وصلنا إلى الفندق بسيارة أجرة ألمانية «فاخرة» وكان الفندق في قلب
أفيمور، عبارة عن قلعة أثرية، وغرفه كأنها أجنحة قصر ملكي صغير. أخذنا
استعداداتنا وخرجنا صوب موقف الحافلات. انتظرنا وقتًا ليس بالطويل،
واستقللنا الحافلة المتجهة للقمة وكنا نصعد ببطء بطريق ملفوف حتى
وصلنا إلى منتجع التزلج أعلى الجبل. الجو بارد برودة قارسة تخترق الجسد،

والثلج يتساقط بهدوء حينًا وبرياح عرضية سريعة تحجب الرؤية حينًا آخر. توجهنا لمكان تأجير أدوات التزلج وأخذنا الملابس المناسبة.

كان حذاء التزلج رطبًا قليلًا، ما أثار «قرفي» وضخّم هواجس النظافة لدي. فهمت فيما بعد أن بعض مراكز التزلج بها مجفف للأحذية حفاظًا علي نظافتها وراحة العميل التالي. هل هناك حذاء آخر بنفس المقاس؟ للأسف لدينا هذا فقط. لبسنا الأحذية وحملنا الزلاجات وسرنا كالبطاريق للخارج. كانت مريم تتجه بحماس صوب الرافعة التي تسحب المتزلجين للأعلى،

مهلاً هل حقًا ستصعدين؟ قلتها فزعةً من انطلاقتها القوية نعم كلي شوق لذلكما رأيك أن نجلس هنا قليلا نتأمل الأوضاع ونتعلم؟

جلسنا إلى طاولة خشبية حولها كراسي عبارة عن جذوع شجر لم تُشَدَّب. أخذنا نتأمل الصاعدين بالحبل والنازلين تزلجًا، تأملنا كثيرًا، وتميَّث بيني وبين نفسي أن تنسى فكرة الصعود، فكان النظر ولمس الثلج واللعب به بالنسبة لي جميلًا وكافيًا.

هيا سارة لنجرب... بقيت نصف ساعة لإقفال المصاعد. شعرت بأنه لا مفر، جيد نعم، سأنتظرك هنا... قلتها وأنا أعتقد جازمة بأن الصعود مشروع انتحاري بامتياز. سرت بجانبها بالكاد نتحرك، زادت سرعة الرياح والرؤية أصبحت شبه معدومة، كانت الساعة الثالثة والنصف قبل المغرب في نهار شتوي قصير. لم يثنها ذلك من الاستمرار للتقدم باتجاه المصاعد.

كانت المصاعد عبارة عن حبل يدور ويدار من خلال غرفة تضم دولابًا ضخماً، تتدلى من الحبل عُصِي عمودية تنتهي بقطعة صغيرة تشبه حرف (T).

العامل المشغّل للمصعد يشير بيده بحزم: تمسكي بالعمود جيدًا، حافظي على استقامة ظهرك، وضعي حرف (T) بين فخذيك، ولكن لا تجلسي عليه حذار، فسينسحب المقعد وتتوقف كافة المصاعد. حسنًا... هيا اقتربي.

قفي هنا في هذا الممر على الخط الأحمر. إذا كنت مستعدة سأعطيك العمود وتمسكي به إلى أن تصلي إلى القمة.

هيا.. خذي.. أخذت الحبل، لكن يبدو أنها جلست فعلاً على المقعد الصغير وتمدد حبل طويل بداخل العمود ووصل المقعد إلى الأرض، لكنها ما زالت تجلس عليه وما زالت تتمسك بالعمود. اتركي العمود... حالا اتركي العمود... لم تترك العمود وأخذت تتدحرج على الأرض وتدور مثل شاورما عالسيخ

وتصعد باتجاه الأعلى. صوت عظيم لانطفاء محرك المصعد. وأخذ العامل يركض باتجاه كتلة الثلج البشرية المتكومة على الأرض.

«آر يو أوكي؟» نعم ولكني لم أصعد...

مريم طبقت الجزء الأول من النصيحة وهي التمسك بالعمود جيدًا، لكنها خالفت كل ما قاله عدا ذلك... كان منظرها وهي تتدحرج مقلقًا ومضحكًا في الوقت ذاته. هيا حاولي مرة أخرى، قفي بثبات واستقامة، لا تجلسي على المقعد أو تضعي ثقلك، فقط استندي عليه.. وقفي باستقامة مفهوم؟ حسنًا سأحاول. حاولت أخرى وتدحرجت مثل المرة الماضية، هنا أشفقت عليها، وكيف أن حجم إصرارها لا يتناسب مع ما يحدث ومع الوقت المتبقي. أطفأ محرك المصاعد وراح ليساعدها. حاولي مرة ثالثة... حسنًا. أكبرت فيه الأمل.. وأكبرت فيها الإصرار، كان مهرجانًا من القيم الإنسانية الكبرى أدهشني حقًا... الآن تتدحرج للمرة الثالثة للسبب نفسه.. وهو أنها جلست على المقعد، ولحسن الحظ لم يبقَ عند المصعد سوانا، فالجميع غادر.

حسنًا... يبدو أنني حاولت بما فيه الكفاية، إنه دورك سارة.. قالتها بحزن صغير وهي تنفض عنها ندف الثلج العالقة في ملابسها. هيا هيا من هنا... بادرني مُشغَل المصعد ولكن... أنا..

ودار في خَلدي أن المُنحدر مُرعب، والسماء تلبّدت وأظلم المكان وصارت الرؤية صعبة، ثم إنني سأسقط لا محالة... فلماذا أخرج نفسي؟ أسرعت دقات قلبي، أخرجني الموقف واشتعل عقلي بصراع ساخن..

أقنعت نفسي، بأنه لدي خبرة بسيطة في التحكم، استحضرت شكل الطفلة التي راقبتها للتو، كانت كلمات أمها ترنّ في رأسي، «كيب يور بيتزا». نعم سأحافظ مثلها على «البيتزا» مهما كان الأمر شاقًا، وأنزل بهدوء. ثم من يضمن أنني سأملك نفس الفرصة للتزلج مرة أخرى؟ بل حتى لو سقطت، ما الذي سيحدث؟ لا شيء.

حوار سريع عالجت فيه مخاوفي بالمنطق، واخترت أن أصعد!

هكذا قررت في ثوان سريعة بيني وبين نفسي.. ومُشغَل المصعد المثابر كان سببًا أساسيًا في تشجيعي، كَرَّرَ عَلَيَّ نفس التعليمات «استمري للأعلى، إياك والجلوس!» بدأ منطقيًا ألا أجلس، فقد سمعت ذلك مرارًا وتكرارًا!

لكن بمجرد أن اقترب العمود وأمسكت به واستندت على المقعد انهال عقلي بأمر الجلوس وليس مجرد الوقوف باستقامة، كنت بكامل وعيي أرفض الجلوس، وأواظب على إبقاء ظهري مستقيماً وإمساكي بالعمود. لن أجلس.. لن أجلس.. لن أجلس.. كانت العملية غير عقلانية بالنسبة لعقلي. كررت التوكيد، إلى أن تَبَهْتُ إلى الهدوء الكبير من حولي، اختفى كل شيء، محرك المصعد الكبير ومِشْغَل المصعد ومريم، اختفوا تماماً ولم أعد أسمعهم أو أراهم. وبياض يلفني من كل مكان. كنت أصعد وأصعد أكثر ولكن لا يمكنني رؤية ما أمامي، فكل ما أراه هو ما حولي من البياض بقطر مترين على الأكثر. ازدادت الرياح حِدَّةً، وبدأ الثلج بمباغتتي من كافة الاتجاهات، بدأت الرؤية تتضاءل، أربني هذا الصعود الذي لا أعلم متى وأين نهايته، وشعرت بوحدة عميقة مخيفة، تدمت قليلاً، فلم يكن لدي تصور بأنني سأصعد حتى هذه المسافة. كيف أتوقف الآن! هل أناديه ليتوقف المصاعد؟ حتماً لن يسمعني فأنا بعيدة جداً عنه، ماذا عساي أن أفعل؟

الثلج تحتي يُشكّل طبقة سميكة وناعمة، أمَلْتُ جسدي وأفلتُ العمود، وأسقطت نفسي على جانبي الأيسر. كان السقوط لذيذاً هادئاً ناعماً مبهجاً، أظنه أطف سقوط مرّ عليّ... عَلِقْتُ بضع ثوانٍ في وضع السكون، ثم تحركت ببطء للتأكد من أن عظامي كلها في وضع سليم. أستعملتُ العصا ونقرت مكان المزلاج الذي يفصل الجِذاء عن الزلاجة بكامل قوتي، لم ينفتح. حاولت مرات كثيرة ونجحت أخيراً. حاولت الوقوف بقدم واحدة حرة فلم أستطع. نزعْتُ الزلاجة الثانية. وقَفْتُ بشكل عرضي في المنحدر، لبست الزلاجة واستدزْتُ قليلاً، وبدأت بالانحدار.

الثلج هنا لا يُشبه المنحدر البلاستيكي إلا في لونه فقط، فقد كان سميكاً ناعماً أحمرّ فيه الزلاجة بكافة الاتجاهات بيسر وسهولة. نزلت والثلج يهطل، ويلفني هدوء مطبق وسكون لا يشبه أي سكون جربته قبلاً، ثواني النزول ممتعة ولطيفة ومُرْضية وشفافية. تلك الثواني الهائلة بروعتها كانت تستحق كل عناء قبلها. أحتفظ بها غُضَّةً مفعمة بالحياة، بشكلها ولونها وصوتها وإحساسها، فقد حُفرت في وجداني بشكل لا يمكن نسيانه أبداً. أظن جمالها الفَتَّان يكمن في الصراع قبلها وفي التحدي الذي قررت خوضه، حقاً كل السُّحر يكمن خارج دائرة الراحة والمألوف. كل اللذة تكمن في الجسارة، وهي جسر عبورنا لأراض جديدة، وكل أرض جديدة هي عمر يضاف لعمرنا وغزارة تُكثِّف خيوط حياتنا وتغزلها بالمعنى. شكرت قراري السريع في الخروج من «عادتي» وكل المألوف وشكرت القدر الذي أهداني فرصة هذا القرار لأرى مخاوفي بطريقة مختلفة. تكرر عليّ الصعود وتكرّر القرار في أكثر من موقف

تهيبته، ثم صار سهلاً هَيِّئًا، بل لذيذًا، فكلما خفت أو تردَّدتُ، عرفت أن
بداخلي قوة ستمكنني من الصمود والوصول، احترفت بعدها «تزلج» الحياة.

■

(تواصل خارج الوعي!)

تحبُّسك تصوُّراتك في صناديق مغلقة، قفلها العُنصرية أو الجهل أو الخوف أو الكِبَر، مفتاح القفل، التبصُّر والوعي، والشجاعة الكبرى...

في مدينتي في بريطانيا، كانت جسور التواصل نادرًا ما تمتدُّ بيني وبين الغامة، فكلُّ في شأنه. ربما حجابي يصنع حاجزًا ويضع لافتة غير مرئية «ممنوع الاقتراب»، أو ربما هو تحفُّظ من الغرباء؟ أو ربما هي عاداتهم، أو هو قلة اختلاطي والسياقات التي تجلب الاتصال والحوار، أو ربما هو شيء آخر. لم أستوعب كمية التحفظ التي أحاطني بها كثير من البريطانيين حولي إلا بعد حادثتين.

الأولى، كنت فيها متوجهة إلى لندن بالقطار، وكانت السماء ساحرة بجمالها ولونها الأزرق وتراكم السحب بشكل يدعو قلبي الصحراوي للتأمل والتأمل مليًا، غرقت في اللوحة البديعة أستنطقها فتسمعها حواسي كلها في اتصال مكثف عميق لم يقطعه سوى كلمة من الشخص المقابل لي.

جميل أليس كذلك؟

مُسنٌّ يبدو في الستين أو أكثر من عمره، شعره فضِّي بأكمله، ومُسرَّح بطريقة مرتبة كالموج إلى ما تحت أذنيه، يرتدي بزَّة سوداء بها قطعة بيضاء في المنتصف، يده منقوشتان بالنمش ومكرومشتان بفعل السنوات. وجهه يشي بالطمأنينة والانشراح، تلامس الشمس قسَماته حينًا فتنبجس منه حمرة شديدة متوهجة، وحينًا تُظلله الغيوم فينطفئ ذلك الوهج.

نعم، بل وساحر. الأعجب أنني لمست ذلك فقط بتأملك واهتمامك، فالمنظر يتكرر عليّ مرارًا ولا ألقى له بالأُتَيْثُ من قلب الصحراء، اعتدت على منظر السماء صافية، السحاب بالنسبة لي حدث نادر يستحق الاحتفاء والتأمل. مدهش حقًا، كيف أننا نصِّف اليوم الغائم بأنه غير مثالي، بل نقول: «أجمل ما في المطر أنه سيتوقف أخيرًا» فالمطر لنا بَلَلٌ وظُلْمَةٌ وتعطيل للمصالح، وهو غُمَّة نستبشر بانفراجها. أما نحن فنفعل العكس تمامًا، إذا هطل المطر يتهاثف أباؤنا فيما بينهم بالتهاني، والتبريكات، بل يرصدون الأماكن والأوقات التي هطل فيها المطر يكامل الإمتنان والسعادة، ونبتهل إلى الله دومًا أن ينزل المطر.. رغم أنه فعلاً وحقًا يُعطل بعض الطرقات غير المستعدة له، ويغرقنا أحيانًا... بعكس ما يفعل هنا، إذ ينساب برقة، في كل مكان ولا

يعطل أحدًا... مدهش هذا الاختلاف وسعيد أن لمست اليوم الجمال من عينيك اللتين تنظران وقلبك الذي شعر.

كان الحوار هادئًا سَلِسًا مَتَسَقًا مع منظر السماء الباهر، ربما أنه لم يكثر لحجابي أو لأي شيء يفصلنا وخاطب إنسانيتي مباشرة بكل انفتاح وحب.

في المرة الثانية، كنتُ قافلة من دورة حضرتها في كيمبردج، وكانت رحلة العودة تمر بثلاثة تبديلات، وفي المحطة الثالثة ثم إعلان إلغاء الرحلة الأخيرة والاستعاضة عنها برحلة بديلة بخط أطول. مضى الوقت وغابت الشمس، وكانت تلك المرة الأولى التي أستقلُّ فيها المواصلات العامة في وقت متأخر من الليل. جلست في جلسة مخصصة لأربعة وأمامي طاولة ومقعدان. كنت في أشد مستويات الحذر والترقب، فالسبت هو يوم إجازة، وشرب، وأهل تلك البلد يقدرّون الشرب حتى الثمالة، نعم حرفيًا حتى الثمالة. توقفنا في إحدى المحطات واستقل القطار مجموعة كبيرة. مرَّ بجانبي مجموعة مكوّنة من ثلاثة كهول: امرأتان ورجل، وجلسوا في الطاولة المشتركة، الكهل أمامي، بجانبه وبجانبي السيدتان. مرَّ الوقت والקהل متكوم على الصحيفة أمامه يكاد يلمسها بأنفه، تعلوه حذبة واضحة، يحملق في الكلمات المتقاطعة ويحاول حلّها. تتدلى من رأسه شعرات فضية مشاغبة ترقص بعشوائية كلما حرك رأسه، ترك الصحيفة جانبًا ورفع رأسه، وأخذ يكلم صاحبتيه ويضحك. وأخذ يكلمني معهم دون تحفظ.

هل أنت سعيدة؟ بادرني الكهل الذي يجلس أمامي. فاجأني سؤاله المباشر وظننته يكلم أحدًا غيري، اعتدت أن أكون غير مرئية هنا، أجت بابتسامة: نعم.. أظن ذلك. لماذا ترتدين هذا على رأسك؟ لأنني أريد ذلك.. أجت بسرعة وتلقائية تبدين جميلة، ما أجمل عينيكفرانك! كف عن ذلك، نهزته صاحبتيه، ثم أتبع ذلك بضحكة وهزّت رأسها ومطت شفتيها، مشيرة إلى استهجانها ممًا يقول.

كانت أسئلته بسيطة، مباشرة، عميقة وشخصية. ورغم أنني أجتته بسرعة وتلقائية إلا أنني غرقت في تأملها فيما بعد، فقد لمستني. هل أنت سعيدة؟ سؤال بحجم الحياة!

تعليقه على عيني، قوبل بحاجز صخري كبير يرفض أي إطراء من رجل غريب. لكن ليكبر سنّه ولعلمي أنه يتحدث بلا وعي، وفي الوقت نفسه يتحدث بصدق كامل، وقعت كلمته مني موقعًا لطيفًا، وصرت أذكرها وأبتسم كلما نظرت للمرأة.

موضوع الجمال وإخفاء الجمال، أصبح موضع تأملي كثيرًا، ما الأمر الأكثر صحة، إخفاء الجمال أم الاحتفاء به؟ وما هي الحدود التي نحتفي بها؟ هنا وفي كل مكان أحترف إخفاء كل جزء جميل من جسدي كسلوك منبعه معتقد ديني مقصده حجب الجمال إلا عن أشخاص محددين. ثم أودّ أن أقرأ عن هذا المبحث أكثر. وفي نفس الوقت لا أكف عن تأمل التضاد بين قيم المجتمعين المسلم والغربي. فحنا يؤمنون بأن إظهار الجمال (باعتدال) والاحتفاء به هو جزء صحي من منظومة الأنوثة، فلا تغطي شعرها مثلًا إلا من تعاني من عدم وجود الشعر أساسًا! ولا أنسى إحدى الكبيرات التي قابلتها في مكان سياحي والتي لم تستوعب أن لدي شعرا ناعما كثيفا صحيحا سوى بكشفه لها، حينها صدمت وصارحتني بأنها تظن أنني صلعاء! وإظهار الجمال أيضا هو تَلَطَّف مع المجتمع فلا يخرج الشخص أشعث أو باهتًا أو منفردًا لمن حوله. في المجتمع الذي أتيت منه، إخفاء الجمال مطلب مهم وهو مرتبط بالحكم علي المرأة وعقبتها بشكل مطلق ففي إخفاء جمالها يكمن الجمال. غرقت في أفكارى وتوقف فرانك عن الاستجواب وغرق مجددًا في الكلمات المتقاطعة. أخذ يطلب المساعدة منّا جميعًا بتخمين الكلمات. شعرت أنني -للمرة الأولى- جزء من الفريق، أحسست بشعور جميل، وأخذنا نفكر سوياً وبتعاون.

في إحدى المحطات، نزل صحتي وأخذ الكهل يودعني بطريقة مختلفة عما يعاملني به البريطانيون، طريقة إنسانية حميمة لطيفة، تخلت عن كل الحواجز الكلاسيكية، والتي تبدأ بتحاشي التواصل البصري، إلى تجنب الكلام مطلقًا أو «الأحاديث الصغيرة» التي تجري بين الغرباء أحيانًا. ومدّ يده ليصافحني وحيثه واضعة يدي على صدري بلطف. أصر على موقفه، واقترب ليحتضني، هنا نهرته صاحبه وقالت فرانك تأخرنا وهيا بنا. لم يكن الكهل في وعيه الكامل، فوعيه الكامل متحفّظ جدًّا...

■

(كايلي)

في العام الأول لي في جلاسكو، كانت جارتني في المكتب مكسيكية «مكلبزة» لطيفة مفعمة بالحماس والحيوية دائماً. وبحكم أقدميتها وخبرتها في أنشطة الجامعة دعنتني إلى فعالية في مبنى الطلاب.

ما هي الفعالية دورا؟ أنظري أحضرت نسخة من الإعلان «Scotish Cèilidh». «سيليدا»؟ حاولت قراءة الاسم بصعوبة. ضحكت دورا وقالت: «كايلي». وما هو «الكايلي»؟ معنى الكلمة «الزيارة» وهي فعالية أسكتلندية، بدأت تاريخياً بسرد الحكايات وإنشاد الأشعار، وأضيفت إليها لاحقاً الموسيقى والرقصات الشعبية. وباتت فعالية ترفيهية مهمة تدعى إليها الفرق للأداء في الاحتفالات والأعراس... حسناً أظن ذلك يكفي، سأذهب معك!

سجلنا في الفعالية وذهبنا سوياً. المكان مزدحم والجميع أخذ نصيباً من المقرمشات والمشروبات. ثم بدأت الموسيقى. جذبتني دورا، هيا لندخل في الصف، رفضت بلطف، أصرت عليّ، ورفضت بحزم، ثم أخذت رُكناً قصيماً أجلس فيه للنظر والمتابعة. فاجأتني قوة الرقصة والتي تؤدي بطاقة عالية، متطلبة لياقة ولباقة ومعرفة. حمدت الله أنني لم أقحم نفسي في موضوع أجهله كهذا. وأنا غارقة في متعة التأمل والمتابعة، جاءتني امرأة تبدو في نهاية الستينات، شعرها فضي عن أكمله، ملفوف وقصير، وعيناها زرقاوان تتلألآن بالبهجة والحيوية، تشع بالحياة وكأنها طفلة ذات عشرة أعوام.

هل ستجلسين هنا طويلاً؟ هيا معنا. اوه لا مستحيل، أنا لا أعرف أي شيء من ذلك. سأعلمك لا تقلقي! ولكن... لا لا مستحيل...

ولمحت في عيني تخوفاً وفهمته، قالت هذه الرقصة بريئة.. انظري!

وكان الجميع يقفز بسرعة ويدور بجديّة وتتعالى الضحكات حيناً على من يفلت نظام الأداء. رياضة قوية منظمة وانسجام في الأداء ولباقة عالية مذهشة. خجلت أنها بعمرها تؤدي تلك الرقصة بخفة وحياء وفرح، وأنا هنا أنظر. هيا كوني بجانبني هنا، والصف المقابل سيدورون وسندور معهم، هكذا غرقنا في القفز والدوران وكانت أول «كايلي» وأول لقاء لي بأمي الأسكتلندية المليئة بالسخرية والشغب والحياة، والتي أزورها وتزورني إلى هذا اليوم. علاقتي بالرقص بدأت مع والدتي في الطفولة كنشاط دائم أسبوعي، نمارس الرقص الشرقي كترويح أساسي ورياضة مهمة في المنزل.

تلاشى ذلك مع دخولي فترة التشدد الديني المتزامن مع انتشار حركة «الصحة» وقت المراهقة، عندها، حرّمتُ على نفسي كل شيء، وزهدت بالحياة. بعد سنوات، ومع تعدد مصادر ثقافتي وتفحصي لمعطيات الصحة في النواحي المختلفة عدت بخجل لتجربة الرقص من جديد. مع أول تمرين، أطلقت الخوف والتردد، واكتشفت أنني مع كل حركة يُرَكِّز فيها عقلي للتحكم بجسدي للتوازن والاتساق، تتحرر طاقة هائلة تبعث في الصفاء والأستشفاء، وتُشعل أجزاء العقل والذاكرة وتهزُّ سكونها الجالب للضمور، والاستسلام. ذلك التركيز الذي يغمرنى في اللحظة، يردع عقلي عن إفراز هرمون القلق «الكورتزول»، لأنعم بالسلام. تسعد عضلاتي بالتمدد، وينعم جسدي بالمرونة، دقائق معدودة تهديني مزاجًا عاليًا وخفةً كبيرة، أعود بها للحياة والعمل.

(كركوبة)

«كركوبة» هو الاسم الذي أطلقته على سيارتي الصغيرة التي ابتعتها قبيل انتهائي من الدكتوراه. في سنتي الأخيرة صرت أتأخر كثيرًا في مكتبي، وأعود سيرًا أو بالدراجة. كان ذلك خطرًا، خصوصًا بعد سماعنا عن جريمة حصلت في إحدى الليالي. عازمت على أخذ الرخصة، وشراء سيارة.

ولكن لم يبقَ على عودتك سوى عام! الأمر لا يستحق العناء! لا بأس، المرءود أكبر بكثير، في سلامتي، والحصول على رخصة القيادة.

كنت أقول ذلك وأنا أشك في أنني سأجد وقتًا لدروس القيادة الكثيرة، ٤٥ ساعة تدريب و٢٢ ساعة ممارسة، إضافة إلى حفظ معلومات كتّيب بحجم ٢٠٠ صفحة، لاجتياز اختبار نظري وثن للمحاكاة وثالث عملي. كل ذلك لم يُثنيني عن أخذ الرخصة مهما كان الثمن. كنت أدرس الكتيب كلما سنحت لي الفرصة. وعازمت على شراء سيارة للتدرب عليها، اخترتها «كركوبة» حتى لا تثقل جيبني، وحتى لا يكلفني إصلاحها -فترة التدريب- شيئًا.

كنت أتدرب مع إحدى الصديقات في حارة بيتي، التي تشبه الريف المعزول عن المدينة، أدور وأدور وأتحرك إلى أن امتلكت الشجاعة الكافية لأن أتحرك وحدي دونها، أوصلتني تلك الشجاعة إلى انتهاء البنزين دون أن أشعر!

نوف، خلص البنزين! طيب عادي اطلعي عبيّ بنزين المحطة جنبك! بس المحطة في الخط السريع، وفيه دوران، وأنا يا دوب أمشي! سواقتك ممتازة صدقيني تقدرين.

وصلت إلى المحطة وأنا غارقة في خوفي وقلقي. نظرت فإذا كل من حولي يتولى تعبئة السيارة بنفسه! تأملتهم كثيرًا وأخذت أحاكيمهم بدقة. فتحت مخزن الوقود، وأخذت أنظر إلى أنواع الوقود المختلفة، وأراقب من حولي. اخترت الوقود الذي ظننته مناسبًا، وأخذت الخرطوش ووضعت في مخزن الوقود. ثم ماذا الآن؟

ضغطت المقبض بكامل قوتي، أخذ الوقود بالتدفق، رافقه صوت «قررررر» عالٍ أشعرنني بنجاح المهمة!

لكن متي أتوقف؟ سأتوقف عندما يصل السعر إلى 30 جنيهاً، فأنا أحب هذا الرقم وأظنه يكفيني. توقفت وأعدت الخرطوش، وأغلقت غطاء مخزن الوقود ثم توجهت للبقالة لأدفع ثمن البنزين. الموقف الخامس فضلاً، نعم ثلاثون باوند، تفضل. عدت للسيارة وأنا سعيدة بالتجربة الأولى لتعبئة البنزين. حركت السيارة وأوقفتها جانباً أتأمل خروج الناس من المحطة. السيارات تطير في الشارع أمامي، وعلى أن أخرج وأقطع هذا الشارع بشكل عرضي لأخذ الطريق المعاكس وأعود إلى بيتي! جف حلقي، وخفت مرة أخرى، جلست هناك دقائق. إلى أن قررت ألا أخرج. اتصلت بصديقتي وأنا أرتجف،

وش أسوي! خلاص بخلي السيارة وأنت خذيها للبيت، أوكي؟ لا ما راح أجي، الموضوع بسيط وأنت تعرفين! يلا صدقيني لو ما أعرف سواقتك ما أشجعك.

مكثت بعد مكالمتها أتأمل الشارع والسيارات التي تطير أمامي إلى ما شاء الله. ثم قررت أخيراً أن أخرج، وأقطع الشارع وأستدير بسرعة في الشارع المعاكس. فعلتها وأنا في قمة ترقبي وتوتري. لكن وصلت إلى البيت أخيراً وأنا مستنزفة ومتعبة تماماً، لكن أشعر بفرح هائل! لولا أن ذلك الموقف محفور في ذاكرتي لصعب عليّ تصديقه، خصوصاً عندما أتأمله الآن وأنا «أخيط» الشوارع باحتراف عالٍ.

كذلك تكون بداياتي مع الأشياء والتجارب الجديدة، تفكير وقلق كبير، قد يكون حجم القلق أكبر مما يحتمله الموقف، ثم مع أول خطوة في التجربة، يتحول الخوف إلى شعور مختلف. فصرت أتنبه لحديثي الداخلي وأخفف حدة القلق «قسراً» مع كل تجربة جديدة. لا داعي «لحرق» عقلي بالقلق والترقب، قليل من التخطيط الحسن هو كل ما أحتاج للخطوة الأولى.

ومن المفارقات أنني أكملت سنواتي كلها على «كركوبة» ولم أبعها إلا قبل سفري النهائي بيوم، ولم يحصل لي أي حادث أو خدش طوال تلك الفترة. وهكذا ما كنت أتقيه وأخشى منه، لم يحدث.

(في السجن لا يجلبون لك البيض المسلوق!)

عطلة نهاية الأسبوع، بيضاتي تُسلق على نار هادئة، سكون يَعْمُ المكان إلا من صوت أختي الذي يلجلج في أنحاء شقتي وهي تسرد تفاصيل عرس خالي.. وكم فاتتني من مناسبات حميمة ومهمة، وأنا هنا وحدي بعيدة!

يفصلني عن الرياض يومان فقط، بلغت أشواقي حَدَّها، فلم أعد أشعر بغربتني، كنت أهمس بجذل وحبور لكل ما حولي، بأنني سأعود لمكاني ووطني وعشي الصغير وعائلي وصحبي. يبدو كل شيء حولي جذابًا مهذبًا لطيفًا عندما أنوي العودة!

انتهيت من شراء الهدايا في أكثر من زيارة للسوق. توقفت عن التسوق لنفسي خلال دراستي إلا لشيء أرتديه وأستعمله في بلد الدراسة. في محاولة للمحافظة على الميزانية والتي تنفرط تمامًا عند شراء الهدايا. والعدر أنها مرة في العام!

حقائبي جاهزة، وقلبي يَرِفُّ من الفرح ويكاد يسبقني.

إيه جاية بعد يومين! وش أجيب معي؟

السؤال التقليدي، ومن التقليدي أيضًا في عائلتنا ألا يُطلب من مسافر شيء بعينه، ولكنه حينها من فرط الشوق والخيرة يأتي بكل شيء.

سلامتك أبدًا انتبهي لنفسك.. اسمعي.. جبت لك بجامات حلوة مرة واللّه؟ شكرًا حبيبتي

قطع حديثنا قرع حثيث على الباب. لا أحد عادة يقرع الباب وفي هذا الوقت، فساعي البريد يُدخل الرسائل من كُوَّة الباب المخصصة لذلك. ولم أطلب شيئًا كبيرًا يستدعي فتح الباب. قرع قوي، قطعت الاتصال، وفزعت إلى الباب فورًا.

«يس؟» «اوبن أب» (افتح الباب) «هو إز نس؟» (من هذا؟) «بوليس»

ازتَبْتُ قليلًا، لكن كل ما دار في خَلدي وقتها أنهم قادمون للاطمئنان على شيء ما، أو لاستبانة أعبئها، أو لرسالة أقرؤها... ونظرت من خلال العين

السحرية وإذ بالفعل شرطيان ببزة سوداء وصدريه وقاية مبطنة، ضخمان متدرعان بالأسلحة.

وصلتك رسالة استدعاء للمحكمة سابقًا ولم تحضري! متى؟ لا علم لي بذلك! استدعاء بسبب مخالفة السرعة!

خطرت في بالي رسالتان وصلتا من الشرطة بسبب مخالفة مجاوزة السرعة المسموحة، ولأنها من الشرطة، توجهت فور تسلمها لمركز الشرطة وسألت ماذا أفعل بها؟ هل فيها أمر علي تنفيذه؟ ذهبت مرتين عند كل رسالة، وفي كل مرة يقولون إنه ليس عليك فعل شيء الآن! ربما تأتيك رسالة لاحقًا.. قطع تفكيري بكلمة مقتضبة.

وصلتك ولم تحضري! كيف وصلتني؟ لم أتسلم أي شيء يفيد بأن لدي موعدًا في المحكمة! خطاب مثل هذا من الضروري أن أوقع بتسلمه، ولكنني لم أفعل! عمومًا موعدك القادم غدًا. حسنًا شكرًا لإخباري.. سأتي غدًا إذن.

وهممتُ بمحاولة تقليص المساحة التي يشغلها من الشقة ليقترب من الباب، لكنه امتنع، وأفزعني ذلك جدًا.

بل ستأتين الآن. كيف آتي الآن وموعدي في الغد؟ هذا أمر وعلينا تنفيذه. نعم ولكن أعدك أنني سأتي غدًا. عليك المجيء الآن، لن نخرج إلا وأنت معنا. نعم سيدي ولكن... سنقبض عليك إن لم تخرجي الآن.

ذهلتُ من كلامه، وبالكاد استوعبته، حسنًا أمهلني قليلًا سأبدل ملابسي، كل ما فكرت فيه أن أتصل بإحدى الصديقات لتعلم حقيقة ما يجري في شقتي!

دخلت غرفتي وهاتفتها من داخل دواب الملابس بالهمس

مها، الشرطة عندي بياخذوني معهمايش؟ اقولك الشرطة عندي وبياخذوني معهموشو؟ مين يأخذك؟ الشرطة! الشرطة! مها! ... يا الله! قاطعني الشرطي.. هيا! لم أنته بعد! أرجوك دعني قليلًا لن ننتظر أكثر سنخرج الآن حسنًا دعني قليلًا.. أنت تتحدثين بالهاتف وعليك التوقف فورًا! مها، فهمتيني بياخذوني معهم الحين! أغلقي الخط هيا! حسنًا!

لَمَلْتُ أغراضي بسرعة ووضعتها في حقيبتي، هَمَمْتُ بأخذ اللابتوب إلا أن الشرطي رفض ذلك! قلت إنني أحججه لأنه يرفض الأعمال! رفض بشدة، وضاق من كثرة أشيائي!

هل يمكنني أخذ بيضاتي؟ هي جاهزة وأنا لم أفطر بعد. يوجد كل شيء هناك.

أطفأت النار عن بيضاتي ونظرت إلى بيتي نظرة أخيرة وخرجت. خرجت من شقتي بين الشرطيين، أمامي شرطي وخلفي شرطي! وكان هذا أول قيد لحريتي على الإطلاق!

إن تحركت بعيدًا عن الأول سأعاقب حتمًا! وقد يستعملون معي قيود اليد! وهذا آخر شيء أود حدوثه، خصوصًا أنني محجبة! فذلك قد يؤثر على علاقتي مع جيراني! وهم لا يعلمون أن كل ذلك بسبب موعد لا أعلم عنه، لتجاوز السرعة!

شقتي في الدور الثالث، نزلت الدرج طابقًا طابقًا، وكان أطول نزول على الإطلاق، توصلت لله ألا يخرج أحد من جيراني في تلك اللحظة ليراني. خرجت من العمارة، ليس بإرادتي بل مُجبرًا، اتجهت لسيارة بها حبس وشبابيك مغطاة بالقضبان كأنها سجن صغير. جلست في الخلف، وسألته إن كان بإمكانني استعمال الهاتف، لم يسمح لي. كنت أحترق خوفًا وقهرًا وألمًا لما يحدث لي دون أدنى مراعاة لحريتي أو رغبتني. وصلنا إلى مركز الشرطة، واستقبلني شرطي أسمر ضخم مهيب بشوارب كثيفة وشعر لامع كهتلر!

هاتي الحقيبة ولكن أريد الاتصال بمحامٍ، وكنت أنوي الاتصال بالسفارة لا حاجة لذلكم فضلًا، لن يستغرق ذلك وقتًا.. سيكون لديك محامٍ... هاتي الحقيبة الآن!

قلب حقيبتني رأسًا على عقب، وانتشرت أشيائي أمامي بشكل أزعجني وبدد تماشكي وسكوني

هيا اذهبي! ماذا؟ وأشيائي؟ لن تأخذي معك أي شيء! ولكن أحتاج الشوكلت فأنا لم أكل أي شيء منذ البارحة! لا يمكن، هيا إلى التفتيش!

سألوني إن كنت أحتاج تفتيشًا من امرأة، ومن هؤل الموقف لم أستوعب السؤال، كرروه ووافق، فدخلت الحجرة وأخذت المرأة تفتشني، ثم حين انتهت أخذت معطفي وحذائي.

ولكن سيدتي لا يمكنني المشي بالجوارب على الأرض! فعاداتي ووساوس النظافة التي أتعامل بها مع جسدي تمنعني من ذلك، ولم أجرب ذلك واعية

أبدًا، ولا يمكن أن يحدث ذلك في أرض الحبس المليئة بكل الأوساخ المرئية وغير المرئية هنا! لن تأخذه معك! ستكونين بجواربك فقط

كان هذا أشدَّ ما لقيت بعد منظر حقيبتني وهي تُقلب وتتناثر أشياءي الخاصة أمامي! هل يتعمدون إذلال الموقوفين؟ وإحراجهم هكذا؟ هل يتعمدون ذلك لغمر الموقوف بتجربة قاسية؟ أم أنهم قساة حقًا ومُتبلدو المشاعر؟

خرجت من غرفة التفتيش عارية من كرامتي وحرיתי وراحتي، رغم أنني مكسوة بالثياب. أخذتني حارسة بدينة وقوية، جذبتني إلى الطريق وصعدنا بالمصعد، كان كفها يحيط بذراعي النحيل ويضغط بشدة.

دعيني! أنت تؤلميني! لم تجدعيني سأكون معك ولن أهرب!

كانت قاسية ومتبلدة، تتجاهل كلامي معها. وصلنا إلى ممر بسقف عال وأعمدة إسمنتية ضخمة صماء عتيقة وبالية، تُطلُّ من جانبه غرف الحبس الموحشة. اتجهنا إلى أقصى حبس في اليسار، أدخلتني في حجرة خالية تمامًا إلا من كرسي دورة مياه متهالك، ومليء بالشروخ الواضحة، وكأنه قد تحطم وأعيد تركيبه من جديد، وشباك يرتفع قرابة ثلاثة أمتار. همت بالخروج.

هل تتركيني هنا؟ سألتها رغم وحشيتها، لكنها أملتني البشري الأخير في هذا الحبس! نعم سأغلق الباب ابتعدني قليلًا، إن احتجت شيئًا اضغطي على الجرس هناك.

أغلقت الباب وأنا في زهول شديد، ما إن استوعبت وحدثي حتى قرعتُ الباب فورًا، وكان سميكا مُبطنًا لا يُحدث قرع عليه أي صوت مسموع، وكان الباب يقول: سأفصلك عن العالم وأنت الآن وحدك ولن يسمعك مخلوق! أنت لا تحدثين أي أثر، لا أحد يشعر بك، أنت لا شيء!

هرعت إلى الجرس وضغطت عليه. لحسن الحظ أن الحارسة ما زالت قريبة وفتحت نافذة الباب الصغيرة جدًا والقريبة من الأرض وقالت: ما الأمر؟

أرجوك لا تتركيني هنا وحدي هل قرعت الجرس من أجل ذلك؟ أرجوك أنا لا أحب البقاء وحدي، المكان موحش! صمتت، وأغلقت نافذة الأمل الصغيرة.

كانت في الحجرة «دكة» إسمنتية ترتفع عن الأرض بمقدار شبر تقريبًا، وعليها إسفنج مكسو بقماش بلاستيكي أزرق نَتِن، وتنبعث منه روائح

الأمونيا والعرق. لا يوجد هنا سوى هذه المرتبة العفنة وكرسي دورة المياه القابع في قلب الحجرة! وليس ثمة أي مصدر للماء! آخر عهد لي بالوقت حين هاتفت أهلي عند الثانية عشرة ظهرًا، حتمًا دخل وقت صلاة الظهر الآن، كيف أتوضأ؟ قرعت الجرس وانتظرت وقتًا أظنه دهرًا، فليست معي أية أداة أحسب بها الوقت. جاءت الحارسة، وكانت بالنسبة لي قبل دخول الحبس وحشًا قاسيًا، أما الآن فرؤيتها تعيد إلي توازني البشري وتؤنس وحدتي.

فضلاً أريد ماء! حسناً!

انتظرت دهرًا آخر، فتحت النافذة الصغيرة وأدخلت كوب الماء، ثم أغلقت النافذة. ماذا عساي أن أفعل بهذا الكوب؟ أشربه أم أتوضأ به؟ توضأت منه وشربت قليلاً ومازال في الكوب ماء! لم أكن أتخيل أن كوبًا واحدًا سيفعل كل ذلك!

احترت هل أصلي على المرتبة، أم على الأرض. اخترت الأرض، فهي وإن كانت سيئة إلا أنها أفضل حالًا من التَّنِّن الفواح من المرتبة، الذي خلفته أجساد من سبقوني في هذا المكان. صليت وجلست بمفردي.

بعد وقت أظنه ساعة فُتِح الباب، وزودتني الشرطية بمفرش خفيف وكأنه غطاء منضدة. أصبح لاحقًا غطاءً لكل شيء، واتخذته حاجزًا بيني وبين كل ما حولي، فصار مجلسي ومصلاي ومنامي وكهفي الذي يحتضني في قسوة الحيرة والعزلة.

لبثت فترة لست أدري كم هي، وكل ما يدور في خلدي أنني لست حرة. فهمت حقًا وللمرة الأولى ماذا تعني الحرية، وأيقنت أنني كنت أعيش حالة ملكية فاخرة من حرية التنقل والسعي والغذاء الفاخر الذي اختاره بنفسه. يا حسرتاه على بيضتي، كم أتمناكما الآن أكثر من أي شيء. أحذق في الجدران، وإذا انتهيت منها تأملت السقف... وهكذا، حتى بدأ النور يتغير في المكان ليصبح مائلًا للبرتقالي، صليت العصر وجلست لا ألوي على شيء.

قبل ساعات عدّة كنت أحادث أهلي وأخواتي، وأخطط للعودة للرياض بسعادة غامرة. الآن أنا هنا، ولا أحد يدري، ولا أستطيع أن أتصل بأحد إطلاقًا. كانت أعظم أمنياتي في تلك اللحظة أن تطل عليّ أمي الأسكتلندية بعينيها الزرقاوين المشعّتين بالحياة من شبك الحبس الصغير لتقول: أنا أعلم أنك هنا، كانت تلك أمنيتي فقط، أعلم أنها لو علمت أنني هنا، ستغضب كثيرًا لما حدث معي، وستكسر رأس كل من يؤذيني. لكن هل تعلم أنني هنا؟

وحدتي وانقطاعي التام عن أي تواصل مع أي مخلوق، وإحساسي بأنه لا أحد يعلم أين أنا الآن كانت تأتي على ما تبقى من تماشك روعي وثهمني، ولولا لطف الله وعنايته كنت فقدت صوابي. فتحت النافذة الصغيرة وأدخل منها صحن مغطي. كشفت الصحن وكان مصنوعًا من رجيع الورق، طبق لم تر مثله عيني قط، أرز قاس نصفه محترق داكن ونصفه شفاف غير مطبوخ جيدًا. حاولت تناوله حتى لا «أدوخ» جوًا، لكن لم أستطع، تركته وأبعدته. رجعت لسكوني وعزلي وتأملي. أتمنى أن أهاتف أحدًا أعرفه، لأخبره عن حالي. يا ترى هل لو علم أبي سيرضي؟ هل سيتركني هنا؟ هل سيعيدني للرياض قسرًا؟ ماذا عن السنوات الثلاث التي قضيتها في الدراسة، هل سأتمكن من العودة للمناقشة، هل ستكون حادثتي تلك فضيحة تلاحقني طوال عمري؟ يا ترى ما الذي يحدث لي الآن؟ وكيف ومتى سأخرج...

ملث بجسدي قليلًا على ملاءتي، أتأمل أشعة الشمس البرتقالية التي تصبغ الحبس وتعبر من النوافذ الشاهقة، اشتعل الحبس باللون الصارخ وغمر المكان بكثافة، كنت أرقب اللون بدهشة، هل الشمس بمقدورها فعل هذا السحر كل يوم؟ صوت العصافير تكاثر وأصبحت القبيلة كلها تتغنى بشكل يثير تأملي وغيرتي في آن واحد، «محظوظة» هي تملك حق التحليق وال الطيران والتواصل مع بعضها البعض، في أي وقت وأي مكان، أليس ذلك قمة المتعة والكرامة والحرية؟ أليست الحرية أثمن ما تملك؟ تمنيت وقتها أني عصفورة، أطلق جناحي وأعود إلى بيتي الآن. كانت النافذة رغم علوها وبُعدها، إلا أنها صلتني الوحيدة بالحياة، أنصت لما أسمع من خارجها، كفقرة أتسامى فيها عن واقعي.. تحوّل اللون من البرتقالي إلى الأرجواني، خفت الضوء وهدأت العصافير، بدأت الدوران والدوران قسرًا وحيدة إلا من عزلي وأفكاري المتداخلة.

حضرت الحارسة ومعها طبيب ليطمئن علي، استبشرت خيرًا بدخوله، فهو من عالم الأحرار ملوك الأرض، وهو طبيب سيقهمني حتمًا بخلاف الشرطة والحرس الذين قطعوا كل أمل ورغبة واحتياج. فور دخوله كنت أفكر باختلاق قصة مهولة ليقرر أن يخرجني من هنا، لكن للأسف كل ما أمكنني قوله هو أنني أشعر بضيق وأن الطعام غير قابل للأكل، خرج... وعدت إلى نفسي مجددًا.

شربت من بقية الماء الذي توضأت به، وكان الكوب الورقي بئر عميقة لا تنضب. حلّ الظلام وبدأت أشعر بالنعاس، هالني صوت صراخ أو أنين أو نداء لم أتبيّن ما هو، صوت يأتي من إحدى غرف الحبس، ثم يليه صوت إغلاق قوي ومجلجل للباب، وكأنه تمت معالجة النزيل ليكف عن الصراخ. استمر هذا

الصوت من مصادر عدة، وكان رغم إثارته الرعب فيّ، إلا أنه يشعّرنني بأن هناك بشراً حولي. اختلطت أصواتهم مع نومي لينتج من ذلك كابوس حقيقي غريب.

أضيت أنوار الحبس القوية، رغم ذلك غرقت في النوم من شدة الإعياء. وأنا التي اعتدت تعتيم الغرفة تمامًا لتكون كعين مغمضة وأنا بداخلها. صحت عليّ كابوس أو ربما حقيقة... تم فتح باب حبسي بقوة، صوت فتحه كانفجار بددّ السكون حولي، وأطلت منه حارسة جسيمة: تعالي معنا. ماذا؟ قومي بسرعة هنالك أجزاء مهم.

يا لفخامة الأسباب، ويا لرفاهية المعرفة. أقاد ولا أدري إلى أين أو لماذا. كم هو إنساني أن تعرف وتختار. أردت خلق تواصل يشعّرنني بإنسانيتي، كم الساعة الآن؟ إنها الثانية صباحًا. كانت الإجابة شافية لاحتياجي للتواصل...

مضيت معها، تجاوزت ممرات لم أرها قبلاً، دخلت حجرة صغيرة غريبة بها كاميرا عتيقة ومصدر ضوء عظيم، تشير إلى جدار أبيض مصبوغ بالمقاسات وعليه مسطرة. أسقط في يدي، هذا جدار تصوير المجرمين! ستؤخذ صورتي وتحفظ في.. في قواعد بيانات الدولة! وسيظهر ذلك في كل مرة أدخل فيها هذه الدولة، وسأكون مُعَرِّفة «كمجرمة»! ماذا عن السنوات التي قضيتها هنا للدراسة؟ ماذا عن حلمي وشهادتي وعلمي؟ كيف تكون هذه النهاية؟

قطعت حيل أفكاري بأوامرها: هيا قفي هنا عند هذه الإشارة، نعم أميلي رأسك قليلاً.

اشتعل نور عظيم أعمايني فلم أعد أرى إلا البياض، تشك... إنها لقطة الخزي.. نعم تم أخذ صورة لي كما يحدث في أفلام الكرتون للمجرمين، من الأمام والجانب. ملأني ذلك بالهوان والألم، وسألت ماذا يعني ذلك، ولماذا تؤخذ صورتي، وبصماتي هنا؟ إنه إجراء روتيني للنزلاء، وهل سيحفظ ذلك في سجلي للأبد؟ لا أدري، هيا إلى الحبس...

كنت أسير والأسئلة تلتهمني، هل هذه نهاية مستقبلي؟ هل بهذه الطريقة تنتهي الأمور؟ كيف أُلِمُّ ما حصل؟ بل كيف أشرح لوالدي أنني لم أخطئ، ودخولي هنا كان سوء فهم، ماذا لو وصل الخبر إلى أهلي ومعارفي؟ كنت أول فتاة تخرج من العائلة للدراسة في الخارج، كسرت كل قواعد المجتمع بخروجي، والآن أعود لهم كمجرمة؟ يا للخسارة.

غرقت في همّي أكثر... ونسيت أنني كنت أسير على الممرات المليئة بالأوساخ والميكروبات بجواربي، هان خطبها عند رزية الصورة...

طلع الصباح وفتح بابي. الفطور! هل أنت نباتية؟ كان أول سؤال يباشر إنسانيتي، ويؤكد احترامي. سعدت جدًا، نعم أنا نباتية. جلست في انتظار الطبق قلم أكل وجبة منذ أكثر من أربع وعشرين ساعة. تخيلت بيضاتي، أحب البيض وأقدره كثيرًا، أعدّه معجزة في خلقه وقوامه وفائدته وطعمه، أو هكذا بدا لي بعد صيام طويل. وصلني طبق به كتلتان داكنتان. تذوّقته، إنه لحم سيئ جدًا. قرعت الجرس، ماذا بك؟ عفوًا طلبت طعامًا نباتيًا، نعم هذا نباتي. هذا لحم! هذا ما طلبت! وأغلقت الباب والحوار والأمل. عدت للطبق وأنا أعلم يقينًا أنه لحم رديء، بابت، أكلت بالقدر الذي أقيم به صلبي. وعدت إلى ملاءتي التي أجلس عليها في انتظار الخروج.

تم إخراجي من الحبس إلى الدور السفلي مع حارسة تمسك بي جيدًا، للتأكد من أنني لن أهرب. وصلت إلى الأسفل، أعطوني حذائي أخيرًا. لم أكن أريد لبسه مع جواربي المتسخة جدًا، لكنني فعلت ذلك. قيّدت يدي بيدها، ومضيينا!

أخذتني إلى سيارة كبيرة لنقل الموقوفين إلى المحكمة. كانت السيارة مقسمة من الداخل إلى خلايا، كل خلية تحيط بها أسوار بلاستيكية عالية، وداخلها مقعد، أدخلوني في الخلية خلف السائق، وأحكموا إغلاقها عليّ. وتتالي دخول المتهمين لخلاياهم. كانت الخلية ضيقة ولكنها فسيحة «جدا» بشباكها المطل على الحياة، أستطيع رؤية السيارات في الأسفل، كنت أغبط كل من رأيته يقود سيارته بجانبي، إنها السابعة والنصف، وقت الذهاب إلى العمل، أتأمل كل من حولي جيدًا، وكأني أمتص طاقة الحياة بالنظر. توقفنا عند إشارة، وبدا أن الشخص الذي يقود السيارة بجانبي بارد ومتملّل، ورددت لو أنني أستطيع إخباره بأنه أسعد أهل الأرض، وأن لا شيء يعدل الحرية.

كان المتهمون الآخرون معي في السيارة يتحدثون مع بعضهم بالصياح، ويعلو صياحهم، فيرفع السائق صوت الراديو، ويرتفع صياحهم ثم يرفع الصوت أكثر، في مهرجان عناد مثير! هنا بدأوا بالضرب، بضرب الجدران ضربات موحدة متتالية، استسلم السائق. لم أشاركهم، لكنني شعرت بسعادة ونصر صغير بفعلهم ذلك، حيّيتهم بابتسامية خجولة بيني وبين نفسي.

نزلنا في المحكمة، وهنا أدخلوني في حبس نسائي. أخذني الفضول لمعرفة تُهم من حولي، وخصوصًا تلك المشاغبة التي كانت تصرخ وتنادي طوال

الليل وفي السيارة، تبينتها من صوتها وثرثرتها المستمرة. ما تهمتك؟ بدا من لهجتها أنها بسيطة، قليلة التعلم، وقالت: كنت في حفلة، وناديت أحدهم: «يا باكي» فأخذتني الشرطة. تعني أنها تعصرت على باكستاني الجنسية ونادته بجنسيته ساخرة منه. وقعت تلك التهمة في نفسي موقعًا عظيمًا، وشعرت بالعدالة وجُرم الكلمات والإيحاءات العنصرية، وإن كانت «نصف» كلمة، ولا يوجد في مبناها أية مشكلة، بل في نية قائلها التي ينطق بها عنصرية وازدراءً..

جلسنا في الحبس المشترك إلى ما شاء الله. ثم جاء دوري، وألبسوني القيد مرة أخرى، كانت الشرطة تقتادني إلى مكتب صغير، وأخبرتني بأنني سأقابل محامية. وبالفعل سألتني المحامية عن تفاصيل قضيتي، وقلت لها تجاوزت السرعة لكن لم أتسَلَّم طلب حضور للمحكمة، لو تسَلَّمته لأتيت فورًا لموعدي.

رجعت للشرطة، ودخلنا في ممرٍ مظلم طويل مؤدِّ لقاعة المحاكمة، وكأنه كواليس مسرح، جلسنا ننتظر، ونصحتني ألا أناقش أو أجادل، وأنه إذا قال القاضي «ديمولش» فيعني ذلك أن قضيتي انتهت. دخلت ووافقت القاضي على كل ما قال، أسرعت وفاتك الموعد في المحكمة... نعم. كنت أريد أن أقول له كما قلت للمحامية، إنني لم أتسَلَّم دعوة للمحكمة وإنني لم أغب تهاونًا، ولكني آثرت الصمت، خشية أن يطول النقاش، وكانت خطتي أنه لو لم تغلق القضية فسأتحدث. بعد كلامٍ كثير أخيرًا قالها القاضي: «ديمولش». هنا لم أصدق، هل يمكنني الخروج حقًا بكامل إرادتي دون قيد؟ هل سيتركونني للأبد؟

تسَلَّمْتُ حقيقتي وأغراضي وأنا غير مصدِّقة بأنني حرة، وأنني سأخرج من هذا المكان وسيدعونني وشأنني! خرجت وأنا أتأمل فسحة المكان الكبيرة حولي، لم يرافقني أحد ولم تُقَيِّد يداي، ولا أحد يكثرث بي. فأنا الآن كائن غير مرئي، بعد أن كُنْتُ تحت الحراسة المشددة. خرجت للنور وكأنني فارقت الشمس وفسحة الحياة أعوامًا، مشيئ في البهو المفتوح في المحكمة. لمحت صديقاتي، ركضت باتجاههن، استقبلنني بالحضن والبكاء. أما أنا فلا أذكر أنني بكيت، كنت مصدومة، ومتعبة، أنتحبت روعي ولكن بلا دموع. وصلت إلى بيتي، بل جنيتي، وأنا حيرانة ومكسورة يثقلني همُّ ما حدث، خشية عواقبه. هل هذه حقًا نهاية رحلتي العلمية؟ حفظت موضوعي سرًّا حتى عن أقرب الناس، وكنت أخشى أن يحدث ما يُكَدِّرُ صفوي وسمعتي، فأنا لم أخرج بعد. لكن قضية مخالفة السرعة انتهت تمامًا. ولم يَبْقَ منها سوى تقديري للحرية ونعمة البيت والأصدقاء والأهل والبيض المسلوق!

(الحالات الثلاث)

ليست القوة في عدم السقوط، بل في أن تحافظ على أمِّك و اتزانك في الأسفل، لتتمكن من الصعود مجددًا

في السنة الثانية من دراسة الدكتوراه كنت قد بدأت في كتابة الأوراق العلمية ونشرها حول ما وجدت من نتائج، وتلك الأوراق هي فصول رسالتي في الدكتوراه. أصل الليل بالنهار والأيام بالأيام حتى أنتهي، أو هكذا ظننت. كأن شعوري بالذنب وأنّ عليّ أن أعمل وأعمل أكثر، يطغى دائمًا، فتحدد وقت للكتابة ثم وقت للراحة المطلقة بلا تفكير أو هموم هو أمر لم أختبره!

وكانت طبيعة التجارب التي أعملها تحثّم عليّ المتابعة والتحسين والمكوث في المكتب إلى ساعات متأخرة من الليل، كان بعضها يستغرق، في حالة نجاحه، أسبوعي عمل! وذلك عن طريق استخدام خوادم الجامعة عالية القوة والسرعة.

اليوم هو يوم مناقشة مارك، مارك «ملك» المحاكاة هكذا كنا نطلق عليه، كونه مرجعًا مهمًا لنا، فهو أقدمنا في المعمل، أمضى في الدراسة خمس سنوات. دخلت المكتب على لغط كبير، فمعظم الزملاء اجتمعوا هنا بعد مناقشة مارك، كل ما رأيته وقتها هو وجه مارك الذي يختلط فيه الحزن بالغضب، بشكل مأساوي، وفهمت بعدها أنه لم يمنح الدرجة ولا أي درجة أخرى أقل منها، وهي أدنى نتيجة من النتائج الخمس المتعارف عليها في كثير من جامعات بريطانيا، والتي تقررها لجنة مناقشة الرسالة. والحالات المحتملة للنتيجة هي، التخرج بلا تعديلات. أي تُسَلَّم الرسالة للجامعة كما هي ويتخرج صاحبها بدرجة الدكتوراه في الفلسفة دون جهود إضافية لتعديل الرسالة، والحالة الثانية هي التخرج «بتعديلات صغرى»، وهي التعديلات التي يمكن عملها في فترة أقصاها شهران إلى ثلاثة، وتكون غالبًا تعديلات شكلية مثل التعديلات في اللغة والصياغة، والحالة الثالثة، التخرج «بتعديلات كبرى» وهي التعديلات التي تمس جوهر وفكر الرسالة، أما الحالة الرابعة فهي إعادة التسليم للحصول على درجة أقل من الدكتوراه، والحالة الخامسة والأخيرة هي الخروج بلا درجة وهي ما حصل لمارك. كان ذلك مؤسفًا ومريعًا للجميع، فكلنا ماضون إلى المناقشة في فترات متقاربة، وحصول ذلك هو علامة تعجب واستفهام كبيرة علينا قههما جيدًا والتعلم منها.

تذكرت ما حصل معي في بداية العمل مع المجموعة، حيث بادرت أحد مشرفي بأسئلة عدّة كانت تحيرني وقتها، وكان يجيب علي بعضها بـ«هكذا نحن نعمل وكافة المجتمع البحثي» وكنت أثق في ذلك وأكف عن السؤال والبحث عن طرق بديلة أكثر ملائمة وراحة لتساؤلاتي المنطقية. بعد حادثة مارك زرت كل ما يمكنني زيارته من استفهاماتي السابقة والتي بنيت عليها الكثير من النتائج وأعدت طرح الأسئلة مرة أخرى، غير أنني أجيب عنها بنفسني هذه المرة! بدا ذلك مرهقًا وصعبًا للغاية، لكن يبدو أنه طريقي الجديد، سيما وأن جاد، زميلنا من نفس المجموعة، والذي لم تبعد مناقشته كثيرًا عن وقت مناقشة مارك، قد تخرّج بتعديلات أساسية! عاد لبلاده دون الشهادة، بل بتعديلات كبرى وسيُعيد المناقشة ربما مرة أخرى!

كان جاد قدوتي في قوته وسعادته، يأتي في أوقات حيرتي وينصحني بطريقة الكتابة الصحيحة، ثم يختم كلامه بثقة وهدوء عجيبين: لا تجعلني أي يوم يمرُّ دون الكتابة. كل يوم صفحة على الأقل وعلى الأكثر، كل يوم صفحة. كانت كلماته تلك تتردد في رأسي مع قرار تعديلاته الكبرى، كيف يمكن أن يحصل ذلك لجاد! جاد الوثاق الماهر الحكيم الناصح! وأين أنا من جاد؟ أمضيت أيامي بعد حادثته وأنا أعيد كتابة الرسالة وأستند على ما نشرته من أوراق علمية سابقًا كمرجع فقط لم أضمنه في الرسالة بل اعتمدت عليه لأكتب فصولًا جديدة بأفكار مختلفة جوهريًا.

في نهاية عامي الثالث، كانت مناقشة بيل. بيل مستشاري الأول وقدوتي في المثابرة والإتقان والثقة والثبات عندما أمر بمشكلة، أو عقدة، وما أكثر ما أقف عنده. أشرع في كتابة رسالة لبيل أشرح فيها الحالة والمعايير والمتغيرات والعلاقات ليأتيني في الغالب الجواب! صياغتي الدقيقة للسؤال بالفعل تقودني للجواب. فإطلاق السؤال مقتضياً سريعاً بعد المشكلة هو خسارة لفرصة التبصر بها وربما فهمها بشكل أفضل. هكذا تعلمت من رسائلي التي كتبتها لبيل ولم أرسلها، أن السؤال الجيد الواضح المرتب يحمل نصف الإجابة، إن لم يكن جُلها.

مناقشة بيل حدث مهم، لأنه كان من ضمن آخر الطلاب الذين سبقوني في مسيرة التخرج، وترتيب تخرجي بعده مباشرة. في مكثبي المشترك ذي الجدران الزجاجية مقابل قاعة الاجتماعات وهي تجدران زجاجية أيضاً لكن مثلجة في المنتصف، فلا يمكن رؤية الوجوه والإيماءات، كنت أعمل ولكن عقلي حقيقة معلق في القاعة المجاورة. زوجته تنتظر في مكتبنا بقلق باء، تبدده بالضحك الصغير على أي شيء قابل للضحك. انتظرنا طويلاً! امتدت

المناقشة لأكثر من ثلاث ساعات. خرج بيل! وجهه واثق كالعادة، هادئ ككل يوم، لكن تبدو عليه ملامح الغضب والاستياء المكتوم.

بيل! مبروك! آه نعم... ماذا بيل؟ بصوت متهدج خفيض لا يكاد يُسمع: لدي تعديلات في جوهر الرسالة! أوه! وكأنه أصابني في مقتل! بيل الخبير المستشار ومعلم الجميع، يتخرج بتعديلات أساسية! ولكن... لا أستطيع أن أكمل عامًا آخر هنا، بعثتي انتهت وعليّ العودة لوطني، فاتفقنا أن تكون الفترة شهرين فقط! هل أنت متأكد من أنك تستطيع فعل ذلك بيل؟ تعديلات أساسية في شهرين؟ سأحاول!

كان هذان الشهران قطعة من الجحيم لبيل، فكنت لا نراه إلا محمرّ العينين من السهر، قليل الكلام، مُتَبَثِّلًا للكتابة والتغيير، لم يكن ليرى ابنه إلا لمامًا عندما يزوره مع زوجته في المكتب يلاطفه قليلا ثم يعود للكتابة. ينام ويصحو في المكتب ليكمل عمله.

أما وضعي الشخصي فكان يوصف بالقلق.. الشديد.. فالنوم بلا نظام، بل أمنية شهية وثمرة محرمة. لم تكن من عاداتي السهر في مراحل حياتي السابقة، مهما كان الضغط في ظروف الدراسة فأني أنام في الليل وأستيقظ قبل الفجر إن احتجت لذلك. كان يمكنني فعل ذلك دائمًا، والتحكم به يسير وسهل. هنا والآن، أسهر إلى طلوع الشمس، أراها فأطمئن وأنام. فقدان روتين النوم، أثر كثيرًا على مستويات الأداء لدي، فكنت أحفر الصخر لأحظى بالتركيز العالي، والدافعية للإنجاز.

■

(أسلحة غريبة، إقْلَقِ لا أعرفه!)

قرارك لِرُقِيَّكَ كل يوم، هو معركة نبيلة، وجهاد مقدس

كانت الحالات الثلاث لمن سبقوني في كتابة الرسالة، كفيّلة بأن تزلزل ثقتي بما أكتب رغم حرصي الشديد على تدعيم كل فكرة بحُجّة، تجربة أو دراسة سابقة. انتهى د. بيل، سلّم رسالته وبقيت مع بقية الطلبة الجدد ممن جاؤوا بعدي في المجموعة ألملم نفسي ورسالتي.

كان الأرق ضيفًا ثقيلًا، يزورني برفقة القلق دائمًا، وبلا دعوة! كان حلمي الوحيد أن أخرج بتعديلات صغرى، وأعمل جاهدة وأبتهل إلى الله لأن أصل لذلك المستوى. أكسر قلقي بالخروج والبقاء في حضان الطبيعة، ومن حسن حظي أن جلاسكو كانت في قلب أجمل بقاع الدنيا. وأكسر قلقي أيضًا بقاء الزميلات اللاتي صنعت الغربة منهن عائلة حميمة، صديقات الغربة هُنَّ أخوات الروح وشقيقات العيش والملح والدموع والبسمات، صديقات على المستوى المباشر والبسيط للروح، دون تكلف أو زخارف اجتماعية، كلنا في قارب الغربة نُرتِّقُ بعضنا البعض ونصعد سويًا.

كلما ضاقت بي الأرض قصدت فسحتها في «لوخ لومند»، ولوخ تعني بحيرة ولومند هو اسمها. ما زالت الأسماء بلغة «الجيليك» (8) شائعة إلى اليوم في اسكتلندا، وما زالت أقلية فيها تجيد التحدث بها إضافة إلى أقلية في أجزاء من كندا. لغة الجيليك تظهر في أسماء بعض الشوارع الرئيسية والمحلات والأودية والجبال، وأهم مَعْلَمين في وسط المدينة هما جادة «بوكانان» الكبرى في وسط المدينة والتي تحيط بجنباتها المحلات التجارية، وتأسست عام 1777م على يد التاجر بوكانان. وتتميز بأنها تنحدر أو ترتفع بحسب مكانك منها، إن وقفت في آخرها رأيت الناس فوقك أفواجًا يسيرون، وإن كنت في أولها تراهم يمشون تحتك زرافات ووحدانًا. المشي في هذه الجادة، وجموع البشر تسيل حولك من كل جانب يشعرك بالأنس، وهو بحد ذاته فعالية جديدة، والمعلم الآخر هو «سينت إينوخ» مجمع تجاري كبير، وحرف الخاء حرف أصيل في لغة الجيليك، والناس هنا ينطقونه جيدًا مثل العرب.

أخذت شطيرتي المغربية المفضلة من قسم الوجبات الجاهزة في «ماركس أند سبنسر» مع صحن فواكه مقطع وجاهز للأكل، وانطلقت بكرتوبة إلى لوخ لومند، كانت نيتي حين شراء تلك السيارة أن أتدرب عليها، فهي «خردة» أو

«درعة» في لهجة نجد، عند ضغطي لدواسة البنزين بالكامل في الطرق السريعة، بالكاد تصل سرعتها إلى منتصف العداد، كنت أتحدّي بها السيارات وأسير بها في كل مكان، لكن إذا بدأت السيارة «بالاستهبال» أو السعال، ألتزم الخط الأيسر للسيارات المتمهلة.

كنت أقصد جدولاً سرّياً جميلاً يصب في «لوخ لومند» تحديداً، في منطقة هادئة تسمى (the cruin). وهي منطقة تملكها إحدى العوائل الأُسكتلندية، وتطل على «بين لوموند» أي جبل لوموند وجزيرة «إنشورين».

يجذب جمال المكان أهل البلد لعمل حفلات الزواج هنالك، وعلى مرساه الأَحاذ الهادئ والخالي من السفن غالباً ما يلتقطون أجمل لقطات العمر. صفحة البحيرة ساكنة كالمرآة تعكس جمال الجبال السوداء المتوّجة بالبياض والثلج، والتي تحيط بها من كل جانب. سكون يجلب طمأنينة الروح ويعيد ترتيب ما تبعثر من مشاعري جراء القلق والإرهاق. أجلس هنا على الأرض أمامي البحيرة وخلفي الأشجار الكثيفة، تكتمل اللوحة بموسيقى الجدول الذي يصب بجانبني ويحتضن بمنعطفاته الماء المنساب برقة فيه. سيمفونية خلابة ومنظر بهيج. يمتلئ صدري بكل ذلك، ليتسرّب من ثقوب عقلي وقلبي كل كدر، يخرج، أراه ينساب مع الجدول ليصبّ في البحيرة، يختفي وأحتفي بخفتي مرة أخرى. أعود لسيارتي بابتسامة امتنان بأن تمكنت من الوصول لهذا المكان والتمتع به وفيه بأمان، متخطية الخطوط السريعة على «كركوبتي» الجميلة.

لم يكن يهمني شروق الشمس في بداية غرّبتني، لكن في آخر عامين بدأت عدوى تحرّي الشمس والتعرض لها كلما أطلت تطالني أيضاً! أصبح الجو الرمادي يصبغ روعي ويتسلل ثقيلًا خافضًا مزاجي ومشتتًا مستقبلات السعادة لديّ بشكل كبير. ربما حصل ذلك مع كثرة الاستماع لشكوى أهل المدينة، لست أدري. في هذا الجو الغائم دومًا والغائم كليًا، كأننا داخل كرة «بنق بونق» نعم كأننا داخل كرة طاولة! وصف دقيق تماهيت معه منذ أن سمعته للمرة الأولى!

أعود للكلية بمبناها الجديد، والذي انتقلت إليه بعد مكتبي في القبو في مبنى الكلية العتيق. مبنى الكلية القديم يمتد على شارع حدائق الزنبق بأبوابه الخشبية التي تفصلها عن الرصيف بضع درجات. رغم أن المبنى بطابقين مع قبو إلا أنه يحوي مصعداً صغيراً باباب أحمر معدني مصمت ومفتاح ذهبي، يُدار المفتاح يدويًا لتشغيل المصعد. تأسست الجامعة في 1451م وتم الانتقال إلى المباني الحالية في القرن السابع عشر، وهي مستعملة إلى الآن

في معظمها، ولكن يُجاور بعضها مبان حديثة مثل مبنى كلية الحاسب. تتجاور المباني القديمة والجديدة باحترام، فالمساح بالقديم مُحَرَّم، والتاريخ مُقدَّر ومحفوظ تمامًا، يتجاور العريق والعصري بشكل مذهش.

هنا أدور بحثًا عن موقف وهيئات أن أجده بجانبها أو بجانب أي كلية أخرى قريبة... فأبدأ رحلة الدوران حينًا والانتظار في السيارة والانشغال بالقراءة أو السماع حينًا آخر، إلى أن أجد موقفًا. فالوقوف بجوار بعض الأرصفة ممنوع، وبعضه بغرامة عالية لا يتحملها جيبى المثلث والمثقوب.

أدخل إلى الكلية حيث مكتبي المشترك مع طلبة دكتوراه آخرين، لكن نادرًا ما نجتمع كلنا في وقت واحد. ولأن ليلى مليء بالأرق فوقيتى يبدأ من العصر إلى منتصف الليل! بعد ذلك أعود إلى بيتي وأحاول النوم، إلا أن رف المواضيع ينكسر، فتسقط دفعة واحدة، «تخبط» راسي، وتدخله عنوة. تنهال مشكلات العالم الموجودة وغير الموجودة، لا هي ساعة استرخاء وتأمل، ولا هي ساعة انفصال ونوم، بين بين، أحتسي الثواني، والدقائق، والساعات، في غيمة الصمت المزعج. أتسلى عني أحيانًا بسماع قناة (BBC4) المبهرة والتي تصل لأعمق نقطة في وجداني وعقلي وتلامس أسئلتي المُلحّة، وتغذي احتياجي الثقافي بكل احترام وبراعة، بل إنها تناقش مواضيع تمسني كعربية مسلمة بكل شفافية ومهنية مثل الحوارات مع العرب والمهاجرين، في شتى المواضيع الكبرى والصغرى، باحتراف كبير تظن معه من قوة الإعداد وحسن العرض والحوار أن المُعد أخذ «الدكتوراه» في الموضوع قبل تداوله على الهواء. أغرق في احترامي لتلك الآلة الإعلامية العظيمة. يحصل ذلك أحيانًا، وأحيانًا يتسلى بي الأرق، أظن أنني أشيخ في حضرته ألف ألف عام. أخشى أن أفقدني في هذا الليل، فأسهره كله، وسُكّر الأرق يُغرقني في يقظة تشبه الحلم، يقظة تتلمّس غيبًا، وتتأمل سماءً تتلامع فيها أسئلة الوجود اللامنتهية. أرقّ في أرقّ وأرهف وأذكي وأضعف حالات الروح. سامرته ليلة، وخربشت حروفي على قميص الليل الصفيق.

يجثو الليل كاكنتاب إكلينيكي حاد

يسدل الأستار عن الدنيا

ويشعل شموع المآسي

في مسرحية سرمدية

وكأنه دهر

بؤرة ألم

وقهر

يكسرك

ويُشعرك باليُتم

يغمرك بنحيب أفكارك

يعزف همومك على مقام الخلود

ثوانيه تشعرك بقله الحيلة والحياة

يبعثرك جدًّا

يتسع القلق

الذي يعبرني نهارًا بخفّة

ليبتليني ليلاً

كبحيرة شاسعة

من الرمال المتحركة

تنبت فيها مخاوف جديدة

أنا لا أعرفها

هي تقول بأنها لي

تبًّا!

تتكاثر كنارٍ في هشيم

تُقنعني بأنها لي

وأنا بريئة منها

فأسأل القلق بإلحاح،

لماذا أنت هنا؟

ولمه لم تزرني في الرياض؟

أتخاف من أبي؟

...

تُنقذني غفوة أسرقها من فم الليل الواسع

تنتشلني من هذه الفعاليات غير المنطقية

يأتي الفجر كحقيقة ساطعة

تخترقنا الشمس

تعزف لحن الشفاء والأمل

يتصاغر الظلام

يختفي

...

يتنفس الصبح في رئتي

وتجري الشمس في دمي

نورًا

ونارًا

يُشعل الحياة

والحب من جديد

هذا القلق هو منتج مصاحب لغربتي، ومصاحب لقلق الحالات الثلاث، الذي بدا شرسًا في آخر عام. في كل مرة أكتشف ما يخفف عني ويكسر دوامة القلق: مثل الخروج للبحيرة، المشي، واستعمال الدراجة، لقاء الصبح والخروج معهم إلى الأماكن المفتوحة والحدائق. كنت أنجح في انتشاري رغم ثقل الأمر، وأصطحبني لتلك الفعاليات المشتتة للقلق، رغمًا عني أحيانًا. درّبني القلق على أن أراقب أفكارني جيدًا، فإن أغراني بالجلوس المستمر والتسوية، أقرر فورًا أن أقف وأخرج وأتنفس، وإن حجب عني أسباب الفرح، فإنني أقتنصها بالأمل والإيجابية والخبرة. هو لا يصمد أمام درّاجتي مثلاً، بل يتلأشى، فأبتسم بعمق الفرح الذي كاد يخفيه عني! زارني القلق قسرًا، لكنني تعرفت معه طوعًا واختيارًا على أصدقاء جدد أحتفظ بهم حتى الآن في خزينة الحياة والفرح، ومن ذلك، صداقة العدسة!

ففي أوقات اعتدال الجو، لما أخرج مشيًا للجامعة أو لأي مشوار آخر أصطحب معي «كاميرتي» الرقمية. هي ثقيلة وجسيمة، لكنني أحب اصطحابها دومًا. أحقق في عدستها وأغرق هناك، وكأنها عين أبصر بها الدنيا، كما أريد! ألعب بالضوء فتمنحني «السحر»! «بكسلات» باهرة تنتظم في تكوين بديع، قصائد لون تتلوها صورة، تزيت على قلبي فأبتسم رضا وتشافي. ما زلت ممتنة لأحد الصحفيين البريطانيين والذي تعلمت معه أصول التصوير كنشاط فني ممتع.

صداقة أخرى اكتشفتها في غربتي أيضًا، التدليك «المساج»! ففي أحد المجمعات التجارية محل بالغ الصغر، عظيم الجدوى، مُدلكة صينية ترتدي زيّ الطبيب، وعلى جدران المحل الضيق تنتشر صور لخرايط الجسد وشروحات بالصينية والإنجليزية لشبكة «الميريديان».

حدثيني عن هذا «التشيئاتسو»؟ حاولت الدردشة معها رغم إنجليزيتها المحدودة، وشرحت لي بلهجة مكسرة بالكاد تُفهم بأنه تدليك يستهدف نقاطًا محددة في الجسم، يتم تحريكها أو الضغط عليها بطريقة معينة فتنتقل منها «تشي» طاقة الحياة المحتجزة أو الحبيسة ويكون الاستشفاء الذاتي. انتهيت من الجلسة وشعرت بأنني أملك أجنحة وأنني أطيّر. كنت خفيفة تساقط عن كاهلي كل قلق وانزعاج! وصار بعدها «التشيئاتسو» سلاحًا جديدًا في خزينتي ضد القلق.



■

(تسألني البُحيرة: ماذا بعد الموت؟!)

مذهلٌ هذا الدهول عن الحقيقة المطلقة.. عن الخلود.. والغرق في اللعب القصير جدًا جدًا

إنه يوم الجمعة، وهو حقيقة يوم كأيّ يوم عمل آخر، وخصوصًا في عامي الأخير، فنهايات الأسبوع تشبه بداياته. أقضيها في المكتب معظم الوقت. إلا إن كانت هناك مشاريع للتنزه مع ضيوف قدموا من السعودية أو مع الزميلات في المدينة. زارتنى إيما في تلك الجمعة، وكنت قد قابلتها في دورة الاختراق الأخلاقي المقامة في بيدفورد شاير، قرب كيمبردج. كنا 16 متدريًا من مختلف أنحاء العالم. خلقت تلك الدورة صلات قوية بيننا، ربما لأننا كنا أنا وهي الفتاتين الوحيدتين ضمن المتدربين. كان سهلاً التواصل مع إيما، فهي منفتحة عاشت نصف حياتها في ألaska، في مزرعة شاسعة، في عائلة تقنات من الزراعة والصيد. ثم انتقلت للعيش بعد ذلك في ليفربول مع زوجها. عندما تحكي عن حياتها في ألaska أشعر بذرات الغبار الذهبية تتطاير من كلماتها، وكأنها أسطورة.

إيما لدينا ٤ ساعات إلى وقت قطار العودة، ما رأيك أن نتغدى في «لوخ لومند»؟ فكرة جميلة!

السماء غائمة جزئيًا، والشمس تطل بحياء بين الفينة والأخرى، وهذا أفضل ما يمكن تمنيه منها. ركبنا كركوبة، وهي فوكسل كورسا 97، عتيقة صغيرة وقوية، لكنها تخذلني ببطئها الشديد في الطرق السريعة. أخذنا طريق «قرية ويسترن رود» (Great western road) وهو يمتد من الحارة التي يقع فيها بيتي إلى المدينة الخلابية، «إنفرنيس» (Inverness) شمال سكوتلاندا. هو ثاني أطول طريق في أسكوتلاندا، ومن أجمل الطرق التي سلكتها في حياتي، يربطني بجنة الله في الأرض.

وصلنا إلى البحيرة في أقل من ساعة، في مكان تعرفت عليه وصرت أختبئ في جيبه، كحصن بهيّ يحمي من سهام الضغوط والقلق. أظهر فيه وبه، وأعود بخفة دائمًا. يظل على البحيرة الأثيرة مطعم صغير وجسر خشبي يخترقها إلى قلب البحيرة، هو مرسى لكن بلا قوارب، فأصبح مقصدًا للعرائس لأخذ أجمل لقطات العمر، وفي المطعم تستمر مراسم حفلات الزواج التي نادرًا ما يخلو منها المكان. من المراسم أن يرتدي رجالهم «الكِئت»

الأسكتلاندي أو كما تسميه صديقة مشاغبة «التنورة»، ونساؤهم يرتدين فساتين الفرح الزاهية وقبعات بديعة عجيبة مُبهجة ملونة بلون يتسق مع الفستان في عرض أزياء مثالي.

تجاوزنا المطعم إلى مكان نزل فيه إلى شاطئ البحيرة، التي بدت كمرآة شاسعة باذخة تعكس بهدوء صورة الجبال التي تحيط بها كَسِوَار. اتخذنا مكانًا على الشاطئ، لنأكل شطائرنا بجانب الجدول الرقراق الذي يجري بجانبنا ويصب في البحيرة. لَقْنَا المكان بحسنه ووداعته... ذلك السكون أثار لدي فكرة الحياة بعد الموت، التي تغمرني دائمًا بالأسئلة، فتارةً أشعر بها تشتعل في داخلي ولا أعرف لها جوابًا فأتجاهلها، وكأن شيئًا لم يكن، لكنني أشعر بأن شيئًا منطفئًا وباردًا «يتقرقع» في داخلي وكأنني أحمل قتيلاً أتُنقل به أينما ذهبت، وأنا أشتعل بحرارة ذلك كله ويغشاني زمهريره القارس في أن واحد. مَرَزْتُ صدفةً على كتاب لتجربة مقارنة الموت (NDE)، أدهشني ولمَسَّ أعماقي بكل براعة. انسكبت بعدها أدرس عشرات التجارب في فضول جامح، أدون كل الحقائق والحكايات التي وسَّعت أفقي وأضافت لما أعلم أبعادًا لم تكن موجودة. أحييت في الميت البارد، وأطفأت ملايين الحروب التي قامت، وأشعلت ألف ألف قنديل في روعي وعقلي. يا للصدفة التي غيرتني كُليَّة!

وطنَّ نفسي مع الغرباء وجلَّ من أخالطهم على ألا أتطرق في حديثي معهم للدين، والسياسة؛ لأنها قد تثير العواطف أو تؤجج الآراء التي ستظل مختلفة أبدًا، أو تخذل من أمامي وتخرجه، بشكل لا يمكن تداركه. لكن إيما..؟ أثق في انفتاحها لكل الأفكار والأسئلة والجنون، سألتها أخيرًا.

إيما، هل تسمحين بسؤال «غريب»؟ بالطبعما الذي تظنينه سيحصل بعد أن نموت؟ بلا تفكير وبسرعة: لا شيء، سنكون لا شيء، «بفففف» وأشارت بيدها إشارة تدل على الانفجار والتلاشي، ثم أكملت حفر الرمل بيديها. وماذا لو كانت حكاية البعث حقيقية؟ وأن هناك جنة ونارا؟ بلا مبالاة: لا يوجد دليل محسوس أو من به يدل على ذلكامممم، إيما، إن الأمر على حالتين فقط لا ثالث لهما، إما بعث أو لا بعث صحيح؟ نعم.. وإيماننا له حالتان أيضًا، أن نؤمن بالبعث ونستعد له أو لا نؤمن. قالت بصوت مستدرك خفيض متسائل.. نعم؟ ولكن أرجوك لا أريد أن أسمع خطبة دينية... لا أحب ذلك... لا ليست خطبة.. تماسكي معي قليلًا.. أجيبيني فضلًا.. كم حالة لدينا الآن؟ قالت بانزعاج وضحكة حبيسة: تَبَّا هذا يذكّرني بجداول الصواب

بالضبط.. لنرسمه هنا على الرمل لمزيد من المرح

الإيمان بعن		الخسارة
نعم	نعم	صفر
نعم	لا	100%
لا	نعم	صفر
لا	لا	صفر

انتهيت من رسم الجدول وابتسمت «مع نفسي» لهذا المجهود الذي ظننته كافيًا لبيان وجهة نظري.

بادرتني وهي تبتسم بسخرية صغيرة، ما الخسارة؟ هنا إيمان، الخسارة في حالة واحدة فقط، في الصف الثاني وهي بتحقيق البعث مع عدم تحقق الإيمان به والاستعداد له، وفي بقية الحالات لا توجد أي خسارة. نظرت مليًا في الجدول وقالت: الصف الثالث أيضًا بالنسبة لي خسارة، أن أؤمن بالبعث ثم لا يوجد بعث، تلك خديعة وخسارة كبيرة، فلدي حياة واحدة فقط! صحيح، لكن أي الخسارتين أكبر؟ تتأمل الجدول بصمت... أظن الخسارة مع عدم الإيمان في الصف الثاني أكبر وأعظم من خسارة الصف الثالث، خصوصًا أن الإيمان بالبعث يتضمن منظومة متكاملة من السلام والأفكار والسلوكات الخيرة والتي هي من صميم مبادئ الخير والفضيلة المتفق عليها إنسانيًا... رفعت حاجبيها وهزت رأسها بالنفي، وابتسمت بسخرية، لأكون صريحة أنا لا أؤمن بوجود إله، فضلًا عن إله واحد متشكل في ثلاثة، وأن كل واحد من الثلاثة هو إله! يحيرني ذلك، وقررت البعد عن هذا العالم الذي بالكاد أفهمه، التدين بسبب لي صداعًا أفهمك.. لكن بعيدًا عن كل شيء اسمحي لي أن أشاركك ما أعتقد، أنا أؤمن بأن روحي خالدة، تسكن جسدي القاني، مؤقتًا. وبأن الله وحده، هو إلهي وخالقي وخالق الكون! أستشعر حبه، وأحسن للأرض ولخلقه كأني أراه، أظهر قلبي لبليق بقاء وجهه الأعظم، فذلك طريق النعيم لروحي... ومع ذلك اليقين، أنا لا أدعي أنني أعرف الحقيقة المطلقة أنا أبحث عنها دائمًا وأسأل الله دائمًا أن يريني الحق حقًا

ويزقني اتباعه... والباطل باطلا ويزقني اجتنابه... فما زلت أجهل الكثير
وأتوق للقرب منه أكثر... انتبهت لاستطراذي وحماسي... وتوقفت.....
صمت... نظرت إليّ ثم نظرت إلى البحيرة نظرة طويلة... أظن أنه حان وقت
رحلتي... هيا بنا..

(المنعطف الأخير، 25 مايو 2011)

لا أؤمن بالخرافة، لكني أؤمن بالبركة والتوفيق، والفأل الحسن

سَلَّطَنِي عبارة «الرسالة المثالية، هي رسالة لم تُسَلَّم بعد» وقررت أن أسلم الرسالة أخيراً! بعد أن كنت غارقة في تحسين رسالتي حتى ظننت أنني لن أستطيع تسليمها، فكلما مررت عليها وجدت ما يمكنني تحسينه!

«أنت لن تخلقي ذرة، ولن تحلي مشكلة العالم، الدكتوراه تمرين للبحث العلمي، وإن تخرجت فيمكنك حل مشكلات العالم إن أردت» قالها لي أحد أساتذتي في المملكة بداية رحلة الدكتوراه، عندما قلت له إنني أود حل مشكلة مميزة، وأطمح بأن تكون رسالتي مرجعاً عالمياً فائقاً. أه أظنني على الأقل ابتكرت خوارزمية تخدم بروتوكولات البث اللاسلكي، وطبقتها في شبكات السيارات. «البث المحكوم بالعداد الديناميكي، للشبكات المتنقلة واللاسلكية»، تم تسليم الرسالة للمطابع، وحصلت علي نسخ أولية سلمتها إلى مكتب الدراسات العليا، وتسلَّمْتُ الوصل، وصل الحرية والخفة والحياة، وكان حملاً كبيراً أثقل كاهلي مدة أربع سنوات قد أزيح أخيراً.

عُدت إلى الرياض بداية أبريل لانتظار تحديد موعد المناقشة. كان الوقت بطيئاً جداً، مرت ستة أسابيع ولم أحصل على أي رسالة من القسم. كانت تلك فترة تأمل ودعاء أن يحفني التوفيق لأعود إلى وطني وقد تخرجت. وصلتني الرسالة المنتظرة بأسماء المناقشين، وتاريخ المناقشة. منذ ذلك الوقت وأنا أدرس سيرتهما الذاتية، أحدهما عميد كلية الحاسب في جامعة في إنجلترا، والآخر بروفيسور في تخصص الحاسب والرياضيات في جامعتي نفسها. وجدت الكثير من المواد والمقابلات التي ساعدتني على فهم أسلوب الأول. أما الآخر فلم أجد له سوى الأوراق والكتب وموقع الجامعة.

مايو شهر تكون فيه جلاسكو في قمة ربيعها وجمالها وأناقته الباذخة، إذ تُحْتَالُ بأشجار زهرة الكرز، البيضاء والزهرية والتي تبدأ مهرجانها بحسب الموسم، بداية من أبريل. تمتد في الحدائق والطرق كأنها مظلة من الجنة تتفرع أغصانها الممتدة لتظلك ببتلاتها المتطايرة البالغة الدقة والنعومة، عندما تمر من تحتها تحتفي بك في مهرجان يخصك وحدك، تُشعرك بأنك سلطانها الذي تُنعم عليه بجمالها وبتلاتها المنثورة في الأرض والسابحة حولك في الهواء في آخر موسمها القصير. مايو شهر تكتسي فيه الأرض والأشجار بالزهر الملون. شهر يمتد فيه النهار محتلاً مساحات أوسع من

اليوم، بعد ليالي الشتاء المظلمة الطويلة جدًا. ترى الناس منتشرين كالزهر وفي كل بقعة تحضراء يجلسون و«يتشمسون» بملابسهم الخفيفة الملونة الزاهية.

تعرفت على الفصول في الكتب والأفلام، درستها نظريًا، لكني وعيتها حقًا لما عشتها. مايو، الربيع الذي قدّرته وأصبحت أتطلع إليه من بين الفصول. فالربيع ضحكة الشتاء يبدد صمته القارس، وتاج الصيف الباذخ وابتسامة الخريف الندية المقبلة على الحياة. تعلمت من الربيع أن الجمال الآسر يسحرنا ويمتعنا لكنه قصير لا يدوم. شجرة أزهار الكرز، معلمتي الأولى، تحتفل وتزهر وتبدو بكامل أناقتها، تُهدي العالم أرقّ الزهرات وأبدعها تشكيلاً ونظمًا، بضعة أيام ثم يتساقط كل الزهر، ويموت، لتُمضي الصيف كله برداء أخضر ناصع يمنحنا الظل بسخاء، ثم تتلون الأوراق الخضراء وتتبيّس وتسقط عنها في الخريف لتمضي الشتاء كله بلا ورق، فقط جذوع خشبية قوية نفقت عنها النعومة والجمال لتتلقى الصقيع والثلج والرياح بكامل الصبر والصمت والتقشف والثبات، كما أفعل الآن في شتاء غربتي، ثم يحين الربيع أخرى وتصنع الأشجار الزهرات الرقيقة باذخة الجمال بسخاء ورخاء وكأنها تصنعها لأول مرة، تصنعها وكأنها أغنية العالم البديعة وموسيقى الحياة... ما أبهاك وأجملك وأقواك وما أعظم من صنعك وأبدعك، وزرع حبك في قلبي فأتماهى معك كأنك أنا وكأنني أنت.

طرت في ٢٢ مايو، توقفنا في المحطة الأولى، دبي ثم الثانية لندن، في طريقنا إلى جلاسكو، أعلن الطيار أنه علينا التوقف في محطة بديلة في إنجلترا، إذ إن سماء أسكوتلاندا تأثرت بالرماد البركاني الممتد والمتطائر من بركان ثار في آيسلاندا شمال الكرة الأرضية، والعجيب أن هذا البركان نفث رماده على الأرض البريطانية، جنوبًا، ولكنه غصّ الطرف عن آيسلاندا والتي استمر فيها الطيران الداخلي دون أن يتأثر!

نزلنا في مانشستر وأخذنا حقائبنا، وانتظرنا تنظيم مواصلات بديلة. ثم بعد ساعات عدّة ركبنا الحافلة. كانت رحلة الحافلة طويلة ومرهقة. الحافلة دافئة، بل ساخنة، وتسير ببطء للحد الذي يجلب الدوار وكأن دقائقها سنوات، بالكاد وصلت قبل يوم المناقشة. توجهت إلى الجامعة فور وصولي، وجلست في كافة مقاعد وزوايا قاعة المناقشة، اخترت مكاني المفضل، تأملت المناقشة وتخيلت أنني سأخرج. في يوم المناقشة الفعلي، طلبوا مني الجلوس في المكان الذي رأوه مناسبًا، وصلت جهازي بالعارض الضوئي، وبدأت بالشرح. بعد ذلك، بدأ نقر الرسالة واختبارها واختباري بالمناقشة.

«في المناقشة أنت تختبئين في الحصن -الرسالة- والتي بَيَّتها حجرًا حجرًا للاحتماء من رمي المناقشين، الذي يُنقَّبُ عن أي ضعف في المبنى أو المعنى، ويكشف الأفكار الناشزة بلا مرساة، أو تبرير. وعليك تزويد نفسك بقذائف مضادة أيضًا، فلا تكفي قوة المبنى لو فقدت تقنيات الدفاع، من أجوبة صادقة منطقية مفعمة بالبرهان والأسلوب الجيد، وحسن التصرف مع مختلف الأسئلة، حتى تلك التي لا تعرفين إجاباتها المباشرة». كان ذلك تشبيهاً بليغاً علّمني إياه مشرفي الأسكتلندي. نستأذنك، يمكنك الآن الخروج، لإكمال أعمال اللجنة.

خرجت ببطء وانتظرت في مكثبي مقابل قاعة المناقشة، كان جلوسي في مكثبي لا يشبه أي شيء سابق. أجلس على مقعدي الآن وأنا أنتظر نتيجة أربع سنوات من الجلوس على المقعد نفسه للعمل، المكتب الذي صنعت فيه تجاربي وكتبت فيه رسالتي، مكثبي الذي شهد ليالي العمل الطويلة، ونهارات الكتابة المتصلة، مكثبي الذي صار بيتي ومتجري وتسلّيتي وملجئي الآمن في ليالي الغربة الطويلة.

انتظرت وأنا أتأمل كل ما مضى وكل ما حولي. لعبت الأفكار في عقلي «جمباز»، مرّت بي الحالات الثلاث، أسرع نبضي وازداد قلقي. قل أعجبتمهم رسالتي؟ هل دافعت عنها وناقشت بشكل جيد ومرّض لهم؟ هل رسالتي مكتملة و«مفلسفة» إلى الحد الذي أحصل فيه على تعديلات صغرى فقط؟ ماذا لو عدت إلى وطني دون درجة؟ يا رب كل شيء، أتوسلك للحصول على تعديلات صغرى، لا شيء أرجوه في هذه اللحظة سواها، كان ذلك دعائي وهدفي وأقصى آميائي الجشعة. كسر أفكار البروفسور المناقش، نادائي، اقتربت ومشيت معه، التفت إليّ وأشار بإبهامة بصمت، أن أحسنت صنعًا! كانت تلك أول إشارة إيجابية من العالم البشري الحقيقي الملموس حول ما صنعت في رسالتي. أسعدتني ولكني ما زلت أحمل قلقًا هائلًا من المجهول. جلست في مكاني وأنا غارقة في أفكار وفي ما سيقوله المناقش.

سارة كان سير المناقشة جيدًا، ونقترح عليك رفع خوارزمية التواصل اللاسلكي التي قدمتها كبروتوكول للإنترنت (RFC).

افتتاحية كلامه مطمئنة، فكرته لم تخطر بخلدني، شكرته على اقتراحه. «ونبارك لك جهودك في الرسالة، ويسعدنا إبلاغك بقبولها دون شرط أو تغيير». كانت كلمته الأخيرة تحتاج إلى مترجم رغم أنني فهمتها، لكنني لم أصدق، كان الخبر سعيدًا جدًّا، وأكثر مما طلبت أو تخيلت. هل حقًا يقصدون تعديلات؟ أم أنه يقصد تعديلات صغرى سيسير إليها؟ هل من المعقول

أنني سأفصل عن ابني وأسلمه نهائيًا هكذا إلى المكتبة؟ تخرجت بلا تعديلات؟ كل ذلك دار في عقلي وأنا أشكر المناقشين وأتوجه للخارج، اتصلت بوالدي، الحمد لله، تخرجت دون تعديلات! منحني الله شيئًا أكبر مما طلبت أو تخيلت، فقد ابتهلت إليه طيلة الأشهر السابقة أن أخرج بتعديلات صغرى، كان هذا غاية مناي.

منذ تلك اللحظة اختلفت مشاعري، بعدما كانت منسوجةً بالهمم والقلق والانشغال في إكمال الرسالة والاستعداد للمناقشة، استحالت إلى شعور بالحرية والكرامة والفخر. نعم فهذه الفتاة «البتيت» المحجبة الهادئة الملتصقة 24/7 بجهازها قد مُنحت الدرجة بلا شروط!

مسحت فرحتي تلك كل مشاعر الألم وليالي الأرق. غاب جُلُّ ذلك «فورًا» بفرحة الإتمام. تذكرت -مع فارق التشبيه- عندما يقال لأشد أهل الجنة بؤسًا في الدنيا: «يا ابن آدم هل رأيت بؤسًا قط هل مرَّ بك شدة قط فيقول لا والله يارب ما مرَّ بي بؤس قط ولا رأيت شدة قط». جربت صورة من ذلك الشعور الآن وتعلمت أن كل ألم يزول بالوصول.

وزَّعتُ الشوكولا الفاخرة، التي أحضرتها لمكتبي صديقتي بكرم بالغ، لكل من في المكتب والدور والمبنى، وزَّعت لكل من ساعدني يومًا أو مرَّ بي وشكل جزءًا من تجربتي. قدمت لباتريك مدير تقنية المعلومات، مرجعي لكل شأن تقني في الجامعة، يتجاوب بكل احترافية وسرعة على طلباتي لخوادم الجامعة لحجزها والدخول عليها والحصول على إحصاءاتها. مررت بأشرف البروفسور اليهودي البار، والذي عاتبني مرة أنني أكلت طعامًا هنديًا في بهو المكاتب المجاور للمطبخ، و«خيَّست» المكان. كانت عيناى تغرقان بالدمع من حرارة الأكل المفاجئة، والذي اضطررت لإكماله لجوعي الشديد، ولعدم وجود بديل، وجاءت تلك «الهوشة» فلست أدري من حرَّ أي الأمرين أضيَّق.

مررت بنيكولاس، صاحب المشاريع الرائعة، والذي لم يقبل طلبي بداية وصولي للجامعة في الانضمام إلي مجموعته بسبب النظام، والتي تابعتها بشغف إلى أن تخرجت، وعلمني أن ليس كل ما نريد نحصل عليه. مررت على مشرفي، واعترفت لهما بفضلهما علي بعد الله. فهما أكثر اثنين تعلمت منهما وعملت معهما واجتمعت بهما في الجامعة، بل في بريطانيا كلها. أتيتهم نكرة في البحث العلمي، وخرجت ولي اسمي ومكاني في المجتمع البحثي. مررت على أميليا، سكرتيرة القسم وهي من ساعدتني في كل شأن إداري احتجته، وكانت اليد السحرية التي تحرك وتوفر كل ما احتجته في الكلية، لم يكن يقف أمامها أي شأن، ولديها لكل شيء حل. مررت على بزوفسور جيكوب

الأمريكي اللطيف، الهادئ، سَمْتًا وتعليقًا، تكلل وجهه لحية بيضاء كثَّة، طالما أسعدتني طريقة تناوله للمواضيع ونقده الذكي اللين الصريح والبسيط والعميق، في محاضراتنا الأسبوعية، تشربت طريقته وتعلمت منه الكثير. مررت على د. أوليفر، صاحب الوجه الدائري، والذي ينتفخ ويحمرُّ عندما يحاول شرح ما يراه خطأ في العرض، ويتحدث بصوت مكبوت خفيض وكأن عروقه ستتقطع من شدة الغضب في بعض الأحيان ومع بعض الطلبة. الجميع يحكي عن عنصريته، ولكنني تعلمت منه فضل الحلم والتأني والسماحة والانفتاح. مررت بالجميع، بكل امتنان أن كانوا جزءًا من رحلتي تلك. والحمد لله.

(وداعًا جلاسكو - 2011)

ستصلُ حتمًا.. لكن عليك أن تخطو كل يوم خطوة تقربك للهدف

بعد إتمام المناقشة، فرحت كون رسالتي قُبلت دون تعديلات، لكنني اضطررت لاختزال وداع بيتي ومدينتي في أقل من 15 يومًا، شاملة حضور معسكر برمجة الطائرات دون طيار في ألمانيا. قبل ذهابي لألمانيا كنت قلقة بشأن اللغة، فبرغم سؤالي عن اللغة وإفادتهم بأن اللغة المستخدمة في المعسكر هي الإنجليزية إلا أنني كنت قلقة بشأن أي صعوبات في التواصل بسببها أو بسبب الصورة النمطية عن الألمان عمومًا، والتي تشكلت مع تجارب السياح سابقًا.

في اليوم الأول، وعند صلاة الظهر، أبدت رغبتني في الصلاة وسمع بذلك القدير التنفيذي للمعسكر، ووفّر لي بنفسه مكتبًا خاصًا لكل أيام المعسكر وبكل كرم، وكتب ملاحظة بالألمانية وعلقها على باب المكتب، فضلًا هدوء، شخص يصلي هنا، ووجه مبتسم. حفرت تلك الرسالة في عقلي إلى اليوم. البروفسور المسؤول عن المعسكر كان لطيفًا جدًا، وكان مسؤولًا عن المعسكر علميًا وثقافيًا وحتى عن المواصلات!

فهمت بعدها أن بيئة الجامعة تختلف عن بيئة الشارع، فهي غالبًا تضم العلماء المتصفين بالتجرد والحياد والتواضع، وهم يختلفون عما يُشاع عن الألمان عمومًا من صورة نمطية تصفهم بالصرامة، والشدة، والأنفة التي قد تميل للعنصرية، كل ذلك ليس موجودًا هنا.

عدت لشقتي، وبدأت ماراثون إقفال الشقة وتصريف كل ما فيها في يوم واحد، كانت مهمة مرهقة قلبيًا. رغم سعادتي الكبيرة بانتهائي إلا أن لغة مشتركة جمعت بيننا تجعل مهمة الرحيل تأملية بامتياز. شقتي في الدور الثالث والأعلى في عمارة في حي «هيوندن قاردنز» (Hughenden Gardens) حي وادع تلقه الخدائق، يسكنه الكبار في السن والمتقاعدون. ما زلت أذكر لحظات اختيار الشقة والمعايير الكثيرة التي يضعها والدي، إلى أن وصلنا لهذه الزهرة الصغيرة في بستان المدينة الخضراء جلاسكو.

في شقتي باحة صغيرة دائرية تحيط بها النوافذ الكبيرة والتي تمتد للسقف. تكون الباحة مضيئة بنور القمر إذا كانت السماء صافية. وسط هذه الباحة أريكة بيضاء تطل على النوافذ الشاهقة كشاهد على كل شيء. شهدت

أصدقائي وأهلي من السعودية، عندما يحضرون وأتناول وجودهم عليها
كتحف تأدرة وكفراشات سعادة وكفرصة للضحك والمرح. كنت أجلس هنا مع
صديقة اكتشفت معها برنامج «أرب قوت تالنت». أعدّ طبق الفواكه، وهي
تُحضر مفرحاتها وحلوياتها، ساخرة من كل فواكه «الصحية». ننتظره بלהفة
ونتابعه بشغف، وكأنه بيتنا العربي في الغربة، وكأنه الأهل والدفء والانتماء.
كانت تلك أول وآخر مرة أتابع فيها برنامجًا تلفزيونيًا.

أريكتي هذه صحبتني في متابعة السماء والسحب الكثيفة في ليالي الأرق
الطويلة. كنت أجلس عليها أرقب مرور عربة رأس السنة بكامل زينتها تعزف
موسيقى الاحتفال، تمر بشوارع الحارة الملفوفة حول التلال والأشجار،
تسلي العالقين على رف الوحدة في ليلة الميلاد مثلي، فيأنسون. أجلس عليها
بحضرة من أحب من أهلي افتراضيًا على «سكايب» أجلبهم معي، وأرفع
صوت الحاسب المحمول، أهرب بهم الغربة وأخبر مدينتي بل الجزيرة
البريطانية أن أهلي هنا ومعني. كركوبتي الوفيّة بعثها في ليلة، بثمن بخس
حتى أخلي مسؤوليتي منها بأسرع وقت قبل رحيلي. ملابسي الشتوية
الكثيرة وملابس الحجاب، كلها كانت لا تصلح إلا لتلك الفترة ولتلك الظروف،
أوصلتها إلى مكتب تبرعات. إقفال الفواتير والمتعلقات المالية، وتسليم الشقة
وللملة نفسي للعودة نهائيًا كان غريبًا بعض الشيء. وكأنني أشهد فيلمًا
يركض فيه البطل ويركض... بعد خروجي من جلاسكو. لم أطق العودة إليها
مجددًا، كنت «أهرب» منها. إلى أن تصالحت مع فكرة زيارتها مرة أخرى،
وعدت بالفعل بعد أربع سنوات لحضور مراسم حفل التخرج التي فاتتني
بسبب توقيت المناقشة حيث تزامن مع الحفل. من محاسن حفل التخرج أننا
يمكن أن نحضره في أي وقت. كنا في قاعة التخرج العتيقة نصطف في غرفة
للانتظار نحن خريجي الدكتوراه، ولم أتبيّن أيًا منهم، لكن أحدهم سلّم عليّ
بقوله، أهلاً، أنت التي تخرجت دون تعديلات؟ فاجأني كونه يعرفني ولا
أعرفه، ثم أكمل كلامه، رسالتك كانت «بايبل» نرجع له كل مرة ونبني عليه
رسائلنا، لقد بدأت الدكتوراه عندما قاربت أنت على الانتهاء. كلماته ذكرتني
بدايتي هنا صغيرة، قلقة، واليوم في طليعة المكرمين، لأعلى درجة دراسية
أكاديمية، ورسالتي مرجع للكثيرين. كنت أول شخص يتسلّم الوثيقة في
الحفل بأكمله، من مختلف الكليات والدرجات العلمية. شعوري بالجدل لا
يوصف وأنا أدخل قاعة التخرج ووالدي وأمي الأسكتلندية في طليعة
الحضور لتشجيعي.

(في الرياض: أشعرُ بالغبرة!)

أَبْسَلُ المعارك، تلك التي تخوضها وحدك في مسرحك الصغير، أنت جمهورك،
والخصم والحكم

قبل مجيئي إلى جلاسكو، كنت غارقة في أكوامٍ من الأسئلة عن حياتي كيف
ستكون وكيف سأدرس وأعيش، كانت رحلة محفوفة بالمجهول والكثير من
الأسئلة بلا إجابات. والآن بعد عودتي للرياض أشعر بالغبرة لكن دون أسئلة.
فجّل صديقاتي انشغلن بإدارة أسرهن وغرقن في ذلك، والجزء الآخر يكمل
دراسته ولم يقد بعد. صادف وقت عودتي تغيرات عائلية كبيرة منها الانتقال
لمنزل جديد، أخذوني من المطار إلى البيت المقترح مباشرة، فكان القرار
معلقًا بموافقتي. نظرت في خرائط «قوقل» فإذا هو خارج العمران مقارنة
بمنزلي الذي كبرت فيه شمال شارع التحلية في العليا وسط المدينة. راعني
ذلك، بعدها علمت أن حي «الياسمين» سيكون من الأحياء الحية وسيمتد
العمران «سريعًا» إليه وإلى ما بعده. ثم إن مستقبل وسط المدينة، العليا،
سيكون مكتظًا بالأعمال والشركات، وسيكون الدخول إليه والخروج منه
صعبًا. كما أن هذا البيت قريب جدًا من المطار، قريب جدًا من «المخرج» كلما
احتجت للتنفس. وافقت واستبشرت خيرًا بتلك الخطوة، وابتعنا البيت. كان
الانتقال سريعًا جدًا، قامت به والدتي بكل اقتدار في أسبوع واحد فقط.
الجميع يساعد لكنها مديرة مشروع النقل الجبارة. بيت طفولتي الذي ولدت
فيه هو معني البيت لدي، وهو مغروس في لا وعيي، كل حفلات ميلادي
وتخرجي وأفراحي كانت فيه وهو حاضر في مشاهد أحلامي حتى اليوم.
تأقلمنا جميعًا مع البيت الجديد، وحشرت نفسي في حجرة بعد أن كنت
أسكن في جناح كامل، غرفة مكتب وغرفة نوم وصالة مكتبة، كذلك في
غربتي كنت أسكن شقة فسيحة أقسم حاجياتي في أنحاءها. هنا وفي هذا
البيت تعلمت فنّ اختزال كل ما أملك و«أحتاج» في حجرة واحدة. اختلفت
مكتبتي الورقية الكبيرة مع الأثاث المنقول، كنت أحبها وأراها مرآة لثقافتني،
وكان مؤلفوها أصدقاء أوفياء ونبلاء، عرفت بعضهم منذ الطفولة، بالغوا في
منحي الإثارة والنور والإلهام، الذي أستقبله منهم بكل حب واحترام. تلك
حادثة تغاضيت عنها في غمزة طموحي لرقمنة كتبي واختصار أجسام ما
أملك للحد الأدنى، وكان ذلك أيضًا تهذيبيًا قسرًا لأي نية أو شهوة للزهو
والمباهاة بشكل مكتبتي العظيم، فالمهم هو ما في داخل رأسي في النهاية!

أعترف بأنني بعد غربتي اختلفت تمامًا، زاد انضباطي وحس المسؤولية بت
أرغب في إتمام كل شؤوني بنفسي كما اعتدت. وصرت أرى ما حولي بعينين
جدينتين، الرخاء، الوقت، الأهل، وأيضا المغتربون. أصبحت أملك تجاههم
مشاعر رحمة وتعاطف كبير، فما عادت مساعدتنا في المنزل آلة تصنع لي ما
أريد، هي مغتربة، بل إن غربتها أسوأ من غربتي بكثير! هي تركت فلذات
كبدها، لتخدم أهل البيت الذي كان قدرها أن تعيش بين أهله المختلفين عنها
في كل شيء! تعمل بجد لتوقير عيشة كريمة لأبنائها، هي تحبهم وتفتقدهم
كل يوم، لكنها ومع هذا الحب الجريح تهذب نفسها لتخلق حبًا لنا تصونه كل
يوم وتخدمنا به، تحاول فهمنا وفهم أنظمتنا والتكيف معها بكل ما تملك،
ألقي عليها تحياتي وشكري كل يوم، فهي مجاهدة حقيقية تستحق وسام
الصبر والمهنية العالية. وهاتان العينان أيضًا أبصرت بهما كمّ النعم التي كانت
تمرُّ عليّ كمسلمات شفافة أحصل عليها «مجانًا» ودون أدنى تقدير. الآن
أصبح لكل شيء قدر وثمان. ثم أصبحت أيضًا «الشاب اللي يطفى
اللمبات» (10) ولكن من باب الترشيد، فحساسيتي للإسراف والترق المُسَلَّم
به، تعاظمت كثيرًا. في المجمل زاد تفهمي لما حولي، إلا من الفوضى أو تعدي
الحقوق، فقد أصبحت أستنكرها، ذلك أنني عشت في فقاعة أكاديمية أداول
الأفكار المنطقية عالية التنظيم وفي بيئة كل من حولي فيها يتحدث بالنظام
والمنطق والقانون. حَفَّ ذلك التحسس أو الصدام تدريجيًا مع التكيف ورؤية
الإيجابيات حولي. ومنها دفء العائلة وحرارة المشاعر بين الأهل والأصدقاء
والكرم الكبير. فالكل يعطي من نفسه ووقته وماله بسرور بالغ. أما الأكل
الجيد، أو المطهو في البيت، فاحتل حجرة قلبي الأولى! ولا يُقدَّر عندي بثمن،
بعد بؤس أربع سنوات كنت «أمشي حالي» فيها بأي طعام، بائت، مُجمد
مُصنَّع، مُعلَّب، مُتحجر، أو نصف متعفن! المهم ألا أموت جوعًا!

عندما عدت افتقدت التنقل بالمشي والدراجة. فكل مدينة أعيش فيها
وأتركها، أترك فيها دراجة صديقة وهي من أثنى ما أملك فهي «تذكرة»
لحرية جسدي، وبوابة لسعادة عقلي. كان التنقل في الرياض بالنسبة لي
تحديًا كبيرًا، و«أوبر» لم تكن انتشرت بعد. أقضي وقتي معظمه في البيت
أمارس عملي وهواياتي وأجلس مع أهلي أتنعم بدفئهم الذي افتقدته سنين.
ولكني بعد أشهر قليلة صرت أشعر بالاختناق وأصبحت صعوبة التنقل تأتي
عليّ وتضغطني. بعد أن كنت أتحمك بكل جزء من حياتي وتنقلاتي
وختياراتي، أجوب كل طريق بنفسني، أستعمل قدمي لكل شأنني، أو دراجتي،
أو سيارتي، وأتنقل بمحض رغبتني. عدت وأنا لا أنتقل من نقطة إلى أخرى إلا
بنقاش وترتيبات مع أمي وأربع أخوات وسائق واحد. توفير سيارة وسائق
خاص بي حَسَن الأمر كثيرًا. وأصبحت أنسق معه في وقت مبكر لكل
«مشوار» وأحرص أن يكون راضيًا «بزيادة»، فهو المدلل الذي أخشى أن

يغضب ويتركنا «فنتورط». أخلصت لعملي وأصبح عالمي، أحببته وأحبني،
بعكس الرياض في تلك الفترة فلم تكن تعرفني أو أعرفها. كنت أحاول
الخروج منها للتنفس كلما سنحت لي الفرصة.



(أصغر وكيلة!)

إن وصلت، لا تحرق السفينة من فرط الفرح، كن مستعداً لمواصلة الرحلة في أي وقت

بدأت العمل مباشرة فور عودتي بالدكتوراه، وانخرطت في التدريس. عُرض عليّ منصب إداري كوكيلة، قابلت ذلك بالرفض، فلدي عبء تدريسي كامل. لكن مع النقاش والإقناع بأن الأمر سيتم حله، وافقت، لكن لم يحصل ذلك وكنت وكيلة بجدول محاضر كامل، فلم أكن ترقية بعد، ولم يكن لي مقر أو مكتب. أجلس مع مساعدتي في مكاتب المعيدات المشتركة تكثرًا من الكلية، إلى أن فتح الله وانتقلنا لمكاتب الوكالة. مكتبي فسيح فارةً يمتد من بداية الدوار الإداري إلى نهايته، وفي طرفيه مكتبا، السكرتارية، ومديرة المكتب. انغمست في الإدارة وبروتوكولها، وتعرفت في تلك المرحلة على نفسي بخلاطة الأظيان المختلفة والعمل معها. اختلقت كثيرًا، حتى خزانة ملابسي تبدلت! بعد أن كانت تحتوي الملابس العملية الخفيفة، أصبحت تعج بالأطقم الرسمية، والمجوهرات والإكسسوارات، والأحذية «الطقطاقة» العالية. كان من يسمع عني وعن شهاداتي ومنصبي، يتوقع فورًا أنني مرتبطة ولديّ أولاد كمعظم من حولي في ذلك الوقت. لست أنسى مكالمة مستشار الملك عندما بادرني، كيف حالك، وكيف الأولاد؟ كان يدور في رأسي، «سنقل يا سيد سنقل جدًّا»، لكنني أجبت بكل تكيف وبرود، بخير الله يسلمك. بعد سنواتي الأولى على الكرسي، كنت أبذل جهدًا إضافيًا حتى أقوم بدوره، دون أن يكون جزءًا مني. أفصل بينه وبين حياتي ما استطعت. حتى لا أقع في فخ الاستحقاق المتوهم، وتوقع المعاملة الخاصة في كل شأن.

خبر تكليفي وكيلة، أحدث ضجةً في الأوساط من حولي وفي الصحف، واستبشر به أصدقائي ومعارفي، كونه تمكينًا واضحًا، ولكوني أصغر وكيلة وقتها. في المناسبات العائلية يتم سؤالني في كثير من الأحيان: أنت وكيلة صح؟ كيف؟ كانت تجربة وكالة الموهبة ثرية بالتجارب والعلاقات، وكادت أن تنسيني أنني أستاذة وباحثة في علوم الحاسب. مهمة التدريس صندوق أنيق جمهورة محدود من الطالبات اللاتي يأتين للتعلم، والبحث. نتشارك معًا التدارس بكل مثالية وموضوعية وفضول للنماء، ننوي التعلم ونأتي كل يوم من أجل ذلك. في الإدارة خرجت من الصندوق إلى جمهور شاسع بخلفيات علمية ونفسية وفكرية متباينة، وأهداف وقيم قد تكون متضادة أحيانًا. علاقات واسعة ما بين قيادات داخلية وخارجية، وشركات وشراكات،

وموظفين من مختلف المشارب والدرجات العلمية. في التدريس يكون كأسك ممتلئًا بالأعمال والنشاطات الأكاديمية. في الإدارة، يتحول الكأس إلى نافورة جدة! من الفرص والضغوط والمتطلبات، تُحاول معها المحافظة وتوجيه أكبر كمية من الماء الفائض والمنتشر. ضغط حتى علي مستوى البريد و«الواتساب» كثرة تحرجك، فلا تستطيع أحيانًا أن تجيب كل من يُرسل وقد تتأخر في الإجابة بما لا يتناسب مع مستوى مبادئك وذوقك، هكذا يحصل رغما عنك بسبب الضغوط.

بدأت في وكالتي الأولى بإدارة صغيرة بها أقل من عشر موظفات، ثم في وكالتي الثانية في تقنية المعلومات، أدت أكثر من ستين موظفة، من مهندسة، إلى إدارية وفنية. حين عُرض عليَّ المنصب حذرني منه الكثير، لأسباب منها أنه مسؤولية كبرى، فيقع تحته التشغيل التقني، الأجهزة المكتبية، أجهزة البث والتواصل، والأنظمة الإلكترونية، والخوادم، وكل ما له علاقة بتشغيل التقنية وصيانتها لكل الجامعة! وأنه يحتاج لتأسيس كبير فلم يسبق وجود وكالة للإدارة. وأن الأتمتة كانت في مراحلها الأولية في الجامعة، فليس كل الأعضاء لديهم بريد إلكتروني، فضلا عن الطلبة! اعتبرت ذلك تحديًا، وقلت سأختبر نفسي هنا وأرى ماذا أصنع، كنت مستعدة لإنفاق الجهد والوقت، ولو أن أنفقه كله! هكذا حدثت نفسي رغم التحذيرات. كان الأمر ثقيلًا في سنواته الأولى، إلا أنني استمتعت في الإدارة لوجود المساحة الكافية للتحرك والصلاحيات الكبيرة للإنجاز وخلق الأثر، ووجود عميد داعم مخلص حكيم. فقضيت فيها خمس سنوات أسهمت من خلالها في إحداث نقلة كبيرة في ما يخص الأتمتة، وإنشاء الأنظمة التي تسهل الأعمال. يأتي الكرسي ومعه علاقاته وفرصه، وأحداثه الجميلة، وضداعه. من ضمن الأحداث الجميلة هو احتفال تفعيل أول خمسة آلاف بريد إلكتروني للطلبة في جهد اشترك فيه كل موظفي العمادة، فحصدنا الثمرة جميعًا، وذلك ربما غير مسبق لوجود نوع من الشروخ بين الموظفين بسبب الطبقية والتمايز وبعض البطالة المقنعة، وتوالى الإنجازات والرقمنة. ومن نشاطات العمادة التي سعدت بخوضها، أننا أخذنا المركز الأول ضمن جامعات المملكة في اجتياز تدريب الطلبة على التقنيات السحابية لشركة (DELL)، في تجربة بدأت بالاستقطاب ثم التدريب ثم الاختبار والاجتياز. ومن هدايا الكرسي اللطيفة زيارة قصر الملك عبدالله رحمه الله ومقابلة بناته ضمن وفد خاص. بعض كراسي الإدارة محطة للارتقاء في سلم المهنة، لكن الأمر في الأكاديمية ليس كذلك بالضرورة. فالمناصب الإدارية فيها ليست بشكل سُلم عمودي، هي بشكل حلقة أحيانًا، فتجلس على كرسي إدارة ما، تسيّر الشأن الإداري ثم تعود عضو تدريس ثم تعود لكرسي آخر وهكذا دوران في لعبة تعطي فيها وتبني فتتراكم الجهود وقد يأتي من بعدك ليكمل أو ينقض ما بنيت وهكذا

بحسب وجهات نظره وسعة فهمه وقدرته الإدارية. كنت أحدث نفسي مليا،
أنني بتلك الجهود يمكنني تأسيس مشروعين رياديين ناجحين على أقل
تقدير!

ما بين التأسيس للوكالتين اللتين أدرتهما علي التوالي، وما بين التدريس،
وبين إغلاق أوراقى البحثية المتعلقة بالرسالة، وكتابة أوراق أخرى، كنت أدور
في هذا الفلك، أنغمس في تعب لذيذ.

(سيرك الشمس)

شغف + عمل + فرصة = تغيير العالم!

حضرت مدرسة صيفية تُدرس الإبداع والابتكار، وكان نصفها في كندا في كلية إدارة الأعمال في مونتريال، والنصف الآخر في جامعة برشلونة في إسبانيا. نصفها الأول في مقاطعة كيويك في كندا، والتي يتحدث سكانها الفرنسية، وكل ما فيها يشي بفرنسا، بدءًا بالهيئة، واللباس، والأناقة، وانتهاءً بالتعامل، والطعام. زرت أماكن عدة في العالم، وكان اختلاطي دائمًا بالعلماء والأكاديميين من تخصص الحاسب، ولم يكن المظهر ذا أهمية، والأناقة عادة ما تكون بسيطة، وفي أدنى مستوياتها. هنا كل من معي في تخصصات تميل للإنسانية والإدارية والإبداعية. أناقة الجميع فائقة في نوع اللباس وخامته ولونه وطريقته، وقصات الشعر، والحقائب، والنظارات. كل شيء يبدو مبتكرًا متسلسلًا باذخًا، وكأنه جزء من دعاية لمنتج فاخر، وشعرت بينهم أنني خرجت من كهف.

خارج وقت المحاضرات، كنا نזור بيوت الإبداع ونكتشف ونكشف أدق تفاصيل العمل فيها. مثل زيارة راديو كندا ودهاليزه، وغرف البث والأداء والتجهيز واللباس والتحكم. أيضًا زيارة «يوبي سوفت»، وهي من أكبر شركات إنتاج الألعاب في العالم والشهيرة بتطوير لعبة «أساسنز كريد». شدتني قصة الشركة والتي بدأت بخمسة إخوة دعموا والديهم في الزراعة قبل دخولهم الجامعة، في محافظة بريتنى الجميلة، وهي شبه جزيرة ممتدة في الأطلسي شمال فرنسا. بدأ الإخوة بتطوير أعمالهم الخاصة أثناء الدراسة الجامعية، فقام أحدهم بإنتاج أقراص الليزر المسموعة. وفي عام ١٩٨٠م اكتشف الإخوة أن شراء العتاد من موطنهم فرنسا، أكثر كلفة من شرائه من بريطانيا وشحنه إلى فرنسا، فافتتحوا شركة شحن خاصة بالعتاد والحواسيب. مع نجاحهم في تقليص التكاليف إلى أكثر من النصف، أصبح الطلب عليهم كبيرًا من داخل فرنسا، ووصل ربحهم إلى أكثر من ٤٠ مليون فرنك فرنسي. بعد خبرتهم في النشر والتوزيع، ورؤيتهم لفرصة إنتاج الألعاب وتطويرها، قرر الإخوة التركيز على ذلك وتم إنشاء يوبي سوفت والتي هي اختصار لـ «يوبيكوتس سوفت وير» والتي بدورها تعني البرمجيات واسعة الانتشار. كانت أول لعبة تنشر لهم في عام ١٩٨٦م «زومبي» والتي حققت نجاحًا محليًا ساحقًا، تلتها «ريمان» والتي انتشرت في أوروبا بشكل كبير، ووصلت للسوق السعودي لأجهزة «سوني بلاي ستيشن» و«مايكروسوفت

إكس بوكس» و«نينتيندو دي إس». كان دخولي لمساحات عمل المبرمجين والمصممين، ومعامل التمثيل والنمذجة الثلاثية، وغرف الاجتماعات، وسماع تجارب المديرين والعاملين مباشرة، مؤثرًا وملهمًا حقًا. ما زال الإخوة الخمسة يملكون الشركة، رغم محاولة «فيفيندي»، وهي شركة منافسة، الاستحواذ على أكثر من ٢٠٪ من أسهم يوبي سوفت، تميهدًا لنوايا غير معلنة. لكن مؤخرًا، تم الاتفاق وبيع كل الأسهم المملوكة لـ«فيفيندي» لتعود يوبي سوفت حرة من أي ضغط من جديد.

كانت الزيارة الثالثة إلى «سيرك دي سوليه»، أو «سيرك الشمس» بالفرنسية. السيرك عبارة عن معمل كبير، يمتزج فيه العلم، والهندسة، والبرمجيات، والتجريد، والخيال، والموسيقى، والفن، والأداء، والرياضة في بوتقة واحدة ومنتج إبداعي متفرد. يحلم بالانضمام إلى هذا المعمل الكبير مئات الشباب الموهوبين والرياضيين والمبدعين والفنانين والبهلوانيين من جميع أنحاء العالم، يتدربون لسنوات كثيرة تبدأ من الطفولة في كثير من الأحوال، ليكونوا بالمستوى الذي يقبله سيرك الشمس. وهناك يبدأ تدريبهم أيضًا سنوات أخرى للياقة فائقة تناسب مستوى الأداء في أقوى سيرك في العالم. خلال الزيارة للسيرك جلسنا مع المدير التنفيذي لشرح فلسفة السيرك وكيف بدأ به المالك: جاي لالبرتي، الذي رحل في سن الثامنة عشرة إلى بريطانيا واحترف التسلية في الشارع بنقث اللهب، والمشي بالعصي، وهو يقول عن نفسه: اكتشفت متعة إسعاد الناس وأدمنتها، كان والداي يتوقعان مني أن أكون طبيبًا أو محاميًا، وعندما صارحتهم بأنني أود ترك الجامعة لأكون مخرجًا فنيًا وفنانًا كان ذلك صادمًا لهما، واستثرت فيهما مهرجانًا للخيبة والامتعاض. كانت بدايتي في كيوبيك، كندا بتنظيم احتفال سنوي لفناني الشارع، أجمعهم ليؤدوا سويًا استعراضًا موحدًا فأعطيهم الشطائر وأجمع المال الذي حصلنا عليه من القبعة، إلى أن كان للحكومة الكندية ميزانية خاصة للثقافة، وأرادوا تنظيم احتفال للعيد الـ٤٥٠ لاكتشاف كندا، وطلبوا منا نحن فناني الشارع أن نقوم بعمل فني منظم، ليتم عرضه في كامل مقاطعة كيوبيك. كان حلمنا أن يكون لنا سيركنا الخاص، فاقتنصت الفرصة وكنت المخرج للعمل بعقد قيمته مليون دولار. نصب خيمتنا المخططة بالأزرق والأصفر في ١٥ موقعًا في أرجاء المقاطعة ونقوم بعرضنا المتكامل والمنظم، بنهاية العرض الأخير والذي كان في قمة الأداء والاحتراف عقب ١٤ عرضًا سابقًا في مونتريال، علمت أننا سننجح!

ولكن العقبة الوحيدة لإنشاء أنموذج عمل ناجح مربح هو الاستمرارية وذلك غير ممكن، بسبب التوقف في أشهر الشتاء. غرقنا في الديون لفترة إلى أن وصلتنا دعوة لحضور احتفال لوس أنجلس الفني، قبلنا الدعوة بشرط أن

نكون أول من يعرض. قلت حينها لزملائي إما أن نفوز بصفقة أو أن أبيع خيمتي المقلمة و«كل واحد يروح بيته». وبالفعل حظينا بفرصة العرض الأول، وامتلات صالة العرض بمشاهير أمريكا والمؤثرين فيها، الذين دعوتهم للحضور. كان نجاحنا ساحقًا، وبدأنا بجني الأرباح في ذلك العام، وأصبحنا شركة كبيرة لها صداها العالمي. واستمر يسرد تفاصيل التحديات التي واجهته من داخل السيرك واختلافه في وجهات النظر مع زملائه، خصوصًا عندما بدأ بالتوسع وفتح مقرات جديدة في العالم. إذن هكذا بدأ سيرك الشمس، من نافث للهب، إلى صاحب أكبر سيرك في العالم. جميل، وددت أنه لم يتوقف، لكن حان وقت الغداء. الغداء في الحديقة تحت أشعة شمس الصيف الذهبية. رائحة المخبوزات الفرنسية مجنونة! بلغ بي الجوع مبلغًا كبيرًا، فالتهمت «الكراسون» الصغير كاملاً، وكان طعمه غريبًا. في الثاني، قضمت ونظرت لأكتشف سر الطعام، فإذا به محشو بجسيمات لحم زهرية. أصبت بدوار خفيف من هول الصدمة. شعرت بغثيان وتمنيت لو أنني أستطيع العودة بالزمن لأمحو حادثة «الكراسون» الأول من جسدي وتاريخي. يارب مغفرتك. بعد الغداء توجهنا إلى غرفة متوسطة الحجم، وأخذنا درس أداء حقيقي مبسط. وجهنا المدرب في سلسلة من التحركات المنسجمة والتدريبات التي نقوم بها معصوبي الأعين. ليوقظ فينا الإحساس العالي بما حولنا. فكل شخص يؤدي في السيرك يكون متفاعلًا بكل حواسه مع ما حوله، يتكيف معه ويتناغم بإدراك عال وبتزامن دقيق لينتج عرضًا بهيجًا متقنًا يمتع العقل والقلب. هكذا يتفاعل المؤدون في عروضهم الفائقة بحسب ما يدور حولهم وليس فقط بحسب الخطة المدروسة. كان مجتمع السيرك متكاملًا ومكتفيًا بنفسه ذاتيًا، من مدربين، ومؤدين، ومقدمي خدمة. انتقلنا بعدها إلى ندوة المؤسسين وشركاء النجاح في السيرك، ومنهم صناع الملابس الخاصة التي يرتديها المؤدون، وهي من نسيج بالغ المرونة والقوة يتناسب مع التحركات القصوى في الأداء. ثم مررنا بصالة التدريب وهي أشبه بقاعة جمباز عظيمة بأسقف شاهقة وأدوات كثيرة وكأنها غابة اصطناعية، يتحرك المؤدون فيها في كل اتجاه وكل مكان، يتسلقون ويتعلقون ويتأرجحون بخفة بين الحبال المتدلّية.

كل شيء مبتكر هنا، حتى شبكة القفز «أكرونيت» وهي شبكة مبتكرة في السيرك تعمل بشكل معقد، ومرتبطة بخمسة عشر محورًا، وكل محور يرتبط بالنظام الرقمي عالي الدقة لحساب الوزن وضبطه ليكون بالشد المناسب لكل فقرة وبوزن اللاعب المناسب لإتمام العرض بطريقة صحيحة. رغم التخطيط المسبق، والهندسة الدقيقة بنسبة خطأ صفر، والمتابعة إلكترونيًا من أجهزة التحكم، إلا أن سير العرض يتم بالاستشعار المستمر بشكل حيوي ومرن. الموسيقى والأداء والهندسة تتبع تحركات كل لاعب، وتتكيف معه، وكل

لاعب يتكيف أيضًا مع ما حوله بتناغم شديد. مشروع ضخم كهذا بدأ بشغف عميق، وفرصة تم استغلالها جيدًا، وحسّ عال للقيادة، و«شوية عناد». لو أن جاي لالبرتي مدير السيرك، سار في مساره المتوقع من العائلة وهو أن يكون طبيبًا أو محامياً، ليكون «وجيهاً» في عائلته، ودفنَ بين الرمال شغفه وموهبته في إسعاد الناس، لما كان لدينا هذا العالم الساحر والمبدع في سيرك دي سوليه. ليس زهداً في مهن مثل الطب أو المحاماة، ولكن كل مُيسّر لما خلق له، والفرص جديرة بالاعتناء، ولكل إنسان ميول وجذوة تُكتشف بالخبرة والمران والمراس وخوض الغمار لكشف الذات ومواطن قوتها، وعمارة الأرض بأقصى مواهبها.

(في برشلونة أنقّب عن أجدادي)

في برشلونة غمرني الوحي العربي الذي يقفز في كثير من المناحي، أراه وأسمعه في الكلمات والأماكن، وأسمائها. في أشكال الناس وهيئاتهم... إرث السبعمئة عام من الأندلس العربية والإسلامية والذي انتهى منذ سبعمئة عام أيضًا، ما زال يبدو ظاهرًا بشكل يفتحم قلبي ويعزف كل أناشيد الأندلس التي أعرفها. اعتدت أن آتي للبلدان واكتشف «تاريخها» ولأول مرة أزور مكانًا وأشعر بانتماء عميق لتاريخه، فهو «تاريخي» حقيقة، هو يتحدث لغتي ويشبهني. كنت أسير في شوارع برشلونة وأرددُ مرثية أبي البقاء الرندي الهادئة المليئة بالحكمة في الأندلس ومدنها وحالها، التي يقول في مطلعها:

**لكل شيء إذا ما تم نقصان .. فلا يُغزَّ بطيب العيش
إنسان**

**هي الأمور كما شاهدتها دُول .. من سرّه زمن ساءته
أزمان**

في برشلونة كان جزء مدرسة الإبداع الثاني، وبالنمط نفسه الذي يدمج بين المحاضرات واللقاءات والنقاش والزيارات في مونتريال. لفتتني في برشلونة محاولة تخفيف البطالة «الكبيرة» بالتوجه للابتكار والريادة ودعمها بخلق المسرعات، والحاضنات، لدعم الأعمال حتى الغريب منها والذي لا يتصور أحد نجاحه. في متحف الأفكار، أركان موزعة في باحات متصلة، بها عشرات المنصات التي تعرض أفكار الأطفال والبالغين مهما كانت مجنونة، وعلى لوحة واضحة نص بارز يُبرز روح المتحف بوضوح «ليس كل شيء مخترعًا بعد». أسس المتحف المخترع «بيب تورس» والذي يهدي رواد المتحف ساعات استشارة مجانية لابتكاراتهم وأفكارهم، إضافة إلى جعل المتحف ملتقى لرواد الأعمال والمبدعين. الاحتفاء بالمبتكر الجديد سمة واضحة لدعم رواد الأعمال، ومن رحم تلك العجائب يأتي مشروع واحد ويكتسح بنجاحه ويعوض خسارات المشاريع الأخرى. أثر هذا التوجه بدا واضحًا

اليوم، حيث انخفضت نسبة البطالة في إسبانيا من 26% في 2013 إلى أقل معدلاتها اليوم بنسبة 14% لعام 2020.

كانت رفيقتي في الرحلة وجارتي في الغرفة دكتورة في جامعة كولومبيا تتحدث الإسبانية بطلاقة. وفي إحدى المرات ابتدرتني قائل أن نخرج، «وش وضعك» هل لك خليل؟ هل لديك أولاد؟ قلت لها بابتسامة «تسليكية» صغيرة: لا.. وحتى أكسر حدة الموقف وأشثته قلت: أنا أتسوق بدلاً من ذلك، أحب التسوق. ضحك، ونظرت إلي بتعجب، وهي تحرك رأسها بالنفي، أن «وش دخل؟» فأجبته بإيماءة أخرى «هو كذا، مدري».

دعنتي إلى بيت صديقتها الإسبانية صوفيا، وقبلت الدعوة. صوفيا مهتمة بالأزياء ولديها خط إنتاج للأحذية. استقبلتنا صوفيا، وكانت ممتلئة ببشرة حنطية وشعر أسود، وكأنها من قبيلة «دورا». تزينها البشاشة واللطافة والروح الجميلة. شقتها مرتبة بطاولة طعام في البهو أمام المدخل. هي تُعد الطعام وزوجها الأيرلندي الفارع الطول ذو البشرة الحمراء والعينين الزرقاوين يساعدها حيناً ويُعد الطاولة ويجهزها حيناً آخر.

خرجنا سوياً إلى السوق، فهي تحب التسوق مثلنا تماماً نحن الخليجيات، وكنا ندخل المحلات نفسها! بل كانت تلميحاتها رائعة ومناسبة تماماً لما أحب وأحتاج بل وأكثر! لم أجرب ذلك مع صديقاتي البريطانيات، فنمطنا الاستهلاكي مختلف تماماً، أو ربما أنها المرحلة العمرية والمهنية؟ فقد كنت وقتها أنا أيضاً طالبة، ولا أشتري إلا لِمَا، أبتاع ما يسد احتياجي الشديد والمباشر من الملابس الأساسية فقط. تبضعنا إلى ما شاء الله. ثم التقينا معها في محل الحقائق وكانت قد اختارت حقيبتها، وابتاعها السيد لها. أسعدني ما رأيت حقاً، فزوجها لعب كافة الأدوار بإتقان عالٍ!

كان السائق، وليس أي سائق، «سواق شيوخ» يفتح لها الباب ويدارها، و«عاشق» يجود بأحضانه وقبيله بين اللحظة والأخرى. وفي المنزل هو «طاه» ماهر، و«جرسون» لطيف يساعد في الإعداد والتقديم، و«زوج» كريم يدفع المال، و«حمالي» لكل أكياسها ومشترياتها، كل ذلك يفعله بروح جميلة وتقدير واحترام عاليين. تذكرت الطرفة التي تقول إن المرأة تريد من زوجها كل شيء، وظننت أن ذلك من شدة استحالتة صار موضع تندر. لكنني رأيت اليوم وعشته حقيقة وواقعاً.

تذكرت إيريل صديقتي النصرانية، لم تكن كباقي البريطانيات، كانت تمتنع عن الشرب، وتحضر الصلاة كل أحد، ولا ترتدي سوى الفساتين الساترة. كانت

«مطوعة» بمفهوما المحلي. كانت لا تخرج إلا لمامًا، لأنها مصابة بمرض تُرهقها فيه كثرة الخروج. تعرفت إيريل علي ناثن في الجامعة، وظلت تحدثه إلى أن قررا الارتباط، والآن لديها ٣ أولاد. وتذكرت إيفا، المتصافية ذات الشعر المحلوق، والتي لم تترك مغامرة إلا وخاضتها. إضافة إلى حرصها على إتمام درجة الماجستير في إدارة الأعمال، فهي تلعب وتدرس في ذات الوقت. صورها في الفيس بوك، كلها «شقلبة» و«نظنطة» و«شقاوة». ظننت أنه لن يهتم بالارتباط بها رجل من فرط نشاطها، حتى وجدت يومًا صورة لزواجها بشابٍ وسيم، وتقف بجانبها ابنتها التي أنجبتها وقت المراهقة.

قصة صوفيا، وإيريل، وإيفا، جعلتني أتأمل كثيرًا إلى درجة الصداق!

هل قدمن أية تضحيات في خياراتهن حتى يرضى بهن من يتقدم لهن؟ هل كان لهن دور في اختيار وإتمام هذه الشراكة؟

والإجابة هي لا، ونعم على التوالي للسؤالين! أما بتأمل الوضع لدينا، فهو بالعكس! فالإجابة تكون بنعم، ولا، لكلا السؤالين على التوالي أيضًا!

متوقع من الفتيات قولبة خياراتهن في الحياة، وأيضًا قد لا يكون لهن دور ربما في قصة الزواج تلك. هن متفرجات لما «سيحصل لهن» في موضوع مصيري، يستقبلن الطلبات، ويوافقن بعد «نقر البطيخة».

بتأمل نموذج آخر وهو لسيدة أعمال ناجحة وذكية، تبلغ من العمر قرابة الأربعين، ترسل الرجال في تجارتها، وقد أعجبت بأحدهم، الذي كان يبلغ من العمر خمسة وعشرين عامًا. فأرسلت له وتم زواج خير خلق الله بسيدة النساء «خديجة بنت خويلد» قبل 1400 عام. هل نحن نتقدم في أنماطنا الاجتماعية للارتباط أم نتأخر؟ أظننا لسنا في الجاهلية ولا في الإسلام، ولا نتبع نموذج الشرق ولا نموذج «الأمريكان». تقدمنا في الحضارة لكننا في بعض الشؤون نتبع الإرث بعمادة، وهكذا «وجدنا آباءنا كذلك يفعلون». كان ذلك «يعصف» بخلدي قبل العودة.

فلما عدت إلى الرياض، أذهلني غرق النشء في ثقافة غربية كاملة، وتشربهم تفاصيل تلك الثقافة، في إعلامها وثقافتها وغنائها ومشاهيرها. تعريض كبير للغرب تقابله صخور عظيمة من العادات المتجذرة سيما في موضوع مثل الزواج! بينما يتعلم ويتشرب خالد ونورة منذ الصغر معيشة جون وجوانا، يكبرون وعلى أحدهم أن يتزوج من نالت إعجاب أمه، ونجحت في اختبار الموافقة الأساسي «بيضاء وشعرها طويل» كشرط تقليدي قديم ومستمر، في منظومة الخطبة العتيقة. هل هذا الشرخ بين جيلين فقط؟ أم هو شرخ

ففي المجتمع بأكمله؟ وكيف سيكون شكل الجيل الجديد في ظل هذا التعريض الرهيب والكثيف والمستمر؟ هل سينجح في خلق واقع متزن؟

هل تنطبق مقولة علي الوردي على مجتمعنا؟ «التناقض الاجتماعي كامن في أعماق الشاب العربي، فهو يقلد الشاب الغربي في أفانين الغرام، ولكنه في الزواج يريد تقليد أبيه وأعمامه وأخواله. إنه في غرامياته (دون جوان) وفي زواجه (حاج عليوي)!»

أظن التطور المثالي هو أن يتيح مجتمعنا «تعارفًا وسطًا» يتبادل فيه الاثنان «قولًا معروفًا» يحفظ كرامتهما، وفي الوقت نفسه يفتح أفقًا آمنًا مقبولًا للتعارف بقصد الارتباط، وذلك دون تחדش للعفة. إن غلق «البيوت وأبوابها» بعنف وتعسف يجعل الناس تبحث عن النافذة والشقوق والجحور. ويصحب ذلك أن يكون للزوج والزوجة كليهما نمط وعرف اجتماعي واضح ومنتشر لتبادل الاحترام، والتعاون، والصداقة، والحب، «على حد سواء». هل ذلك ضرب من الجنون؟ أم «بدري عليه؟».

(MIT).. الأمل يتحقق

قد لا تكشف السيرة الذاتية نبيل الشخص وإنسانيته، بل تعامله مع من هم أقل منه في الحظ أو الحظوة أو المنصب.

بعد سنوات من العمل الإداري والتدريس والبحث. سمعت عن منحة ابن خلدون للعالمات السعوديات. شدني ذلك كثيراً سيما ارتباطه بالحلم (MIT). فتشت جيداً في الفضاء الرقمي عن كل ما له صلة بالموضوع. وجدت صورة وحيدة، واسماً لدكتورة سعودية يبدو أنها حصلت على المنحة. الصورة لها علي طاولة اجتماعات مع أشخاص آخرين، لم أنس الصورة لأنها تمثل المنحة والأمل بالنسبة لي، ولصقت جيداً في ذاكرتي. بحثت عن اسمها ورقمها، تواصلت معها لسؤالها عن الموضوع، وأخبرتني أن الانضمام بالترشيح الذي يُفتح كل عام، ويعلن عنه عن طريق الكلية في الجامعة. يفصلني عن الترشيح القادم قرابة العام. انتظرت البريد، لكن لم يصل لهذا العام. لم يثنني ذلك عن الاقتراب أكثر وأكثر من هذا العالم، وسجلت في بعض المواد العلمية والعامية في (MIT) في الصيف ومن حسابي الخاص، فقط لأكون أقرب. زرت الجامعة وتمكثت في مبنى كلية الحاسب العجيب، أسأل نفسي وأنا أتأمله جيداً، هل سأتمكن من زيارته مجدداً وأنا جزء منه، هل هذا مستحيل؟ دخلت المعامل، وقابلت الباحثين، وتسهّل ذلك عن طريق أستاذ المواد التي أخذتها في الصيف. عدت إلى الرياض وكنت أنتظر الترشيحات تصل من الكلية، كل عام، لكن لا شيء كان يحدث. وأنا مستمرة بالزيارة كل صيف. بعد عامين من ذلك تواصلت معي صديقة عزيزة، وأخبرتني:

سارة التقديم للمنحة بيقفل بعد شهر، مررت لك بريد التقديمدار في مخيلتي زميلة حاولت الحصول على الموافقة للتقدم للمنحة لكن معاملتها رُفضت، بل وهوربت بشراسة... وأخبرتها بلطف بأنني لا أريد خوض هذه الحرب...الخسارة بعدم المحاولة... أكبر من خسارة الرفض... أليس كذلك؟

بالفعل أخذت البريد و«فصفسته»، وكتبت عليه خطاب طلب موافقة لرئيس القسم، ثم يفترض أن ترفع المعاملة للكلية، ثم الجامعة، ثم تتم الموافقة بعد ذلك، تعقب ذلك معاملة أخرى لجامعة (MIT) للقبول في المنحة. تقدمت للقسم بخطابي، وعادة تتم مناقشة أي طلبات في مجلس القسم. في صباح ذلك اليوم مررت على برنامج الاجتماع، ويا للسعادة وجدت طلبي ضمن الموضوعات، الحمد لله. ونحن نسير باتجاه قاعة الاجتماع فتحت ملف الموضوعات لأتابعها، موضوعي اختفى! معقول؟ أنا قرأت اسمي! أصبت

بدوار خفيف... فتحت صندوق الوارد لأعيد فتح المعاملة مرة أخرى، ووجدت بريدين لبرنامج الاجتماع!

الأول به موضوعي والثاني نسخة منه ولكن دون موضوعي! أطلعت زميلتي وسألتها هل حقًا ما أرى؟ هل حقًا هذا يحصل؟

تأكدت هي الأخرى من صحة الموضوع. بدأنا الاجتماع، وأُغلق دون أن يُطرح موضوعي. بادرتُ بالسؤال عنه، وتمت الإجابة بسرعة بأنه سيؤجل للاجتماع القادم. الاجتماع القادم يعني في السنة القادمة، كون هذا آخر اجتماع في الفصل. حصل نقاش ساخن حول الموضوع، وكان يُدفع للرفض، ثم تقارعه الحجة، وهكذا إلى أن طُرح الموضوع للتصويت كبقية المواضيع التي تحتاج إلى بـت. خرجت من قاعة الاجتماع لأخرج من التصويت والتأثير، وأخبروني فيما بعد أن كافة الأستاذات صوتن بالموافقة، ونسبة ليست قليلة من الأساتذة أيضًا. نحن لا نرى الأساتذة في قسم البنين، لكن تُنقل لنا نتيجة التصويت صوتيًا. وصارت نتيجة التصويت الموافقة، وانتهت الخطوة الأولى!

العجيب أن في بعض البيئات الأكاديمية التعليمية الرصينة شأنًا كبيرًا «غير أكاديمي» تتحكم فيه العواطف والآراء، التي تؤثر على مستقبل ومصائر الزملاء، وتستهلك وقتًا كبيرًا من الأجر صرفه على لب العملية التعليمية. ولكل طريقته ومنهجه في الإدارة. يأتي الكرسي ومعه غبار سحري، يصبب البعض بالعمى والاستبداد، إلى درجة تُضر ولا تُنفع. ويصيب البعض بطاقة إيجابية هائلة، وبالفعل يتفانون في استعمال الكرسي لصناعة التغيير. وبعضهم يصاب بإدمان الضوء والتبجيل، حتى إنه يستنكر وضعه بعد الكرسي وبعيدًا عنه وكأنه يُعرّف نفسه ويعرفها بذاك الكرسي. والواعظ الأكبر في ذلك هو دوران الكراسي، فلا يدوم عميدًا أو وكيل أو رئيس بل الكراسي دُول.

استمرت معاملتي في التحرك، وكنت في زمالة بحثية صيفية في المعمل المفتوح في جامعة نيوكاسل. مدينة صغيرة مثالية للطلبة، تقع جامعتها وسط المدينة وحولها المساكن والحدائق والجسور الجميلة. زميل لي طلب التواصل معي، تركت مكتبي ونزلت في قاعة فارغة إلا من صدى صوتي لأحادثه.

دكتورة وصلني خطاب يخصكاستبشرت: عساهم وافقوا؟ طلبت منه الخطاب، تردد كثيرًا. أوجست في نفسي خيفة: خير دكتور، فيه شيء؟

الخطاب سيئ ولا يليق بك أو بالمرسل.. لا تعبئي به. سأتابع موضوعك.

ازدادت رغبتني برؤية الخطاب. ورجوته أن يرسله إلي. ياللهول! لم يحمل الخطاب رفضاً للتقدم للمنحة فحسب، بل فيه «بهتان» يمسنى شخصياً. صدمني رخص الادعاءات واجترأ الأوزار. استأت كثيراً، وحثت أن مصيري سيكون مماثلاً لزميلتي والتي حوربت حتى في صيتها، الذي استخف به مسؤول ليجيش الرأي ضدها. فحسر القضية، وكسبت هي، وخسرتها الجامعة بخروجها منها. ولأنني لا أستطيع زيارة مكاتب أصحاب القرار بنفسي بسبب الفصل بين قسمي البنين والبنات، وكون ذلك ممنوعاً تلك الفترة، كان والدي وقتها هو مبعوث السلام الذي يسأل عن قضيتي ويحاول شرحها للمسؤولين. وشرح لهم كيف أن أحد المسؤولين قال وبصراحة كبيرة بعد ضغط والدي عليه ليعرف منه مصير عشرات المعاملات التي تخصني والتي تتوه في مكتبه، ولا يتم الرد عليها، صرح بأنه لن يقبل أي معاملة لي لأنني تقلدت منصباً إدارياً في نفس الجامعة! وها هو الآن يرفض طلبي هذا، ويرفض الرد على المخاطبات التي ترده. استمر في ذلك شهوراً، حتى قاتني وقت التقديم. كانت من أحلك شهور حياتي، شعور زغم صبري واستسلامي يغمرنى بالحرقة والقهر بأن أسلب فرصة عظيمة بسبب رأي شخصي. ثم بعد مدة علمت بأنه تم عقد مجلس وموضوعي ضمن بنوده. بعد الاجتماع نما إلي من عدة أطراف، أن مسرحية دارت بطلها السيد «رافض» الذي استعد بمسوغات الرفض، وبدأ بسردها، لكن وبسبب عدم منطقية أسبابه، ولحشده غضب الجميع بعدم الرد على المعاملات المرسله له سابقاً، تمت الموافقة في ذلك الاجتماع بسلطة عليا دون رأيه. واستبشر الجميع بذلك فكانت قضيتي نصرًا للجميع ممن توقفت مواضيعهم لديه سابقاً بلا سبب وجيه. أزيح بعدها السيد رافض من الكرسي أو تنحى لا يهم، المهم أن الدنيا ما زالت بخير والنبلاء فيها كثر. وما زلت حتى اليوم أشهد نبل من يعمل معي في مواقف واضحة ومشرقة تدفعني دائماً للعطاء والصبر وإكمال الصعود. ومنها أن تمكيني كان كبيراً وواضحاً زغم أني أصغر الوكلاء. لست أنسى لجنة كنت رئيسة القسم النسائي فيها، جمعتني بمدير الجامعة وجمع غفير من أصحاب الفضيلة والسعادة حيث سألتني أمام الجميع عن رأبي في شأن يخص مهام اللجنة، ولما أبديته، رد بالحرق الواحد، «سمعتوا؟ عليكم بتنفيذ الأمر حالاً!». كان ذلك الدعم وفي ذلك الوقت بالذات مهماً لصعودي واستمرارني في التفاني والعطاء.

أجريت المقابلة مع الجامعة العريقة، وتم قبولي بحمد الله، أخرتني العراقيل الإدارية عن القبول في المشروع الذي نويت التقدم له، وكتبت مقترحي على أساسه، فلما وصلت بعد أشهر من التأخر، عملت في مشروع آخر كأول باحث

زائر في معمل علوم الحاسب والذكاء الاصطناعي (CSAIL) من وطني لذلك
المعمل العريق. وكان كل يوم هو يوم تعلم وفتح كبير لمعارفي وأفكاري
وعلمي على كافة المستويات، والحمد لله.

(في البؤرة الأشد سخونة: بوسطن)

بوسطن مدينة زاخرة بالشركات العملاقة والابتكارية والناشئة والجامعات القوية التي تتنافس فيما بينها. كل ذلك في رقعة صغيرة ملتهبة بالأنشطة والفعاليات العلمية والثقافية. بوسطن بؤرة ساخنة أكاديميا، ورياديا، فهي تُعدّ مركزًا للابتكار والهندسة ممثلةً في (MIT)، وللأعمال والطب ممثلةً في جامعة هارفرد العريقة. وعلمت حينها أن اختيار المكان الذي تكمل فيه دراساتك العليا، أحد معايير المهمة البيئية العلمية على مستوى الجامعة، وعلى مستوى المدينة وذكائها الجمعي إن صح التعبير. مقارنة بجلاسكو فهي مدينة هادئة علميًا وثقافيًا، لم يحصل في الكلية مؤتمر لعلم الحاسب إلا مرة واحدة طيلة سنواتي الأربع. مقارنة ببوسطن وفي (MIT) الأمر على النقيض تمامًا.

حين حضرت إلى (MIT)، اخترت مسكنًا قريبًا من الجامعة رغم ارتفاع سعره حتى لا أضطر لإنفاق الوقت في التنقل. سكنت في شقة أشبه بالـ «استوديو»، استأجرت الأثاث لمدة عام، أما المفارش وأدوات المطبخ فاشتريتها. بمساعدة الأصدقاء ومن سبقوني، جهّزت مسكني في يومين!

وصلت إلى الجامعة، ومبنى الكلية، الذي سبقت لي زيارته ضمن زياراتي الفضولية في الأعوام السابقة. قابلت المشرفة، وخرجت معها في غداء للاستقبال، كانت حريصة أن تتعلمني جيدًا، وأن تتعرف على ثقافتني. مكتبي مشترك مع سبعة طلبة آخرين، واثنين من «البوست دوك»، واللذين حصلوا على الدكتوراه منذ سنوات ويعملان تحت مدير المعمل (PI)، مشرفتي. البوست دوك هو منصب تدريبي لحملة الدكتوراه في البحث العلمي، وهو سلم الانتقال من التلمذة إلى المهنة. قوة الجامعة ومعاملتها تجذبهم للمكوث أكثر. كما أن سمعة التدريب بها كبوست دوك تكفي لجعل سيرهم الذاتية «كالشمس» لكني أراهم هنا لا يتحركون، كثير منهم يبقى ولسنوات في نفس الوظيفة، وكأنه يتّقي غوغاء الحياة بعالم الجامعة المرتب الغارق في التنظير والبحث والأرقام. كان المكتب محشورًا بالطاولات المتجانبة والكتب، والأوراق، وبأجهزة أناس آخرين، منثورة في كل مكان وعلى الأرض. نعم فبعضهم يشغل الخوادم هنا ويتصل بها من خارج الجامعة. كان لي كرسي وطاولة، وهذا المهم!

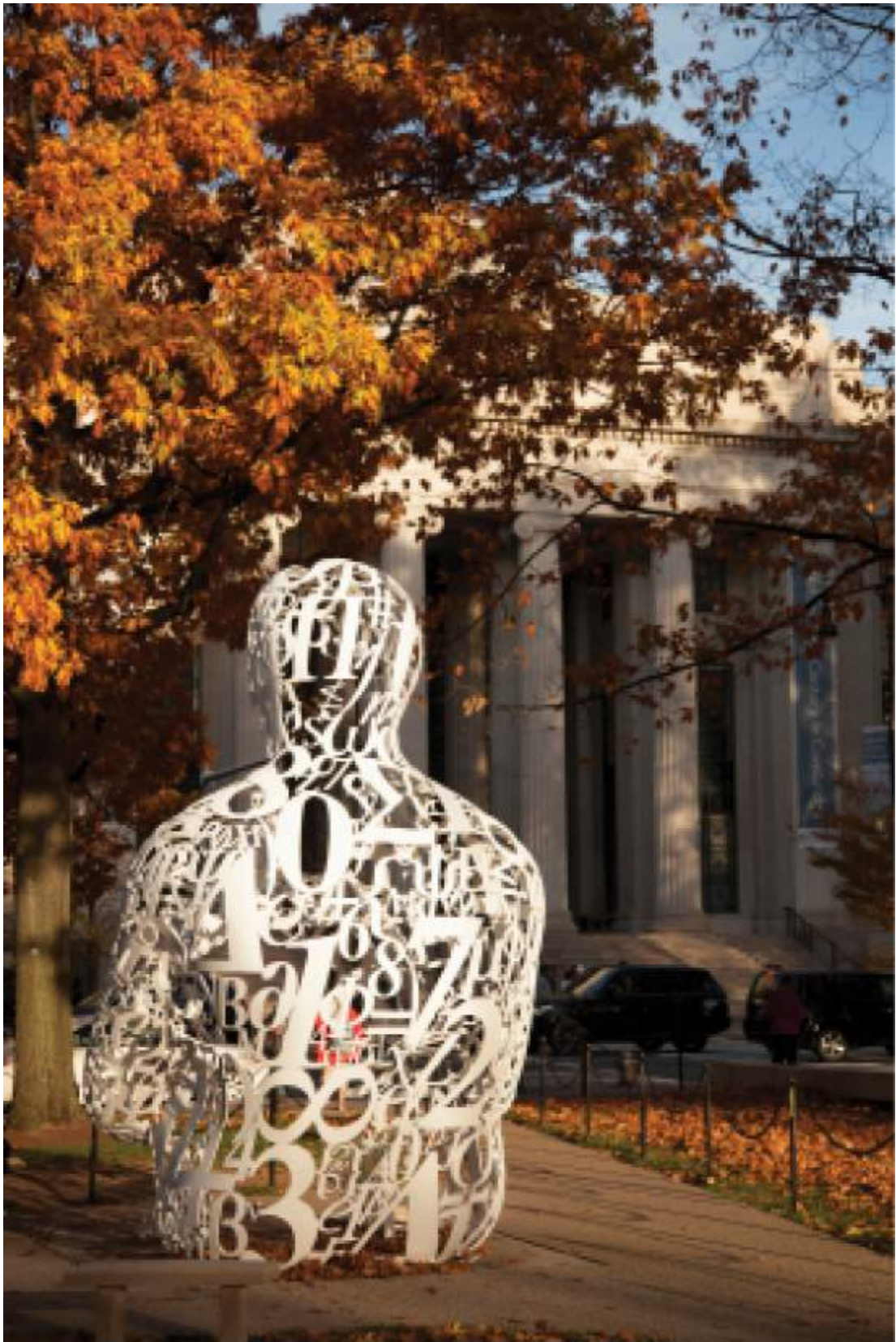
انتقلت من مكتبي الفاره الفسيح كوكيلة، والذي اعتدت عليه لسنوات، وعملي مع خمس مساعدات وسكرتارية، والمحاط بالكثير من العناية والدلال

ووسائل حفظ الوقت للتركيز على إدارة الدفة، والتخطيط الاستراتيجي، والكثير من «سمي» و«أبشري»، و«طال عمرك»، إلى طاولة هنا وحدي مع طلبة «مُنْتَفِين» يعيشون مرحلة الكدّ التي عشتها وعانيتها سنين طويلة. كان هذا النزول المظلي من ناحية، جميلاً في كونه «فصلة» لأعيش حياتي العلمية البسيطة للتركيز على البحث العلمي والتحصيل، ومن ناحية أخرى ثقيلًا في كوني أقوم ليس فقط بالتعلم والبحث، بل بكل الأعمال الإدارية والفنية التي كان يقوم بها غيري لمساعدتي وخدمتي. أنا هنا سائق، وخادمة، وطاه، وسكرتير، وطالب، وباحث، ومحامٍ، ومحاسب، ومعقب، وسائح أيضًا في بعض الأحيان. لست أنسى دخولي شقتي عند الثامنة بعد يوم طويل مرهق، أخذت أقرأ الرسائل الورقية التي وصلت فإذا رسالة من إدارة العمارة، فيها تهديد بإخلاء الشقة بعد أسبوع. أصبت بدوار ولم أنم جيدًا تلك الليلة. في الصباح راجعتهم بنفسي وسألت، وكان الجواب بكل برود: نعم أنت لم تدفعي الإيجار! نعم ولكن دفعته! استرجعت في ذاكرتي ما قمت به، كان الدفع عن طريق موقع العقار، أجريت العملية، لكن لم يكن هناك ما يدل على عدم إتمامها، تذكرت ذلك جيدًا. وفورًا بدأ عقلي بشتم زملاء المهنة: تَبًّا لمصمم (UI(11) خاصتكم! كدت أطرده من شقتي بسبب سوء التصميم! بعدها نسقت الدفع التلقائي بحوالة من البنك لأتفادى مثل هذا الموقف.

في مكتبنا المشترك، الجميع مشغول بالتهام لوحة مفاتيحه بأنامله الخفيفة، مرتديًا سماعاته التي تعزله تمامًا عن المحيط الخارجي. يطيب لجاك فتح النافذة المقابلة لمكتبه طيلة العام مهما كانت الأجواء. ديف يحيط مكتبه بإصبصات ضخمة من كل جانب، فتراها على المكتب وفي الأرض بجانبه وخلفه وعلى رف النافذة تشعر أنه يعمل في غابة. يختلط حفيف النباتات مع تكتكة الأنامل على لوحة المفاتيح في تناغم لطيف. تذكرنا الطبيعة أنها موجودة وأنها ملاذنا الآمن إن خنقنا الأسلاك والأرقام.

في بوسطن، في معمل علوم الحاسب والذكاء الاصطناعي، كنت أعمل ضمن مجموعة، وأشرف على طالبين بنظام التلمذة. يسمى النظام تحديدًا برنامج الفرص البحثية للطلبة (UROP). يعمل فيه الطالب مع عضو تدريس على أحد مشاريعه البحثية، أو حتى يشترك في شركته الناشئة كمتدرب. فيكسب الطالب الخبرة والاطلاع والدرجة الجيدة، ويكسب عضو التدريس قوة عاملة في مشاريعه. من الطريف أن أحد الطالبين كانت لديه شركة وهو «مشغول» بالدراسة وإدارتها، والأخرى تعمل في شركة كبرى كمتدربة ومستقبلها وردي «وأكثر»، فالجميع يخطب ودّها ويرغب أن تعمل معه. كان العمل معهما مدة فصل كامل ممتعًا جدًّا ومثيرًا للأسئلة، والتحديات، والتعلم المستمر. كنت أسبق سرعتهم، أشرح المطلوب ويأتيني الجواب بمنطق جميل وسرعة

هائلة، أرفع السقف في كل مرة لأجاريهما، ويصلون إليه بخفة وبداهة. العمل
معهما كان من أجمل تجارب زمالتي تلك. أظن أن الطالب الذكي يرفع من
ذكاء معلمه، ويبعث في روحه الحماس للنمو والعطاء.



بزنس في الجامعة (1/2)

إبان وجودي في بوسطن (MIT) وفي بداية العام الجديد مارست أشهى تسوق على الإطلاق. تسوق المواد المقدمة من الجامعة. رتبت المواد التي أريد حضورها عبر المنصة الذكية «MIT course picker». لأختار المواد المقدمة في الفصل الحالي، وحرصت أن تكون المادة غير متوفرة في موقع الجامعة، فبعض المواد العريقة مثل «الذكاء الاصطناعي» لها أرشيف مرئي ومكتوب منشور للعالم مجاناً. أرشدتني المشرفة إلى طريقة الحضور للاستماع بحيث أحضر المحاضرة الأولى للتجربة، وإن أعجبتني، فأرسل لأستاذ المادة لإشعاره بحضوري بقية المحاضرات. في منصة التسوق، تُدرج المواد المقدمة كافة للفصل الحالي «الخريف»، بأوقاتها وأوقات التلاوات والمعامل، وبكبسة زر واحدة تضاف المادة إلى التقويم الخاص بي والمرتبطة ببريدي! وهكذا يكون جدول الاستماع والدراسة جاهزاً.

في المنصة، تُعرف المواد برقمين، يمثل الأول رقم الكلية. والثاني رمز المادة، فمادة (xxx.15) مثلاً هي مادة تقدم في كلية إدارة الأعمال والتي رمزها (15)، أما الكلية التي أعمل بها، هندسة الإلكترونيات وعلوم الحاسب، فكل موادها تسبق بالرقم 6. معرفة أشياء بسيطة مثل هذه تجعلك منسجماً ومتسقاً مع حواراتك مع طالب من نفس الكلية أو حتى أستاذ، وتختصر عليك الكثير. الدخول في مؤسسة جديدة يعني أن تدخل في ثقافتها وتتعلم ما هو معلوم فيها بالضرورة، أن تتسق سريعاً مع نظام المراسلة والقوائم البريدية المهمة وغير المهمة وأسماء الأشياء والكنيات، بل حتى السخرية المباشرة وغير المباشرة. ما زلت أذكر المؤتمر الذي يقام كل عام والذي اكتشفت أنه «ساخر» للتنفيس وعرض الأوراق التي لم ولن تقبل، أو التي لا يمكن عرضها لحساسية الموضوع. إحدى الأوراق المنشورة فيه في 2016 تحمل في مكان اسم المؤلف: «ليس لدي اسم، وفيني الصيحة» ثم يُسهب في شرح وجهة نظره في أحد المواضيع المتعلقة بعلم الحاسب، والتي حاول نشرها يوماً لكنها لم تقبل للنشر، تنفيس جميل! إحدى القوائم البريدية والتي تعرفت عليها، هي للأكل المجاني، فمع بعض الفعاليات، يكون هناك بقايا أكل يأتي للقضاء عليه عشرات الطلبة والبوست دوك، المنقطعون عن العالم في معاملهم. ذلك يوفر وقتهم، وهو تدوير رائع فلا تبذير. بعض الكليات تفتتت في قائمة الأكل المجاني، وخصصت له مكاناً مزوداً بكاميرا مراقبة تعمل 24 ساعة. كل ما عليك هو فتح القناة إن كنت جائعاً لترى بعينيك وجود الطعام من عدمه. واشتركت وأشركت في عشرات القوائم غيرها العلمية والعامية.

في طريقي لحضور إحدى المواد، صادفت إحدى الزميلات والتي أطلعتني على المواد التي تسوقتها هي، وصدف أننا اتفقنا على مادة التواصل للقادة من كلية إدارة الأعمال، فذهبتنا لنحضرها سوياً. اقتربنا من القاعة فإذا هي لا تشبه قاعات كلية الحاسب الواسعة والتي تبتلع 200 طالب وبها استديو بث!

كانت قاعة مدرجة صغيرة تتسع لخمسين شخصاً على الأكثر، ومنصة صغيرة للأستاذ يقف في منتصفها يرتدي بزة رسمية بلون الليل، وربطة عنق تماثلها في اللون، وقميصاً بلون السماء. الحضور أنيق ومهذب بشكل لا يشبه أبداً ما اعتدت على رؤيته من ملابس «أي كلام» مع طلبة كلية الحاسب، مثل قميص قطني مهلهل وسروال قصير و«زئوبة»!

حتى الأساتذة الذين مررت عليهم إما يرتدون قميصاً بسيطاً، والأغلب يرتدي «تي شيرت». أما التدريس بالبزة الرسمية فهو شيء جديد علي! كان الطالب الذي أمامي يرتدي قميصاً ذا ثنيات مكوية، وبشعر مُسَرَّح بعناية شديدة. تصميم المدرج كقوس دائري يلتف حول المعلم ويستطيع من في أطرافه رؤية بعضهم البعض. وفي الطاولة التي يجلس إليها كل شخص، يوجد أحفور صغير يمتد من أول الطاولة إلى آخرها. وفيه تم تثبيت اسم الشخص بلوحة مطبوعة ومغلقة حرارياً! كل تلك علامات أشعرتني بالاختلاف عن النمط المعهود وأني دخيلة على تلك المحاضرة المتخصصة والتي هي أشبه بدورة مدفوعة فاخرة!

عرّف المعلم بنفسه كبروفسور وصاحب شركات، وعدّها لنا واحدة واحدة، وأكمل الشرح، إحدى تلك الشركات وصل تقييمها إلى أربعين مليون دولار! تخيلت كيف لتاجر وصاحب أعمال مرموق أن يكون في نفس الوقت معلمي في الجامعة. أمر مثير للطموح الريادي حقاً!

ذلك يتنافى مع ما أعرفه في أنظمتنا، حيث تمنع الأستاذ من امتحان أي مهنة غير التدريس، حتى لو كان يقدم حلولاً لشركة تحول النظريات والأفكار إلى منتج فاعل في الاقتصاد والتنمية، الأمر بدأ بالتغير الآن مع الرؤية الجديدة، وهذا مما يسعدني كثيراً. بدأ الأستاذ بإثارة الأمر الأكثر جدلاً، وضرب مثلاً لطلاب الإدارة في كلية هارفارد للأعمال (HBS) فهي الند المنافس لكلية الأعمال في (MIT Sloan)، وهي محط السخرية والغيرة وكل التندر اللطيف وغير اللطيف. وقال إنهم فاعلون في التواصل ويفتقرون للتقنيات، وأنتم على العكس لديكم تقنيات العمل وثفتقرون إلى مهارات التواصل. واستعرض رسماً يوضح ما الذي يحتاجه أرباب الأعمال من موظفيهم، وكان في قمة الهرم، إتقان تقنيات العمل، والثاني مباشرة مهارات التواصل الفعال أو

المهارات الناعمة (soft skills). فلا شك أن القالب الذي تقدم فيه مهاراتك من تواصل وخلق وحنكة وإدارة للمواقف مهم كأهمية درايتك التقنية بمجال عملك. استرسل في الكلام ونسيت شعور عدم الانتماء، فكان كلامه عذبًا سلسًا مَرِحًا.

درستُ هذه المادة وساعدت في تدريسها كمعيد، وها أنذا أدرّسها الآن كبروفسور، أظنني أكثر شخص تعاطى هذه المادة وفي هذه القاعة تحديدًا. قالها الأستاذ بابتسامة سخرية صغيرة.

استمتعت بهذا الدرس كثيرًا. لكنه كان آخر درس أحضره له، فالأستاذ ورجل الأعمال أخبرنا بحزم بأن الدرس للطلاب المسجلين فقط، بعكس عشرات المواد التي مررت بها في كلية الحاسب والهندسة والتي يرحب فيها الأستاذ بالجميع من كافة الكليات والخلفيات، بل يسمح لهم بالاشتراك في المشاريع ويرحب كثيرًا. حضور هذا الدرس أخرجني من نمطي الأكاديمي التعليمي المعتاد إلى نمط آخر معاكس ربما، وهو ريادة الأعمال.

(بزئس في الجامعة (2/2))

بعد محاضرة رجل الأعمال والأستاذ المتأق في مادة التواصل للقادة، سجلت في برنامج صناعة الريادة بقيادة البروفسور القتالق ومدير مركز ريادة الأعمال في جامعة (MIT) «بيل أوليت». على خلاف الكثير من الدورات والبرامج الإدارية والتنفيذية التي حضرتها خلال العشر سنوات الماضية، كان ذلك البرنامج عمليًا وثيرًا لأبعد حد. قابلنا فيه العديد من المؤثرين تقنيًا وعالميًا. منهم المشرف على الطالب «درو هاوستن» أحد طلاب كلية علوم الحاسب في (MIT). يقول المشرف: في 2006 كنت أمر على «درو» في مكتبه وأشفق عليه من كثرة جلوسه أمام الشاشة للبرمجة، وكنت أعظه بلطف عله يتنبه: «درو» هل حقًا ستعمل مخزنًا للملفات؟ وهل حقًا تتوقع أن يدفع لك الناس الأموال لتخزين ملفاتهم، وعلى السحاب؟ ذلك ضرب من تضييع الوقت والجنون. «درو» لم يلتفت لكلامي، وأيقن أن نقل الملفات ومشاركتها في وضعه الحالي يتطلب تخزينها في ذاكرة «فلاش» ونقلها يدويًا، ما يسبب ضياعها، وذلك ألم وهدر له علاج، وعلاجه دروب بوكس! كان يصل الليل بالنهار لتطوير منصته الحلم، ودعمته مسرعة «واي كومبايناتور» برأس مال قيمته 15 ألف دولار، والآن تقيم الشركة بأكثر من 12 مليار دولار. قصص كثيرة مرت علينا لمؤسسين خرجوا من رحم (MIT)، منهم مؤسس «إنتل» د. روبرت نويس المتخصص في الفيزياء، ومؤسس «بوز» للأجهزة الصوتية د. عمار بوز دكتور الهندسة الكهربائية، الذي عمل في التدريس مدة 45 عامًا! وسلمان خان مؤسس «خان أكاديمي» منصة التعليم المشاع، والمبدع د. إروان جيكوب مؤسس «كوال كوم» لحلول الحوسبة والاتصالات الابتكارية، المتخرج بدكتوراه في الهندسة الكهربائية وعلوم الحاسب، والذي عمل أستاذًا مساعدًا ومشاركًا مدة سبع سنوات قبل تأسيس الشركة. كذلك بروستر كال، مؤسس منصة «أليكسا» التي تهدف لفهرسة وعد صفحات الإنترنت وكثافة المرور فيها، وغيرها. تلك القصص والشواهد أشعلت الكثير من الأفكار في رأسي، وبيئت لي 3 عناصر أساسية تسهم في نجاح أي شركة تقنية ناشئة: القوة العلمية والبرمجية والتطويرية في الفريق التأسيسي، الإصرار على تقديم الحل ورؤيته بوضوح في آخر النفق المظلم، توفر الدعم اللوجستي والمادي.

وبالنظر إلى عالم الأنظمة الأكاديمية التي عملت بها في أكثر من ثلاث جامعات في العالم لأكثر من خمسة عشر عامًا، وعالم زيادة الأعمال التي تعرضت لها في بيئة ثرية تطبيقًا وتدريبًا، أرى هنا انصهار العالمين، فالتعليم

رفيق لإدارة الأعمال في صورة عملية داعمة للأكاديمية ولالاقتصاد، وفي هذا الانصهار تبينت بعض الأنماط والتقاطعات والفروق الطريفة التي تصل إلى التضاد بين قطبي هذين العالمين، وأخصها في التالي:

■

ريادة الأعمال

الأكاديمية

الأثر السريع

الأثر البطيء

الربح يقود العمل

الفضول يقود العمل

المعلومة قيّمة نشاركها بثمن

المعلومة قيّمة ننشرها بلا ثمن

تستفيد شركتي وتكبر

يستفيد طلابي والمجتمع البحثي

العطاء بثمن محسوب

العطاء قيمة بحد ذاته

استهداف الاستدامة ثم الربح

استهداف التجريب لكشف الحقيقة

حل المشكلة فعليًا مطلوب

دراسة المشكلة نظريًا كافي

العمل الإبداعي خارج الصندوق

العمل ضمن نظام ومنهج واضح
الدعاية والتسويق مهمة للعمل
العمل بصمت ليتحدث العمل
بالعلاقات نصنع المعجزات
في المعمل نصنع المعجزات
قدم عرضك بمهارة
انشر أوراقك بجدارة
مظهرك الشخصي مهم
عقلك المنظم مهم
بناء وتطوير وإنتاج
فهم وتحليل واكتشاف
الهوية وعاء العمل
العمل وعاء الهوية
المنتج فعال
المنتج صحيح
المنتج
الفكرة

(الفيزياء الاجتماعية)

قبل مجيئي إلى (MIT)، وكخدمة رائعة تقدمها المنحة التي سعدت بالحصول عليها، وهي التوفيق بين أساتذة الجامعة وبين العلماء الزائرين، اخترت ثلاثة علماء، كان أبرزهم بروفيسور أليكس بينتلاند، أو ساندي كما يُطلق عليه، فمجال اهتمامه ينصب مباشرة في قنوات اهتمامي وتُشغفي التي تشغبت بعد رجوعي من الدكتوراه، حيث إنني ملت إلى تحليل البيانات بالعموم وتحليل النصوص على وجه الخصوص. وفي وقت التسوق لمواد بداية العام لاحظت بأنه يقدم مادة اسمها الفيزياء الاجتماعية، شدني ذلك، وأضفت المادة إلى تقويمي وقررت الحضور. ساندي هو أحد أكثر العلماء تأثيرًا في التأليف لعلم الحاسب، وعدّته فوربز أحد أهم سبعة أشخاص في العالم في علم البيانات. أشرف على أكثر من ستين طالبًا للدكتوراه، نصفهم أعضاء تدريس في مؤسسات تعليمية مرموقة، ورُبعمهم تقريبًا يقود البحث والتطوير في مؤسسات صناعية رائدة، أما الربع الآخر فقد أسسوا شركاتهم الخاصة، وذلك حسب موقع ساندي في الجامعة.

ساندي هو أحد مؤسسي معمل الوسائط (Media Lab) في (MIT). ساندي نفسه أسس أو ساهم في تأسيس أكثر من عشرين شركة تقنية ناجحة، فبعد حصوله على البكالوريوس من جامعة ميتشيجن في علم الحاسب، حصل على الدكتوراه في مجالي علم الحاسب وعلم النفس من (MIT) واستمر يبدع في المجالين، إذ عمل في جامعة ستانفورد في كليتي علم الحاسب وعلم النفس، وذلك يفسر اهتمامه بموضوع الفيزياء الاجتماعية.

وصلت إلى المكان، المحاضرة تابعة للـ«ميديا لاب»، والذي اشتهر في كون أبحاثه تكسر الحواجز بين المجالات الأكاديمية المختلفة، فتتمازج التقنية، الوسائط، العلوم، الفنون، والتصميم بطريقة غير تقليدية، لتنتج منتجات في مجال الإلكترونيات، والترفيه، والأزياء، والصحة والألعاب، والاتصالات. تعارف أعضاء المعمل بكلمة يرددونها «ديمو أور داي» وتعني اعرض منتجك أو مُت، كون المعمل يهتم بالحلول المباشرة لتحديات العالم المختلفة بعيدًا عن التنظير وحده والذي تقبله بل ربما تنتهجه الكليات والمعامل الأخرى.

في قاعة صغيرة كان ساندي يجلس إلى طاولة بيضاء وحوله بقية الطاولات مصفوفة بشكل مربع مفرغ في المنتصف. القاعة صغيرة بالكاد تتسع لثلاثين شخصًا، ولم أكن أريد أخذ مكان طالب آخر، فالطلاب المسجلون أحق مني بالحضور من ناحية عملية، لكنني أملك من الرغبة والحماس ما يخولني

للحضور وبنقفة أفضا. بقف كرسف فاف فقط! افقءة إلفه وقلست، وكان ففقد إءف عقالته فمال بفرفقة ففافة وكءة أسقط، ضحكء بفنف وبفن نفسف «هءا أولها الله فسفر». ءبء مؤضع قلوبف قفءا، وأسءءء الكرسف على القءار، وأقءء أسفرع إلى سانءف بعفنف وأءنف وعقلف وقلبف.

بعء ءقائف بسفطة فوقف سانءف لفلبل من القضور الففرفف بأنفسهم. أسفرء فرءة الففرفف لعشرء القاضرفن من مءفلل المشارب. فهءا بروففور من الففان، وهءا طالب فف كلية هارفارء الطبفة، وهءا طالب ءكفوراه فف كلية أءرف، الكل فعرفف بنفسه وفذكر سبب قضوره أو قلففئه العلمفة والفف لها علاقة بالماءة. بءء المءاضرة بهءا القضور كمجمع علمف لكافة الففصاء.

ألقى سانءف مءاضرته فف الساعة الأولى، وكانء عن فلسفة الموضوع فارفخه وفطبفقاته والافءافاء القءفءة. فالفزفاء الافءماعفة الرقمفة، هف فرع لعلم الافءماع، قائم على إفقااء الءلائل الرقمفة على النواحف الافءماعفة المءفلفة، الفف فصعب ءراسفها وفهمها بالطرق الفقلفءفة. برع سانءف فف ابءكار أنموزق لها، فساعء فف فهم النسفج الافءماعف، وفقوم على ءراسة أنماط سلوكاء الإنسان بفصور فجمع الهندسة والفكءرونفاء، وعلم القاسب، وعلم الافءماع، وبعضا من نظرفاء الأفءصاء.

فف أءء المشارفب فم فركفب قساصاء فعلفة على جسم الإنسان، لقفاس مؤشراء افءماعفة مثل طاقة الإنسان المءففرءة من الفرف إلى القوف، وانقءاب الشءص فف مؤاطن مثل الفعارف، وأفضا سلوك المءاكاة «مءاكاة البائع للمشفرف» والفف ءبء أنه فرفع أرباح المففعااء إلى 13%. كل ءلك ففم بشكل رقمف مؤوضوعف فورف قفر منقاز أو قاضع للوصف الففضاف والفف كان ففم عاءة بالملاحظة الشءصفة المطولة أو الاستبانااء الوصففة.

وفف مشروع أءر فم فءلفل بفانااء الافءصاء من أبراق الافءصاء المءفلفة مع بفانااء الشراء، وفم القلوص إلى اسفءنءااء ءقفقة حول أنماط الفواصل والنشاط البشرف. فلك الأنماط فشمف القركة فف المءالاء الفءارفة، أنماط عمل المؤوظفن، الصءة الافءصاءفة للشركاء. أفضا أثبء ءراساه، الفف فمء فف معمله البءف، أن اسفءنمار العلاقااء بفن الأفراء لفسوق السلع له أءر ربقف أكبر من فسوق فلك السلع مباءرة للأفراء أنفسهم، هءا الأءر أكبر بأربع إلى عشر مراء، وءلك فعززه ملاحظة أن ءعافة لفسء هف القافز الأكبر لرفع المففعااء، بل المءمع المءفط بالعملاء وءأفر الأقران وأهمفة فعلقااءهم وملاحظااءهم على المءنء فف فسوقفه فف ما فسف ب «وش فقولون؟» أو

(word of mouth). أيضًا يُرى ذلك من خلال السلوكيات المعروفة اقتصاديًا، مثل سلوك «الهبة» (12) الاستثمارية، التي قد تتبع فقاعة سرعان ما تنفجر لتنتهي تلك «الهبة».

هكذا اخترق بروفيسور ساندي عالمي، علم الاجتماع وعلم الحاسب، بتقنيات أسماها بالفيزياء الاجتماعية، وخرج بنتائج ثورية على المستوى البحثي والاجتماعي وريادة الأعمال، في حراك يجذب أقطاب العلوم المختلفة (multidisciplinary) بما يعظم الإبداع العلمي والابتكار.

(مشوار صباحي)

قبل أن تنام، تأكد من غسل قلبك، ونشره على حبل الصفح والنسيان

في صباح شتوي شديد البرودة سحبت نفسي بصعوبة أتحمس طريقي في الغتمة. ووافق هذا الصباح، يوما من مهرجان الأنوثة الشهري، ذلك الوقت الذي أزع فيه «بقلة حيلتي وبكامل قواي العقلية» ذرة تحمّل بعضي إلى العدم! ما زال تشبيهه عقد اللؤلؤ الذي انفرت بلوغي وتتناقص حباته تدريجيا يثير الرعب في داخلي! لكني ألملم نفسي في كل مرة بالامتنان العميق لكل ما أملك من نغم غامرة ولآلئ وياقوت. من يدري؟ قد تكون الذرة التي أخذها علما منحتة بكل حب، أو أثرا طيبا حاولت خلقه، أو روحا أضأت فيها شمعة للأبد؟ هكذا أعالج نفسي وأغلق هذا الملف الذي يطل بين الفينة والأخرى.

كان جسدي منهكًا بالكامل وكنت في أدنى مستويات الأمل والتطلع والنشاط. أتيت على نفسي وأقنعتها بأني -ومثل كل مرة- بعد الاستحمام سأكون أفضل. سيما وأنا أستقبل صباحًا جديدًا، فأغدو خفيفة متنسقة مع النور، مغتبطة بالشمس، أصافح الوجوه بابتسامة ثقة في حفل الصباح الذي يستقبله الجميع بأناقة وانتعاش. اليوم، لا مساومة ولا تَوَان، كيف عساني أن أستريح في يوم محاضرة دافينشي البيانات، إدوارد تفت؟ كان البرد شديدًا لدرجة أن مروحة الشفط أصبحت مصدرًا لتيار بارد قوي مستمر وكأنه سيات تلسع ظهري. ولا تنقذني المياه الحارة المنصبة برفق على رأسي، فهي بالكاد تغطي جزءًا مني. تألمت من هذه البرودة، طفرت مني دمعة وأطلقت أنيني حُرًا غله يخفف ما بي.

كان التيار البارد يعنفني بقسوة. رفعت درجة التدفئة في الشقة للحد الأعلى. شعرت بتحسين طفيف أمكنني من ارتداء ملابس طبقة طبقة، فلا أريد أن يري البرد خلية مني، أو يلمسني مرة أخرى. استعرضت المكان على خرائط قوقل، كان يبعد بالسيارة مسافة عشرين دقيقة. ماذا عن الطقس؟ عشرة تحت الصفر، والشمس مشرقة طوال اليوم دون سحب! أه إنه يوم نادر. أغراني ذلك لأن أستقل دراجتي، فحرارة الشمس ستجري سحرها علي جسدي الذي يتوق للدفع، تأكدت من سرعة الرياح، 8 ميل في الساعة، جيد ليست عالية، فلا أريد أن «أطير» بدراجتي، أو أن أنحرف عن مساري بسبب الرياح. خطر في بالي كلام الناس عن «أسكوتلاندا» وكيف أنها «مرة باردة»، لكن هنا في بوسطن يبدو أن برد جلاسكو هو مجرد دعابة أمام العواصف

الثلجية التي إذا هبت تعطل الحركة والمواصلات العامة، وتتوقف فيها الجامعة والدراسة.

راودتني نفسي الحكيمة، أو الكسولة لست أدري، وأغرتني بأخذ سيارة أجرة فأرتاح ويرتاح بالي وأصل بحالة جيدة جداً وهندام عالي الترتيب والأناقة، والأهم بلا تعب. ثم ردت عليها نفسي التواقة للتحدي: بل استعملي عضلاتك لتشتيتها عن الألم المترکز أسفل الظهر والبطن، علها تنسى ويخف المغص، والأهم هو وجبة تحدّ لذيدة تشعرني بنشوة بيني وبين نفسي، فهي أطول مسافة أقطعها بالدراجة لغرض غير استجمامي!

كانت دراجتي تمثل لي الحرية، والصحة، والمغامرة، والسعادة، كنت أستقلها وأحبها وأتوق لفعل ذلك في بلدي. أخذت درّاجتي وسرت باتجاه المكان. كنت أسترق النظر للخارطة أثناء قيادتي الدراجة، شارع، انعطاف، جسر... وصلت للجسر وكان شكله مريّعاً! إنه طريق سريع... سيارات تطير بأقصى سرعة، وشاحنات ضخمة تسير بسرعة عالية بجانب الرصيف، فلا يوجد مسار للدراجات، حاولت أن أجد بديلاً لهذا الجسر، فلم أجد، فهو الطريق الأقصر الذي يربط كيمبردج بالطرف الشمالي لبوسطن. نظرت للطريق مليّاً، تلفتُ يميناً ويسرة، سبل السيارات لا يتوقف. لا يمكنني الوقوف الآن أو الرجوع، لم يبق على المحاضرة إلا عشرون دقيقة فقط!

خطر في بالي أن أسير على الرصيف الواسع فهو آمنٌ خيار، ولا يوجد مشاة على هذا الجسر وخصوصاً في هذا الوقت من اليوم. اخترت هذا الخيار حفاظاً على روعي ودراجتي الصغيرة المعرضة للطيران مع أي شاحنة تمر. أكملت صعود الجسر ثم هبطت واقتربت من مكان المحاضرة، وكان فندقاً ضخماً متصلاً بساحات للمعارض. وقفت بجانب مواقف السيارات بحثاً عن مكان أقفل فيه دراجتي... بالكاد وجدت حديقة معقوفة عند مدخل مرآب السيارات، فزت! وصلت!



(دافينشي البيانات)

«إذا لم تكن الكلمات صادقة، فأجمل الخطوط لن يحول الكذبات إلى حقائق!»
إدوارد تفت

كنت أتوق لفلسفته، التي تطرقنا إليها في مادة أخذتها في جامعة هارفارد تُعنى بالإخراج البصري للبيانات، أو ما يسمى (Data visualization) أو قُلِّسَّمَهَا من الآن «النمذجة». كانت بداياته في تطوير فلسفة إخراج البيانات بمجموعة مواد صممها لتعليم الإحصاء للصحافيين. درّس هذه المادة بالتعاون مع رائد تصميم المعلومات جون تركي. هنا كانت نواة كتابه الأول «العرض المرئي للمعلومات الكمية». تلتها كتبه الأخرى: «تصور المعلومات»، «الشروحات البصرية»، «الدليل الجميل». التي تعتبر مرجعًا مهمًا لمواد تمثيل البيانات ونمذجتها، أصولها تاريخها، وطرقها (13).

عدد الحضور تجاوز الثلاثمائة في قاعة يؤدي فيها «تفت» المحاضرة بأداء شبه مسرحي وعرض عميق في مدلولاته وأحاذ في إخراجها. كانت هذه المحاضرة تقام ضمن جولة يجوب فيها تفت مدناً عدّة في الولايات المتحدة لإلقاء المحاضرة. رسوم التسجيل كانت تقريبًا تغطي تكاليف كتبه الأربعة والتي أهدانا إياها بعد حضور الدورة. حان وقت الغداء، ومكان المحاضرة في قندق ناءٍ في منطقة لا أعرف عنها الكثير سوى أنها في بوسطن الشمالية، الجزء الأقدم من بوسطن المليء بجوازب السياحة، والمُنكّه بالنكهة الإيطالية. سرت مع الجموع التي توجهت للخارج. كانت الشمس تخبرني بدفئها المناسب بأنه حتى المشي لمجرد المشي خيار صائب. عند أول تقاطع انقسم الناس، توجه بعضهم إلى الشارع الشمالي باتجاه البحر، والفريق الآخر انعطف إلى اليسار في اتجاه لا أعرفه. توجهت مع المجموعة الأولى. سألتهم هل أنتم متجهون للغداء؟ أجابوا بنعم. وسرت معهم بشك يساورني بأنه ماذا لو كانوا مجموعة واحدة وأنا الغربية بينهم؟

قطع أفكارى حديثهم عن مطعم رائع لظهو السلطعون الطازج من بحار بوسطن، وكيف أنه الأول في المنطقة. زاد شوقي لرؤية هذا المكان. مشينا كثيرًا وقطعنا شوارع رئيسية إلى أن وصلنا إلى زقاق يرتفع مترًا واحدًا عن الشارع. صعدنا وسرنا مسافة طويلة، يميننا جدار ممتد من طوب أحمر وفيه أبواب زرقاء مصممة كبيرة، كأنها أبواب مخازن. ويسارنا سياج حديدي عتيق

منخفض يطل على الشارع. سرنا كثيرًا، وكلما استغرقتنا أكثر في هذا الممر ظننت أنني فعلاً أخطأت في هذه المغامرة، لأنني جائعة وليس لدينا من الوقت سوى 40 دقيقة للعودة للقاعة. لا شيء حولي يوحي بأن ثمة مطعمًا هناك، فكل ما حولي هو رصيف، وجدار مستقوف بجسر للسيارات. لا يمكنني الرجوع الآن إلى قاعة المحاضرة في الفندق، فالمكان بعيد وسأخسر وقتًا إضافيًا. الحل هو الاستمرار فلن يجتمع عشرون شخصًا على خيار سيئ لهذا الحد!

توقفت المجموعة عن السير، وتوجهوا إلى أحد الأبواب الزرقاء وهَمُّوا بالدخول، هنا ساورتني الريبة، خصوصًا أنه لا توجد لوحة عند المدخل، فسألت: ما اسم هذا المحل؟ أجابني أحدهم بأنه «بلا اسم»! وهو حقًا بلا اسم ولا هوية، كأنه مخزن للأسماك منسي بلا هيبة ولا وزن.

دخلنا، ويا للمفاجأة! كانت تصميم المكان من الداخل، فهو يحاكي البحر، كسفينة عتيقة، مخشَّب بالكامل، ومضاء بشكل طبيعي بخيوط الشمس التي تخترق جوانبه بزواوية فاتنة مكللة بهالة تزيد النور سحرًا، وتستقر على الخشب الداكن العهيد. رائحة الخشب تختلط برطوبة البحر، وبرائحة السلطعون المشوي. عند الجلوس تبين أنهم مجموعة واحدة يعرف بعضهم بعضًا، وشعرت ببعض الحرج. فالتجّهت إلى شخص كان يسير في مقدمتهم يقودهم إلى المكان، وسألته بهمس هل بإمكانني الجلوس معكم؟ رَحَّب بي وجلست معهم على الطاولة. حضر نادل مسنٌ ذو شوارب بيضاء عريضة وبطن منتفخ ووجنتين حمراوين وأخذ طلباتنا بروح جميلة وابتسامه عريضة وتعليقات طريفة وكأنه يملك الدنيا. وسألته أن يفصل حسابي عنهم. من فضلك: حساء الحلزون الصدفي «كلام تشاودر» وشطيرة السلطعون.

اخترت هذا الحساء بالذات لأنه طبق تختص به إنجلترا الجديدة، تتنافس المطاعم لتقديمه كأفضل ما يكون، وظننت أن هذا المكان سيقدّمه بشكل جيد لعراقته وتخصّصه. تبادلنا أطراف الحديث، ويبدو أنهم فريق التصميم في الشركة، وقد كان حضورهم ضمن خطة الشركة لتطوير الموظفين. غبطتهم قليلًا... لسببين، أولهما: أن ينسجم العمل مع الموهبة مع خطة التطوير المهنية المستقبلية فذلك نعمة كبيرة حقًا. أما ثانيهما: فهو أن الاستمتاع بمحاضرة ثمينة من علم ومؤسس لفرع مهم من العلوم هو ثمرة دائية في شجرة بوسطن وفيرة الثمار... يسهل على سكان بوسطن قطفها والتمتع بها. كان الحساء لذيذًا وخفيفًا وغنيًا بالطعم المميز. لا يشبه الحساء الذي يباع في مطعم الجامعة إلا في الاسم فقط. أما شطيرة السلطعون فهي

باردة لدرجة تجلب القشعريرة. لم أكن مستعدة لهذا المزيج البارد في ذلك اليوم بالذات، فمعدتي لم تكن في أفضل حالاتها. حان وقت دفع الفاتورة، وكان شخصًا واحدًا سيدفع للجميع. فأشرت للنادل بأن يحضر حسابي الخاص. نظر إليّ برحمة وقال لا عليك هذا الرجل الطيب سيدفع للجميع.

«لا كذا كثير، تطفلت وجلست وكمان يدفعوا لي!»

هكذا حدثت نفسي بقلق. حقيقة لدي صعوبة في أن يتحمل أحد الأصدقاء عني حساب شيء يخصني. فكيف بالغرباء!

قفزت إليه وخاطبته بكل لطف أن يفصل حسابي عنهم. فقال لا عليك. أصرت بحزم فلم يغير رأيه. خرجنا، وتحدثنا في أمور عدة، وطلبت بريده الإلكتروني بهدف شكره وتحويل المبلغ لحسابه لاحقًا، ووضحت له أن ذلك يخرجني. فوضح موقفه وقال: الشركة متكلفة بالغداء ولن أقبل أن تدفعي، بل أشكرك وأشكر شجاعتك في أن تقدمت وشاركتنا الغداء وقاسمتنا الحديث... شجاعتني؟ شكرًا لك.. يا للطفك وكرمك. قبلت على مفضل، لكن أسعدتني كلماته وقلت في نفسي «شجاعة أم لقافة أم جنون!»

عدت للقاعة، وجمعت في مذكراتي أهم استنتاجاتي في مجال نمذجة البيانات الكبيرة:

وظيفة الإخراج البصري للبيانات هي كشف ما لم نكن ندركه أو نعرفه بسبب حجم البيانات الكبير. أعرف محتواك، واحترم جمهورك فهو أذكى مما تتخيل. ابحث عن الحقيقة، والصلاح، أما الجمال فسيهتم بنفسه. تمرن أن ترى للتعلم وليس أن ترى لإثبات شيء لديك. كل نقطة ضوئية «بكسل» يجب أن تشهد بشكل مباشر على المحتوى وتصدقها. الأسلوب والجماليات، لا تنقذ المحتوى الفاشل. أعط الجمهور أعظم عدد من الأفكار في أقل وقت، وبأقل حبر ومساحة ممكنة. لا تتلاعب بالبيانات، بل اتبع ما تقوله لك هذه البيانات، فإنك إن عذبت بها بما فيه الكفاية، حتمًا ستقول لك ما تريده أنت!

(في العلم.. لا توجد عتبة أخيرة)

في محاضرة البصرييات لإدوارد تفت، كانت تجلس إلى جانبي سيدة تبدو في الخمسينات، مهتمة بالموضوع، وتعمل على تمثيل البيانات في المجال الصحي. تحدثنا حول أهم النقاط في المحاضرة، وعرّجنا على تمثيل البيانات، وأبدت اهتمامًا لأنها تحاول التعلم. وذكرْتُ لها كتابًا لتعليم تمثيل البيانات باستخدام لغة البرمجة «جافا»، والجميل في الكتاب هو وجوده مجانًا على الشبكة، ووجود شاشات لاختبار وتنفيذ البرامج المكتوبة في كل جزء. تبادلنا البريد لأمرر لها اسم الكتاب. التفتنا فإذا الناس كافة قد خرجوا! ألهذا الحد ثرثرنا كثيرًا؟ سألت نفسي... أو أنهم خرجوا بسرعة البرق.

سرنا سويًا نحو الباب، وعرفت فيما بعد أنها تعمل في مجال تحليل البيانات في أحد مستشفيات تورونتو بكندا. أعجبنى اهتمامها -رغم سنّها- بالبرمجة، ولست أقول ذلك تعنصرًا على العمر، فالعمر رقم، بل لإعجابي الشديد باحترام التطور في العمل، وتقدير بيئتها لتطويرها لمهاراتها البرمجية، رغم أنها لا تعمل في قسم التقنية أو الحاسب! وهي سمة للكثير ممن قابلتهم في بوسطن، فكنت أجلس إلى جانب طلاب علم النفس وطلاب اللغة الذين يتعلمون مهارات تحليل البيانات جنبًا إلى جنب! الجميع يريد أن يمتلك أداة ليتعامل بها مع البيانات الكبيرة، والتي لا يمكن التعامل معها بالطرق التقليدية السابقة، والجميع يريد الاستفادة من الخوارزميات والأدوات الذكية التي توفرها لغات البرمجة مثل (بايثون)، للتحليل والاستنباط والتنبؤ بالأزمات والتوجهات أيًا كان التخصص الذي ينتمي إليه الشخص. تطوير الذات بشكل عام سمة لمن قابلتهم وقت زِمّالتي في بوسطن، فلا مكان للساكنين الراكنين إلى شهادة أخذوها، أو علم حصلوا عليه يومًا ما. لا تتويج ولا «أبّهة» مطلقة كما يقول أشقاؤنا المصريون. الجميع بمختلف الأعمار يسعى ويجتهد ليكون أفضل إلى آخر يوم، فالمنافسة حامية والسقف مرتفع.

إذن أتيت اليوم من تورنتو؟ نعم... ورحلة العودة بعد أربع ساعات حضرت من تورنتو لهذه المحاضرة؟ نعم إنها مسافة طيران ساعتين فقط رائحة.. هل أطلب لك تاكسي؟ لا أظن أنني سأمشي قليلًا فلدي متسع من الوقت وأنت؟ سأستقل دراجتي وأعود.. هل لديك خوذة؟ للأسف لا، ولكنني عازمة على اقتناء واحدة أرجو أن يكون ذلك بأسرع وقت، كدت أفقد دماغي لولا ارتدائي خوذة! صحيح؟ كيف كان ذلك؟ كنت أسير في الشارع والجو ممطر وممرت

بجانبي شاحنة ماذا؟ قاطعتها ومنظر الشاحنات اليوم، وكل يوم، يمر في
مخيلتي برعب.. لا لا، الحمد لله، ما حصل هو أن الأرض كانت مليئة بالماء
ومرت بجانبي شاحنة وأمامي حفرة لم أتنبه لها، فتعثرت بها وسقطت
ليرتطم رأسي مباشرة بالأرضيا الله! أصبت بجرح في رأسي، ولولا أنني أرتدي
الخوذة لكنت قد فقدت دماغي! الحمد لله! الآن تحمست أكثر لاقتناء واحدة!
عليك ذلك! هل لك زيارة قريبة لتورنتو؟ نعم.. أراس جلسة في مؤتمر في
الصيف.. أظن أنني سأتمكن من القيام بها.. جميل ليكن على اتصال إذن وأراك
قريبًا في تورنتو!

(ابق جائعًا!)

«تشيكى ساينتست»، كان ذلك اسم المحاضرة التي شاهدت إعلانها في المصعد وحضرتها بداية وصولي إلى (MIT). المحاضر دكتور متخرج في هذه الجامعة، وقد فتح شركته الخاصة المسماة باسم المحاضرة. الشركة أنشئت لتدريب حملة الدكتوراه، على شؤون العمل والحياة خارج الأكاديميا، ولتهيئتهم لبيئات الأعمال والشركات. وبحسب الإحصائية المنشورة في المحاضرة نفسها، فإن أكثر من 60% من حملة الدكتوراه لن يحظوا بوظيفة. وأقل من 1% منهم سيتمكن من العمل كبروفسور على نظام «التيور»، وهو النظام المعمول به في أمريكا وكندا، والذي يمنح للأستاذ الجامعي وظيفة ثابتة دون شرط وتوفر له الأمان الوظيفي. يُمكن للدكتور الدخول في هذا النظام خلال عشر سنوات من الحصول على الدكتوراه. وفور الدخول في النظام، يتم منحه فترة من خمس إلى سبع سنوات، يلي ذلك عمل مراجعة لأعماله وتقييمها من ثلاثة نواح أساسية، وهي التدريس، والبحث، وخدمة الجامعة والمجتمع، ويكون بعدها القرار بمنحة الوظيفة الثابتة أو عدمه. و1% هو رقم صغير جدًا، فالتنافس في ذلك كبير، الخريجون كثر والجامعات محدودة وتطمح للأفضل، سيما جامعة مثل (MIT) ويُقدّم المحاضر وصاحب الشركة العون للمتورطين بشهادة الدكتوراه وبقايا أحلام صار أكبرها اقتناص «الهابي أور» ساعة الغذاء المخفّض لسد جوعهم. فهو يمنحهم شبكة واسعة من العلاقات مع الشركات، وتدريبات مكثفة للمقابلات، والمهارات الناعمة اللازمة لسوق العمل. بمقارنة سريعة بالوضع الثقافي والأكاديمي في المملكة، فالوظيفة الأكاديمية، دون التخصص، تكون ثابتة قد يفوز بها خريج مرحلة البكالوريوس أو الماجستير أو الدكتوراه وتبقى له للأبد. هذا الثبات أمن وصحي من ناحية، وخطر من ناحية الدعة والركون اللذين يصحبان الأمان العالي. اعتلاء الأبراج فخ! يسلبك فرصة من فرص الدافعية التي تدعو للترقى والتعلم المستمر. إن الشعور بالعظمة المفرطة، أو توهم الوصول المطلق، واعتياد حالة النجاح يحدّرك، ويفقدك تدريجيًا أدوات الوصول إليه في المقام الأول. أنا لا أدعو للتجويع للتقليل من جودة الحياة، بل الجوع الذاتي لرفع التطلع وعدم الركون للماضي، أو الإرث أو الدرجة العلمية، وأظن أن ذلك ما قصده ستيف جوبز بكلمته «ابق جائعًا». الجوع الاختياري والواعي هو منحة عظيمة، نستطيع اختيارها في خضم «العادي» و«المألوف» والمستمر. ذلك «العادي» والذي يبدو في ظاهره هادئًا وادعًا لا يلوي على شيء، لكنه يُسمّم روح الإبداع ورغبة الابتكار ويحبس الفكر في صندوق مُضمت بلا أسئلة أو تطلع أو شغف. والجوع هنا أيضًا هو التطلع

والارتفاع والتسامي عن الوضع الحالي، وهو الدافع للبحث عن الحل
«الغذاء»، بطرح الأسئلة التي تحفز كسر النمط السائد وكل ما هو موجود.
والجوع يعني أنه ليس لديك شيء لتخسره، أنت ستخاطر وتجرب وتحاول،
إما تكسب أو تكسب! تكسب الموضوع أو تكسب خبرة. وأنت بالجوع
ستحاول مرة، وأخرى، وأخرى حتى تصل إلى الثمرة! فجوئك يدفعك للصبر
والمقاومة حتى الوصول. ابق جائعًا باختيارك!

غرفة ضيقة لا تساع الجسد!

أطول الرحلات وأثمنها وأعظمها أجرًا، هي الرحلة منك «إليك»

كعادتي ألتهم كل ما على لوح الإعلانات في الساحة المطلة على مطعم الطلاب في الدور الأول من المبنى العجيب. لفتني إعلان لمجموعة الدراسات العليا للفتيات. سجلت في النشاط وأدرجته ضمن مواعيدي ومضيت. بعد أيام كنت قافلة من اجتماع مهم مع المشرفة... وجلست أحاول قطع أكبر قدر من العمل قبل انتهاء مدة وجودي في بوسطن وهي عام واحد. وصلني تنبيه موعد اليوغا.. أوه تبتأ... نسيت الموعد وهأنذا أرتدي لبسًا رسميًا «منشئي!»، أن أرتدي قميصًا وبنطالًا تم كيّه هو شيء نادر، حيث إنني أنتقي الملابس التي لا تحتاج لكي، في محاولة لتقليل الوقت المستهلك لارتداء الملابس.. هل أحضر على أية حال؟ فالجلسة ستكون مع وبتنظيم طالبات الجامعة للدراسات العليا، وقد لا تشبه تلك الجلسة أي جلسة يوغا في أي مكان آخر، لا بد أن أنتهز الفرصة...

وخطر في بالي درس يوغا حضرته سابقًا في بريطانيا مع صديقة بريطانية، دفعني فضولي للموافقة على عرضها، كانت القاعة حارة جدًا تتكدس فيها الأنفاس والأبخرة، تحوي أكوامًا من اللحم الأحمر المكشوف المجعد «أعتذر هنا وأنا أكين للكبار كل الاحترام» الذي يتحرك بمرونة عالية وبتناغم شديد، وأنا الشابة الوحيدة لكن بعضلات متصلبة، أنظر ولا أملك مفاتيح جسمي لأطبق مثلهم. أحاول.. فتأتي الحركة بإعاقة شديدة ورجفة ظاهرة تكاد تسقطني. أما من حولي فأجسادهم مطاط حُرّ يمتد ويتلوّى ويرتفع وينخفض بكل سلاسة ومهارة، كنت أشعر بالحرّج والإعياء، ومن حسن الحظ أنه لم يرمقني أحد، تركيزهم عالٍ بأداء متسق، يتخلله التنفس العميق والإغماض.

كان ذلك الحرّج مع الحرارة الشديدة كفيلاً بأن أقرر تجاهل أي نشاط لليوغا بعد ذلك اليوم وللأبد.. مر الشريط هذا سريعًا... ولكني تغلبت عليه وانطلقت إلى مجمع «كل شيء» أو مجمع الطلبة، حيث المطاعم والبقالة ومركز التصوير والبنك، وقاعات التدريب، ومركز البطاقات، ومكتب البريد والحلاق، والخياط أيضًا. كل شيء مجموع هنا لتوفير وقت الطلبة!

وصلت إلى المكان وتقدمت بخجل و«استعباط» أوه هنا جلسة اليوغا؟ نعم تفضلي... اممممم ولكن لم أرتدي لبسًا مناسبًا... أوه لا عليك فقط اخلعي حذاءك وشاركي... وفيما نحن نتحاور تمر الفتيات بِسُطِهِنَّ الملفوفة بعناية...

اه أنا لم أحضر بساطي أيضًا ربما أعود في يومٍ آخر... لا عليك خذي بساطي...
اوه لا هذا كثير وأنت؟ لا عليك حضرتها سابقًا... هيا هيا خذي البساط..

تشجيعها دفعني للدخول فعلاً، ولولاه للملمت نفسي وسرت بعيداً بحذائي
«الطقطاق» «البوز» وقميصي الفاخر... أخذت البساط بجذل ودخلت، فإذا
الصالة الكبيرة متخمة تكاد البسط تتلاقى من كثرتها.. وجدتُ فسحةً لأبسط
فيها بساطي بين فتاتين، إحداهما ترتدي سروالاً واسعاً وقميصاً سماوياً
قطنياً ممزقاً دون أكمام، تنظر للنافذة وتتنفس بعمق، والأخرى ترتدي سروالاً
قصيراً وحماله رياضية تغمض عينيها وتحاول الاسترخاء، وأنا هنا في
المنتصف بقميصي المقلم والمنشئ بلا كرمشة واحدة، وسروالي الأسود
الرسمي والذي أخبئه وأعتني به جيداً للمناسبات والاجتماعات المهمة. لا بأس
سأستمتع بهذه التجربة بأقصى ما يمكن. وضعت حذائي اللامع جانباً
وتنفست بعمق.

في المنتصف أمامنا سيدة واحدة فقط، كانت بدينة... جداً... ظننت أنها
القدربة حتى بدأت بالكلام، عندها صار الظن يقيناً وبالفعل، إنها المدربة...
فكرتُ بالهروب في جزء من الثانية... فأنا لا أريد تضييع الوقت وتكرار تجربة
اليوغا الساخنة بشكلٍ آخر... لكنها بدأت الجلسة بقصة مؤثرة عنها شخصياً...
تقول: كنت أحضر جلسات اليوغا ولا أستفيد، بل أتعذب جسدياً ونفسياً
وأخرج وكلي إحباط... حتى تعلمت أننا معشر البدناء لنا تحركات خاصة
وأسلوب يناسبنا... ومنذ ذلك الحين وأنا أعلم هذا الأسلوب حتى افتتحت
مدرستي الخاصة... والجميل في هذا الأسلوب أنه يناسب الجميع، وخصوصاً
المبتدئين... قصة جميلة حفزتني للجلوس... هكذا يؤمن أصحاب الأعمال هنا
في هذه المدينة المزدهمة بالرواد والمبتكرين بالقصص، ويحفرون ما
يريدون في عقلك بسحر القصة فقط، فقد تنسى شخصاً لكنك لن تنسى
قصته إن لمستك شخصياً...

بدأت الجلسة بلطف شديد، وكأنها اختزلت جمال اليوغا وقوتها وخلصتها
في حركاتها تلك... شعرت بجسدي يتحرك بسلاسة وخفة، ومفاصلي تتمدد
بكامل اتساعها... هيا... انسابي وانسكبي هكذا كدبٍ قطبيٍّ جميل.. نعم يدك
هنا.. امتدي وانتشري كضوء الشمس في أقصى مدى ممكن.. مزني ظهرك
جيداً... أتابعها بسهولة فتفتق طاقة مريحة من كل منطقة أستكشفها
وأعيها وأحركها... تنفس يتزامن مع حركة انسيابية تتم بكامل الوعي
والإدراك، يتمدد فيها الجسد وينكمش وكأنه يداوي نفسه ويعيد كل ما بعثره
القلق إلى مكانه الصحيح. كانت بدايتي هنا ثم استمرت الممارسة، وكان كلي
في كل مرة يصير أذنًا تصغي للكون داخلي ولدقائق جسدي بانسيابه وألمه

وتحدياته. يمتلئ كلي بالحياة مع كل شهيق يصل إلى أقصى خلية حاملة
ليبعث فيها الطاقة ويشعلها بقية الوقت، يشع جسدي ويمتد خارج أسوار
الإسمنت الصغيرة.. فلا حدود أشعر بها في تلك اللحظة.

(حلقات زحل)

إن ما تصنعه في نفس غيرك، ولو ذرّة، مُؤثر في ميزان الأخلاق، والآخرة.

حتى أتمم إجراءات انضمامي إلى نظام الجامعة، كان عليّ إتمام واجباتي في منصة «أتلس»، وهي منصة لإدارة الموارد البشرية. وللموظفين الجدد مواد ترحيبية وتوعوية بعضها إلزامي، والبعض الآخر تطويري اختياري، ويرصد فيها التطور المهني والإداري لمنسوبي الجامعة. من ضمن المتطلبات الإلزامية اجتياز دورة «التعريف والوقاية من سوء السلوك الجنسي». أجّلتها كثيرًا، ولم يتبق من المتطلبات والسياسات إلا هذه. ظننتها اتفاقية صغيرة أقرأها وأوقع بالموافقة. فتحت الرابط وإذا فيه دورة متكاملة تشمل التعريفات، الحقوق والواجبات، ثم عرض لقيّم الجامعة، وأخيرًا الاتفاقية.

حقّزني ذلك للقراءة حول الموضوع، كيف بدأ ووصل إلى هذا الحد من التنظيم والوضوح في التعريف والتشريع. أول استخدام رسمي لكلمة «التحرش الجنسي» كان في تقرير «حلقات زحل» للدكتورة ماري رو عام 1973م رفّعه إلى رئيس جامعة (MIT). حلقات زحل تطرق إلى العنصرية ضد الجنس والإيذاء للنساء والسود والأقليات في الدراسة والعمل. وصف بدقة ما يحصل من أخطاء جسيمة وتعديلات تُقوّض التمكين، والتي تمرّ شفافة دون إحساس أو نقد من المجتمع الأكاديمي. حلقات زحل الحقيقية والتي تطوف حوله وتُرى من بعد، تتكون من جسيمات لا نهائية من الرمال والثلج. تلك الرمال المتناثرة لا تشكل جسمًا مُعتبرًا بذاتها، بل تتجمع وتُشكل في مجموعها حزامًا يحيط بالكوكب ولا ينفك عنه. واسم التقرير هو كناية عن كون الإيذاء والعنصرية للأقليات والنساء قد يكون أحداثًا متفرقة أو كلمات غير مبالية، أو تصرفات فردية صغيرة «شفافة» هنا وهناك، لكنها تتجمع لتحيط الكوكب، وتعيق تلك الأقلية من المشاركة الفاعلة في النمو المؤسسي.

ماري رو كان لها الفضل في الحراك الذي قاد إلى كون جامعة (MIT) من أوائل المؤسسات الكبرى في الولايات المتحدة، التي أطلقت جملة من السياسات لتجريم «التحرش». وفي الحقيقة من خلال هذه الدورة تعلمت أشياء كثيرة، وتعرفت على مصطلحات لأفعال كانت تبدو ضبابية وعائمة في رأسي سابقًا.

سأستغل هذه المساحة لسرد أبرز تلك التعريفات لأهميتها، خصوصًا في مرحلة جديدة تشارك فيها المرأة الرجل في بناء الوطن، بدءًا من الأسرة

الصغيرة وانتهاء بأسرة الوطن بمؤسساته المختلفة. تضمنت التعريفات أشياء عدة منها: التحرش الجنسي، الإيذاء، عنف الشريك، الملاحقة.

التحرش الجنسي: هو سلوك جنسي غير مرحب به، لفظي وغير لفظي. من الأمثلة للفظي: مناقشة الشأن الجنسي للشخص نفسه، خيالاته أو تفضيلاته أو تاريخه. النكت الجنسية، وإصدار أصوات عدائية مثل صفير الذئب (14). وغير اللفظي يشمل: اقتحام المساحة الخاصة للشخص بالوقوف بشكل أقرب من اللازم. النظر للشخص بنظرات فيها إيحاء جنسي، تقديم الرسائل أو الهدايا غير المرغوب بها وذات الطابع الجنسي. نعم تستطيع الإبلاغ عن النظرات أو الهدايا الغير مرغوب بها! وهذا نوع من التحرش الذي يبدو في ظاهره بأنه أمر عابر أو تفاهة مهملة أو «كياتة» مقبولة، لكنه في واقع الأمر خارق للخصوصية والأمان الذي تنشده لأفرادها المجتمعات المتحضرة.

الإيذاء، ومثال عليه: الإذلال المتكرر والمتعمد، التدخل المتعمد في حياة أو عمل شخص آخر، تكرار الإيذاء لشخص بأنه فقد المهارة الشخصية أو المهنية لتقدمه في السن! أليس ذلك النوع من الأذى، دقيقا في حجمه وظاهره؟ وقد يمر مروراً عابراً لدي الكثير؟ لكن أثره قد يهدم روحاً أو يجرحها جرحاً عميقاً يؤثر في العمل والأداء. تعريفه والنص عليه بهذا الشكل هو حماية واحترام للروح، لبناء بيئة صحية.

عنف الشريك: وهو أي شكل من أشكال الإساءة: العاطفية كالإذلال والتهديد، الجنسية كالممارسة بالإجبار، الجسدية كالضرب، والتحكم كحرمانه من التعليم، أو من الوظيفة، أو من أهله وأصدقائه. وتستخدم من قبل شريك حميم للتحكم بشريكه الحالي أو السابق. تأملت ذلك كثيراً، وتذكرت كيف أن الكثير من أنماط العلاقات تقع في مثل ذلك الداء، والأدهى حينما يسمى بغير اسمه، ويصبر الشخص على الأذى بدافع الجهل الكبير والجمعي. كما شدني تعريف تلك الأمور بالأمثلة الجلية، والتي لا تترك باباً للأذى النفسي إلا سدته.

الملاحقة: هي أي سلوك صدر أكثر من مرة، وأدى إلى أن الشخص يخشى على سلامته الشخصية، أو سلامة الآخرين، أو أدى إلى الاضطراب العاطفي. ويشمل ذلك: ملاحقة الشخص، الظهور في مكان عمله أو بيته. التواصل المتكرر وغير المرحب به في وسائل التواصل الإلكترونية مثل الشبكات الاجتماعية أو رسائل الجوال. الاستمرار بالتواصل مع شخص رغم طلب التوقف. ترك رسائل أو مواد أو هدايا غير مرغوبة. تخريب الممتلكات، وأي سلوك بالتهديد، أو الترهيب، أو التطفل. تأملت الملاحقة وتعريفها وتجريم دقائقها الصغيرة شكلاً، والكبيرة أثراً وهدماً، وكيف أنها سلوك غير حضاري.

لم يكن يخطر ببالي أن «اللقافة» المتعمدة والمستمرة هي من الملاحقة التي يعاقب عليها القانون.

الموافقة: جاء تعريف الموافقة وشكلها وأمثلة عليها، الموافقة الواعية للطرفين شرط للتواصل الحميم المقبول قانوناً. أي سلوك يخلو من الموافقة ينطبق عليه كل تلك التعاريف السابقة. ذلك المفهوم يوضح أهمية ردة فعل الشخص لأي عمل لا يرغب بحصوله، فعليه أن يُظهر الرفض وليس مجرد الصمت، فالصمت نوع من الموافقة، وليس كل صمت فضيلة!

الشاهد: وهو الشخص الذي شهد أي من هذه الأفعال أعلاه، وتوجيهات لكيفية التصرف من قبل الشاهد بثلاث خطوات أساسية: التقدير، التقييم، التصرف. وذلك لرفع الأذى وصنع التغيير. وأن مجتمع الجامعة مترابط ومتعاون ويدعم القيم المشتركة وكل شخص فيه، هو شاهد نشط. مع شروحات وأمثلة مستفيضة لكيفية التدخل السليم من قبل الشاهد، دون أن يضر نفسه أو غيره. ترسيخ فكرة الشاهد النشط هي إحقاق للحق ونشر للمعروف ونهي عن المنكر باتباع قاعدة «لا ضرر ولا ضرار»، وهي تجسيد للُحمة مجتمع الجامعة الواحد، الحريص على أمنه وسلامه.

كنت أتساءل كيف يعمل هذا الكيان بتناغم ونظافة عجيبة، هل هي الأخلاق وحدها؟

تأملت تفصيل القانون في ذلك إلى درجة تحريم النظرة الآثمة وإنزال العقوبة المناسبة إن حصلت، وفهمت حينها أهمية القانون المفصل لحماية المجتمع ودفعه للتقدم المضطرد في بيئة آمنة.

(بداخلنا مجد)

في صباح أحد الأيام الجميلة مَرَزْتُ على مكتب بروفيسور روث، المجاور لمكتبي في (MIT)، وهي متخصصة في علم الدماغ والعلوم الإدراكية، ومهتمة في العلاقة بين التشكيلات البصرية وما يراه الإنسان وبين جودة أدائه للمهام. صادفتها وأنا خارجة من مكتب مشرفتي، وفي رأسي الكثير من الأفكار التي أودُّ جدولتها، نادتنني ودعتني للدخول بقولها: تعالي أنظري.. لدي شيء مثير أود أن أطلعك عليه!

دخلتُ مكتبها الذي يحتوي على أريكة تبدو عليها آثار الزمن، وطاولة خدمة، ومكتب «وقافي». شاشتها ولوحة المفاتيح مثبتة على ارتفاع معين يمكّنها من العمل عليه وهي واقفة. تساءلت في نفسي: يا ترى ما الذي يدعوها لكل هذا الحماس، لتريني ما لديها؟ لم يكن لدي تصور لأي شيء، توجّهت وكلي فضول لمعرفة الموضوع. وقعت عيني على صفحة من الإذاعة الوطنية العامة (NPR) وفيها صورة فتاة محجّبة، شعرت بوخز في بطني وأوجست في نفسي خيفة وقلت: «يارب شي زين».

بَدَدْتُ هذا الشك ملامح وجهها التي تنضح بالحماس وابتسامتها العريضة المليئة بالفخر وأشارت إلى الصفحة وهي تقول:

هذه فتاة سعودية في مقتبل العمر تتحدث عن نفسها وأحلامها وحياتها كل يوم للإذاعة.. وتحلم بأن تكون عالمة يومًا ما... أظنها شجاعة ومتميزة! ما رأيك بذلك؟ أليس هذا مثيرًا حقًا؟ تذكرني بك.. لعلك تشبهينها! ضحكك بدهشة وخجل وقلت فعلا هذا خبر مثير حقًا! يسعدني أن أقرأ عنها أكثر! وكنت أقول في نفسي: من يا ترى هذه الفتاة التي تتكلم كل يوم للإذاعة وتحلم أن تكون عالمة؟ نعم.. سأرسل لك الرابط الآن

مضيت إلى مكتبي وأول شيء فعلته هو التوجه للبريد الوارد، وجدت الرسالة ومحتواها رابط واحد، ضغطت عليه وانتقلت إلى موضوع الفتاة في صفحة الإذاعة، التهمت الموضوع بحماس، كان يتحدث عن تجربة التدوين الصوتي اليومي الذي قامت به الفتاة، وكان المقال تلخيصًا لأهم النقاط المثيرة التي وردت في يومياتها خلال عام كامل.. نال إعجابي هذا المشروع المنظم. «ليتنا نعمل مثله» وهذا شأن في كل الأفكار الجميلة التي أصادفها، أتمنى أن لدي شركة اسمها «دهشة» لأنفذ فيها كل الأفكار المدهشة التي أظن

أنها ستتصنع شيئًا جميلًا في العالم. قرأت وقرأت وفي كل مقطع ألمس شيئًا مألوفًا، ازداد حماسي لإكمال القراءة، وتعرفت على الفتاة!

ويا للعجب تلك الفتاة هي مجد! وللمرة الثالثة تجمعنا السياقات المفاجئة بعد لقائنا الأول في دروس الكاراتيه للدفاع عن النفس!

رسخت في ذاكرتي مجد دون الكثيرات اللاتي حضرت معهن الدروس، لأنها كانت الوحيدة التي اختارت أن تحل الاختبار التحريري باللغة اليابانية، لغة الكاراتيه الأصيلة، وهي أصل الإجابات الصحيحة، لكن كلنا نختار الحل باستخدام الإنجليزية و«بالله». تثق المدربة «السنسي» بمجد كثيرًا، فتمنحها فرصة ترؤس المجموعة أحيانًا لعمل تمارين الإحماء. لتبدأ قبل أي شيء بالتوكيد على إنزال الرأس للأسفل مع كلمة «أوس»، ثم ننظر لأسفل وترد أيضًا «أوس» تلك الكلمة لم تكن تحية بداية فقط كما كنت أظن، بل للكلمة شقان، معناه: «الدفع» و«المعانة»، ومع بعضهما يرمزان إلى الدفع المستمر للتقدم والازدهار مع تقبل المعاناة والصعوبة والألم الذي يصاحب هذا الدفع...

وكأنها توكيد حرفي على الموقف الإيجابي، والروح المعنوية المرتفعة، ورفض الانسحاب، وكل ذلك من سمات المتدربين على الكاراتيه. تبدأ الإحماء بعد التحية بالعد الياباني «إتشي، ني، سان، شي، قو...» هكذا مع كل إيماة تؤديها بتؤدة وعناية فائقة تشعر أنك حقًا في درس ياباني متقن.

في المرة الثانية، كنت مدعوة لحفل عشاء يضم زميلات المهنة، وصادفتها بعد العشاء وتجاوزنا أطراف الكلام، وكل ما أعرفه وقتها أنها ذات صلة بصاحبة الدعوة.. أخذنا الحديث وعرجنا على رغبتها في إكمال الدراسة في مجال الهندسة الجينية...

ثم سألتني هل لديك أخت تأخذ دروس الكاراتيه؟ قلت لا.. باستغرابها عليها الاستغراب أيضًا وقالت: لكنها تشبهك... ربما أنك تقصدينني؟ أنا التي... وغرقت لأجزاء من الثانية في عملية استرجاع السرعة القصوى لكل من حضر معي الدرس، كانت هناك مجد في الدرس نعم... لكن؟! سألتها بشك بالغ: أنت مجد؟! «اللي تحل الاختبار بالياباني؟! قالت بابتسامة عريضة.. نعم!» أنا اللي كنت أحضر معكم بشحمي ولحمي!!

الطريف أن كلتينا لم تعرف الأخرى... لم يكن مرَّ على لقائنا أكثر من عامين، وعزوت السبب إلى الفرق الشاسع بين هيتتنا في درس الكاراتيه، حيث كل ما نرتديه هو بدلة التدريب البسيطة «المبهدة من النطنطة» ورباط شعر! وبين زي السهرة والحرائر التي تفللنا بها مع الحذاء بالكعب العالي والمكياج،

والشعر المنسدل على الكتفين.. كان ذلك كفيلا بأن تضلّ النواقل العصبية طريقها لاستخراج أي علاقة من الذاكرة!

مجد! معقول؟ لم أكن أعلم أنها ابنة لإحدى أعز زميلات المهنة والتي أعتز بمعرفتها وقصة كفاحها كثيرًا، وهي من استضافتنا اليوم! كانت سعادتي بهذه الصدفة كبيرة، وعلّقت قبل خروجي لوالدتها الكريمة «مجد اسم علي مسمى، وهذا الشبل من هذا الأسد».

والآن هذه هي المرة الثالثة التي ألتقي فيها بمجد عبر مقال قرأته عالمة للبصريات والدماع لتناديني وتخبرني عن مجد!

حضر إلى ذهني هذا البيت:

لا تحسب المجدَ تمرًا أنت آكله .. لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبر

فكيفما قرأت الكلمة الأخيرة فهي مقصودة!

الصبر، بكسر الصاد يقصد به المادة الطبيعية شديدة المرارة والتي تبرى كمية صغيرة منها الكثير من العلل... وفيه كناية عن أن طالب المجد والرفعة لا بد أن يمرّ بمرارة في طريقه، مرارة الإتيان على النفس التي تميل للكسل والركون لدائرة الراحة، مرارة الإخفاقات التي قد تحجب أفق الأمل لكنها سرعان ما تزول وتكون مؤقتة وتُسفر عن إمكانية أعلى لخوض المعركة القادمة، إذا ما تمت إحاطتها بالصبر بفتح الصاد والإصرار... الصبر على صبر السفر في الحياة، والعجيب أن في عاقبة ذلك سعادة نوعية لا تشبه أي سعادة أخرى ولا تُشرى بالمال حتمًا.. سعادة يجدها من جدّ، ليُدمن الإثجاز بعد حلاوة الجائزة التي نبتت في صدره...

كتبت هذه الرسالة لمجد لأعبر عن فخري وسعادتي الكبيرة بها، بإصرارها على التدوين الصوتي اليومي مدة عام، وتعلمها الذاتي للغة اليابانية، وبحلمها وعزمها أن تكون عالمة تصنع تغييرًا في العالم.. احرسي الحلم مجد! وليكن «مجد» بداخل كل منا!

(أسبي)

أول مادة حضرتها للسمع كانت تَعَلُّم الآلة. حضرت قبل موعد المحاضرة وانتظرت خارج القاعة أتفحص وجوه العابرين المارين بعجلة وأعينهم معلقة على باب المبنى للخروج. بينما فوج آخر قرب باب القاعة يتوافدون تدريجيًا لدخول القاعة، كنت بين الفوجين أتأمل، لم يمر وقت طويل حتى فتح باب القاعة وخرجت منها أيضًا مجموعة كبيرة، ثم بدأنا نحن في الدخول، واخترقتُ الأفواج التي سالت نزولًا علي مدرج القاعة الهائلة، وهي أكبر ما رأيت، لأجلس في أقرب مكان ممكن للألواح.

جلست على كرسي خشبي عتيق متصل بطاولة صغيرة عليها آثار البشر والزمن والاستهلاك. استمر سيل الطلاب في النزول بكثافة لملء عشرات الطبقات من الكراسي المصفوفة بشكل مقوَّس مقابلًا لمنصة تحمل أربع مجموعات من الألواح الخشبية الخضراء، وكل مجموعة بها عدد من الألواح المصفوفة بشكل متراكب على منزلاقات لسهولة التحريك لأعلى وأسفل. تذكرني بالشريط الجانبي لنوافذ «وندوز». توجد ٣ عارضات ضوئية «بروجكتور» في القاعة، ولكن لا يستغني الأساتذة هنا عن الطباشير. تسمع ضجيج الطلبة، ودردشاتهم، والبعض غارق مع نفسه في جهازه المحمول. عن يميني طالبة ينسدل شعرها المجعد ليغطي ظهرها وجزءًا من وجهها، ملامحها دقيقة وحادة، ترتدي نظارة.

أهلا، من أي قسم أنت؟ آه، أنا لست من هنا، أنا من فلوريدا تملكنتي الدهشة والفضول.. وكيف أتيت إلى هنا؟ أنا طالبة دراسات عليا في قسم الكيمياء وأود الاطلاع على طرق تعلم الآلة... سمعت أن الأستاذ جيد جدًا نعم، ذلك متوقع، بابتسامة وإيماءة موافقة

بدأت المحاضرة، بقيادة أستاذ المادة، وقد عرّف بكل مساعديه في المادة من المعيدين والمحاضرين. لمحت الشخص عن يساري فهو يبدو أكبر من طلاب البكالوريوس فخلته مستمعًا مثلي. حضرت معه «صدفة» إلى محاضرة أخرى وثالثة. عجبًا يبدو أن لديه نفس الاهتمامات!

تكررت اللقاءات في المواد المختلفة، وعرفت أنه «بوست دوك» وأصله إيطالي، من قسم الهندسة الميكانيكية. أسبي رجل في منتصف الثلاثين يرتدي السترة السوداء نفسها في كل مرة ويحافظ على فوضى شعره بشكل رتيب. أسبي رجل خالٍ من الملامح والتعابير، يبتسم نادرًا، يشبه الروبوت!

بعد إحدى المحاضرات سألته: هل سمعت عن دورة «إدارة النزاعات»؟

قال بنبرة آلية: لا، متى تبدأ؟

ستبدأ الأسبوع القادم والعدد محدود

-اها-

-سأمرر لك بريد الدعوة

-حسنًا.

حضرت اليوم الأول وهاهو في أقصى اليمين على طاولة مع رجل وقور وامرأة تقرأ من ملامحها الجادة وتجاعيدها الصغيرة الجديدة أنها في منتصف مشوارها المهني. فوجئت برؤيته، أشرت له أن مرحبًا، لم ينتبه، لوّحت له بذراعي فشاهدني الرجل الذي بجانبه ووكزه بخفة، ردّ أسبي التحية أخيرًا بابتسامة كبيرة جدًا غير متوقعة تشبه حضوره غير المتوقع.

كانت الدورة لمدة ثمانية أيام، نخرج إلى مكاتينا سويًا، ونعلق على أهم النقاط على عجاله. في اليوم الرابع كان علينا أن نحضر قبل الوقت المعتاد بعشر دقائق لعمل تمرين خارجي، مررت على مكتب أسبي لأذكره بالوقت، فقد تأخر دون عذر واضح في المحاضرتين الأخيرتين. وجدته ساهمًا يحملق في الشاشة التي تظهر فيها نوافذ كثيرة مصفوفة ومرتبّة بين شاشتين كبيرتين ينظر إليهما بالتبادل ويكتب في محرر «بايثون»... يرتدي سماعات كبيرة تفصل أذنيه عن العالم وتحجب عن سمعه الدنيا. اقتربت من مكتبه إلى درجة يستطيع فيها رؤيتي جيدًا. نظر إليّ ونظر إلى جواله، وقفز سريعًا للخروج.

مرت الدورة سريعة، وفي اليوم الأخير، تسلّمنا شهادتنا والتي لا تعني شيئًا مقابل ما تعلمناه من إدارة للنزاع وتدريبات عملية لفضّ النزاعات، والتي قد تحدث حتى بين الأكاديميين أو الباحثين، فليس أحد معصومًا منها.

ماذا استفدت أسبي؟ كانت رائعة... حقًا أظنها دورة رائعة! ليست الدورة، بل الحكاية أي حكاية حكاية الفتاة المصابة بمتلازمة أسبرجر! هه؟ في اليوم الرابع وقبل نهاية المحاضرة بربع ساعة كانت ايلين -مدربة الدورة- تسرد حكاية عن صديقتها المصابة بطيف التوحد، وكيف أنها لا تعرف وقت الخروج المناسب من بيت من يدعوها، فيشعر من دعاها بحرج، فعندما علمت

بتشخيصها أعلنت حالتها لأصدقائها، وطلبت منهم أن يقولوا لها صراحة بأن عليها الخروج في الوقت الذي يروونه مناسبًا لهم، والتقط أنفاسه بعد هديره المتواصل.. هل تذكرين تلك الحكاية؟ حاولت التذكر لكن ذاكرتي لم تلتقط أي إشارات حول الموضوع.. لكن ماذا بها؟ وكلي استفهام عميق وتعجب فكيف كانت تلك الحكاية سببًا لامتنانه الكبير؟ أنت لا تفهمين، فعند سماعي للحكاية، التهمت كل ما كُتب عن طيف التوحد... وكلما قرأت أكثر، كلما اكتشفت أن الأعراض تصفني أكثر! أعراض...؟ أعراض متلازمة اسبرجر والتي تسمى الآن طيف التوحد عالي الأداء... كانت صدمتي كبيرة عند قراءتي للأعراض... صدمة شافية وكأني وجدت كنزًا... وأخيرًا فهمت لماذا أنا مختلف! اشرح لي المزيد... علي الرجوع لدي اجتماع مع رئيس المشروع... حسناً أراك في وقت لاحق...

اشتعل رأسي بالأسئلة غير المنتهية... ودفعني الفضول لأعرف أكثر عمّ يتحدث أسبي... وما الذي يصدمه ويشفيه إلى هذا الحد...؟

ما إن رجعت إلى المكتب حتى أغلقت كل رسائل اليوم وأنهيت الأعمال الملحة ثم شرعت بالقراءة. قرأت كل ما أمكنني قراءته، المدونات، الكتب، شاهدت المقاطع المرئية... كنت أفهم شيئًا وأجده يصف أسبي بدقة... وفي أشياء أخرى لم أكن متأكدة.. وجدت قائمة فيها الأسئلة التي تكشف احتمال إصابة الشخص بالمتلازمة، عزمت على مشاركته إياها. في صباح اليوم التالي وجدت رسالة من أسبي ولكنها ليست من بريده الرسمي:

أعتذر عن انصرافي اليوم وانقطاع الحديث بيننا، ربما الكتابة في هذا الموضوع أسهل من الحديث عنه. من أين أبدأ في اكتشاف العظیم هذا؟

كان لذيذاً اختلافي عن الأطفال حولي، واحتضان عائلتي لي وتقديمهم الحب غير المشروط، وتبصّرهم في إبداعي وفي كل ما أصنع. فأنا أغرق في المهام التي أحب بتركيز عالٍ وشغفٍ فائق. ثم عندما كبرت وخرجت للعالم، أصبح الوضع غير لذيذ البتة! فلم يكن لدي «شلة» أصدقاء، ولم تكن لي خلية في حياتي... أظن أنني لا أصبر عليهم ولا يصبرون علي، فأنا أخيب ظنهم كثيرًا.

لدي براعة في خلق انطباع سيئ، بنية حسنة! ولا أعلم ذلك إلا من مقاطعة من أتعرف عليهم لي، وللأبد. كنت أعتقد في قرارة نفسي أن الناس أغبياء في طريقة تفكيرهم الفوضوية وغير المنطقية... ويا لعجب الأيام... أظن أنني أغباهم الآن...!

صديقي بيل كان يصفني بالأناني «المصلحجي» وعديم المشاعر.. ويغضب
مني دون سبب واضح... كان يفضل صحبة أخي الأصغر، رغم أن أخي لا
يقدم لبيل أي فائدة... بل يتشاجر معه دائماً... كان يؤلمني ذلك ويحيرني
ويزيدني يقيناً في أن بيل أحرق حقاً...

كنت أشعر في قرارة نفسي بأنني ساذج اجتماعياً. سرّاً، اشتريت كتب
المهارات الاجتماعية، والذكاء العاطفي، أملاً في رفع ذكائي الاجتماعي،
وتسيير علاقاتي المتخشبة، بعض أفكار تلك الكتب تعلق قي أشجار عقلي
ووجداني واستفدت منه وتقمّضته، والكثير منها تسرب في ثقب أسود، ولم
يغير في واقع مستنقعي الاجتماعي شيئاً، أو ربما غيّر قليلاً؟ لكنني أشعر بأن
سفينتي مثقوبة ولم يرتقها كل ذلك. في المحافل الاجتماعية أشعر أحياناً
بأنني قطار صدئ بالكاد يشتعل ويتحرك، ومن حولي يطيرون «بفيراري»!
الآن عرفت أن ترف تلك المعارف والكتب لم يتطرق مثلاً إلى حاجة أساسية
نعاني منها، وهي أميّة قراءة الوجوه واستنباط المشاعر منها، وهو مفصلي
في نجاحنا في أبسط تواصل، لم تتطرق له الكتب لأنه بدهي في عقول
الغاديين لا يحتاج إلى تعلم، الله خلقهم بتلك القدرة لقراءة تعابير الوجه،
بينما نفقدها نحن.

على أية حال، أعترف بأنني أشعر بالسعادة المطلقة كون ما أمر به له اسم
علمي، وملايين البشر يشاركونني نفس التجربة، والمعاناة. عرفت وفهمت كل
ما كان يجري معي... وفهمت كيف أنني كنت أجد سلوأي من فوضى العالم
وضجيجته بالبرمجة التي تسعدني وأخلق فيها عوالمي المرتبة والتي تسير
بذكاء ودقة متناهية كما أريد... لدي نقاط قوة سأستثمرها جيداً.. ليست في
الجانب الاجتماعي بالطبع... لكن أظن أنني سأعيش...

شكراً لأنك دعوتني لهذه المحاضرة!

وداعاً

مع ماري لا يمكن أن تخاف!

«في كل «مشوار» في الطبيعة، يأخذ المرء أكثر مما يطلب». جون ميور

اقتناص الفسح من بين دواليب العمل أصبح مهارة مهمة في صندوق أعماله في مرحلة الزمالة في بوسطن، حيث تعلمت من تجربة الدكتوراه، أن الأيام الصعبة ستمضي، وأن تمضي وأنا سعيدة أهتم لفسحتي وصيانة روحي وعقلي أفضل من أن تمضي وأنا أقضي وقتي كاملاً للعمل المستمر في ضيافة القلق. ففي الأولي أتقوى بسعادتي على العمل وأكون أكثر إنتاجية، وإن بدت الثانية مغرية أكثر لضميري الجلال، وأنستي الطموح الشديدة، فهي مصيدة خادعة دائماً. كان والدي يكرر عليّ منذ بداية عشريناتي كلماته تلك: «اعتني بجسدك جيداً فهو مفتاح صحة عقلك، ولو أن تترضي في غرفة حجمها متر في متر، لا يوجد أي عذر لذلك!»

كان يقولها بحزم ويحثني لتنفيذها بكامل الإصرار، وكأن حرباً ستقوم لو لم أنفذها! لكني كنت أستقبلها باستهتار مدلل، وأنا أسبح في ترف نعومتي وارتياحي، مستظلة بكنف أسرتي، غارقة في هرمونات سعادتي الوفيرة. بعد اغترابي وعملي في مشروع الرسالة الطويل «جداً»، والذي امتد لسنوات، اختلف الأمر وصرت في أرض المعركة وحدي. حينها «ضربني» القلق بصفاقة وجرأة، أيقظني لأبحث عن درع، وسيف صلي، وخيل، ولأقتفي كلمات والدي مؤمنة بها تائبة ممتنة. كنت في فانكوفر لمهمة عمل، وعلمت بذلك أمي الأسكتلندية وعرفتني على «ماري» صديقة لها في سياتل، الولايات المتحدة، وهي تشبهها في أنها تفتح بيتها للجميع. ولها عشرات الأبناء البررة من الطلبة من مختلف أنحاء العالم، الذين ينعمون في بيتها الفسيح بالسكن والأنس. إنه وقت الصيف حيث تزدان خطط التنزه والتخييم. أرسلت «ماري» بريداً لدعوتي لرحلة تخييم في الغابة، بدا ذلك مثيراً. ولكن ترددت لأن وقت المخيم يوافق وقت مهرجان الأنوثة الشهري، وجرت العادة أن درجة حرارة جسدي تنخفض كثيراً فأحتاج إلى مكان دافئ، وإلى الراحة النسبية، فلم أرد أن تكون أول تجربة تخييم لي بهذا الحجم من التحدي، فضلاً عن كوني لا أعرف شيئاً عن المخيم، سألت ماري سؤاليين فقط لكنني في الحقيقة أود أن أسألها مائة سؤال ولا يكفي، هل هناك دورات مياه؟ وهل هناك كهرباء؟

أجابتنني بإجابة مطولة وافية، شاملة الموقع الإلكتروني الذي تم حجز مكان التخييم عن طريقه وهو المتنزه التاريخي للولاية. واقفت وتوجهت إلى بيتها

في سيائل البهية وكأنها مدينة مثالية بها كل التضاريس من غابات هائلة وجبال مكللة بالبياض تحيط بالمدينة وتُرى من شوارعها بسهولة، وأنهار تخترق المدينة بجرأة باذخة، وبحيرات كمرابا الكون وادعة وعجيبة. استقبلتني في حديقته وقدمت لي التوت الأحمر الذي قطفته للتو من شجر تداعبه شمس المغيب ويحيط بالسور الذي لا يكاد يظهر من تزاخم الأشجار المختلفة بمحاذاته. كان التوت لذيذاً وبطعم مركز مميز رغم صغر حباته. أستطيع أن أعيش هنا بقية عمري، أو هكذا حدثتني نفسي. بقي على الرحلة يومان، قابلت فيهما الصديقة الأثيرة «د. منال». وأظنها أول عالمة سعودية تعمل في مايكروسوفت. أخذتني في جولة على المكاتب التي تعمل بها، وعلى مناطق الإبداع التي تشي بتفجر الأفكار والابتكار وتقديره والاحتفاء به في تلك البيئة. سعدت بتلك الجولة التي ألهمتني، وشكرت الإنسان فيها، ودعوت لها بالنماء والسلام المستمر. صادقت د. منال في أكبر مؤتمر للحاسوبيات في العالم (15). شدتني في قصتها المثابرة والمبادرة المستمرة حتى أصبحت موظفة في مايكروسوفت، قضينا ليل المؤتمر كله نتحدث في كافة شؤون الحياة والمهنة، حديث شفاف مكلل بالصدق والعمق وكأننا نعرف بعضنا منذ عشرات السنوات، جمعنا التخصص والشغف والمؤتمر! حان وقت الرحلة، خيمة ماري جاهزة، وحقيبتي مرتبة للمبيت لثلاث ليال. المتنزه عبارة عن غابة محمية على البحر يتم الدخول إليها عبر الحراسة. في جزء منها مواقع مرقمة، وكل موقع به أرض تتسع لمواقف السيارات، وطاولات طعام وأرض منبسطة لنصب الخيام. تحيط بكل موقع أشجار ضخمة وباسقة تعزف بحفيفها الثرى الرقيق لحنًا شافيًا فتشعر أنك وحدك هنا في حضن الغابة. المسيرة تضم ثلاث سيارات، سيارتنا وفيها طالب ماليزي وزوجته وابنته صوفي، وسيارة ابن ماري «ليام» وعائلته، وسيارة جارهم وعائلته. كان الاتفاق، الذي اكتشفته في اليوم الثاني، أن تكون كل عائلة مسؤولة عن الغداء في يوم معين، لم تُشعرنى بذلك ماري بل قامت بكل شيء كأم مثالية. نصبنا الخيام باستغلال موقعين متجاورين. الجميع يتعاون حتى «صوفي» ذات الأربعة أعوام، تدق المسامير بكل حماس! الآن ننصب خيمة ماري، والتي عرضت علي مشاركتها المبيت فيها بسخاء، بدأنا بفك الحقيبة واستخراج العيدان والسترة، ثم حين نُصبت، كانت عبارة عن نصف دائرة بارتفاع متر وبعمق مترين بالكاد تتسع لشخص واحد في وضع الاستلقاء، كان ذلك مفاجئًا لي. أنظر إليه الآن بقمة الامتنان أن استقبلتني في خيمتها الخاصة بكل كرم ونبيل، رغم صغرها، وأن رافقتني في مساحة ضيقة، واحتفت بي بأكثر مما يمكنني شكره. المتنزه متحضر بالحد الأدنى والذي لا يفسد فيه الطبيعة أو يحاضر بالمدنية والإسمنت. المبنى الوحيد الموجود داخل المتنزه والموصول بالكهرباء هو مبنى دورات المياه والذي به حجرات الاستحمام أيضًا، ما عدا ذلك غابة مرتفعة على هضبة مظلة على البحر. قبيل

الغروب نزلنا إلى البحر عبر درج صخري شكل قبل عشرات السنوات. يا للروعة! يغسلني البحر في كل لقاء، بالفتنة والبهاء والعظمة. لعب الجميع بما هو موجود من جذوع الأشجار المقصوصة والمنثورة، بل شكلوا منها أرجوحة الميزان، لعبنا بها، وأغرقنا في الضحك كلما فقدنا توازننا، الجميع يلعب من الأطفال وحتى الكهول، ولا كهل هناك سوى كهل الروح. يا لروعة البساطة! فلا تتطلب السعادة سوى أرواح مستعدة لتعاطيها!

صعدنا أعلى التل قبيل الغروب وشهدنا مغيب الشمس، كما لو أنه هدية ثمينة تهدى مرة في العمر، منظر الغروب من أعلى البحر ونور الشمس الأحمر المنعكس على الغابة وعلى الشجر الباسق «جدًا» باذخ وساحر. أخذ الجميع يترنم بانسجام وصوت عذب، بأغنية لم أتبين معانيها. ولكن لما سألت عرفت أنها لشكر الله، شعور لطيف ثمين. عدنا إلى المخيم أشعلنا النار وتحلقنا حولها وأمامنا الغابة الأثيرة ومسرح صغير خلقه «ليام» للتمثيل مع زوجته، كان مستعدًا بشكل لافت، بالأقنعة واللباس والأدوات. أخذ يقفز ويهبط ويتدحرج ويرفع صوته تارة ويغني تارة وزوجته تتفاعل معه بتناغم بديع يُدفي القلب. لا غرو فهو معلم صف مبدع ومعروف ومحبوب بين الطلبة والأهالي. الآن جاء دور الحكايات، من سبقص علينا حكاية طريفة مرّت به؟ والجميع بمن فيهم الكهول ومتوسطو الأعمار والأطفال، يحكي ويتفاعل ويشجع في جو حميم آمن سعيد. إلا من «الآن» ابن أحدهم والذي يصير على تسخين حلوى الخطمي حتى الاحتراق ويتحدى بأن طعمها لذيذ جدًّا عندما يُسأل كيف سيأكلها! تعلمت من تلك الليلة أن أعدّ قصتي وعشر قصص أخرى لليالي الأنس بدل حكاية نبوءتي بأسئلة الاختيار والتي تورطت في سردها دون خيار. كل جزء من تلك الرحلة هو فعالية جديدة مثيرة. قبل النوم نتوجه إلى حيث مبنى دورات المياه بكشافاتنا حيث لا كهرباء ولا طريق مُعبّدًا، بل طريق ترابي ملفوف يبعد مسافة تقدر بخمس دقائق مشي، وألف ظلام وهاجس. انتهيت وُعِدت وشرعت في حشر نفسي في خيمتنا الصغيرة وفي كيس نومي الذي أغلقته حتى أطراف أنفي كي لا أشعر بالبرد. كان الوضع غريبًا وأصوات حيوانات الليل تملأ المكان. ولولا أن «ماري» بجانبني لفزعت من هول الليلة الأولى، وحمدت الله أنني وافقت أن أشاركها خيمتها عندما استشارتني. استيقظت على شقشقة العصافير ومنظر شروق الشمس الهائل والبديع، وكأنه ابتسامة الدنيا وتنفس الحياة. تحسست حذائي عند باب الخيمة فوجدته رطبًا باردًا جدًّا، لا بد أن مطرًا هطل البارحة! ارتديته وبدأت بفعالية حمام الصباح. الجميع يتقاسم القروش، ومنحتني «ماري» قرشين لأتمكن من الاستحمام. كل قرش يشغل وابل الماء «الشاور» مدة ثلاث دقائق ثم يتوقف كليًا، لتخرج وتضع قرشًا آخر وهكذا... تحدّيت نفسي في أن أستعمل قرشًا واحدًا فقط، فكان أسرع وأسعد وأبرد حمام على

الإطلاق. الآن نبدأ بطهو فطورنا بالتقطيع والتجهيز والطبخ، وبعضهم يأكل رقائق الذرة مع الحليب ضاربًا بكل الفعاليات «الطبخية» عرض الحائط. انطلقنا بعد الإفطار بسياراتنا إلى حديقة الخزامى العضوية، التي يمتد فيها الخزامى الأبيض والبنفسجي مد النظر بهجة واحتضانًا للحواس. وبه متجر صغير يبيع كل شيء بالخزامى حتى «المثلجات». مررنا بعد ذلك بقرية صغيرة عتيقة وادعة لنمشي فيها ونأخذ وجبة الغداء. عدنا سريعًا حيث داهمنا المطر.

وفي عودتنا نبهنا حرس الغابة أنهم شاهدوا أسدًا يتجول، وحذرونا من ترك الأطفال أو الكلاب تتجول بمفردها. كان هذا التنبيه بسيطًا في أثره نهارًا، كارثيًا ليلاً. عندما أظلمت الغابة تحول كل ما حولي إلى احتمالات.

همستُ إلى «ماري»، هل سيهجم علينا الأسد ونحن في خيمتنا هذه؟ لا أظن ذلك، فهو يخاف البشر والنور المتحرك.

طمأننتني كلماتها، وبمجرد أن أغمضت عيني غصت في نوم عميق حتى استيقظت على رغبة ملحة لإجابة نداء الطبيعة، وليست تلك عادتني، أخذت أتأمل سقف الخيمة وأحاول الدخول في النوم مرة أخرى، فعلت ذلك مرارًا، ولم أفلح... أخذت أنصت للأصوات حولي، والحاجة تزداد. استغرقت وقتًا طويلًا، ونظرت إلى جوالي واكتشفت أنه تبقى على الصبح خمس ساعات! عزمت على الخروج لأنه يستحيل عليّ النوم في ذلك الوضع. فتحت كيس النوم ببطء شديد حتى لا أوقظ «ماري» وأخذت أزحف وأنا مستلقية باتجاه باب الخيمة.

هل ستذهبين لدورة المياه؟ بادرني ماري بصوت متهدج خفيضًا جبتها نعم! بكامل الفرح وأنا لا أكاد أصدق، فاستيقاظها وسؤالها هدية الرب ومنحة كبيرة. سأذهب معك إذن

أنهت بكلمتها تلك مهرجانات الخوف من الأسد، والحسابات والخطط التي حشدتها في رأسي كي أحمي نفسي. ماري كانت كريمة ونبيلة في كل شيء. استضافتني مع عائلتها الرائعة ومع أصدقائها وأبنائها. شعرت معهم بشعور مختلف وحميم وسعيد. وأهدتني في رحلتنا تلك أجمل وأعمق ذكرى وإحساس حفرتة بداخلي كل شجرة وكل طريق وكل صوت وهواء نقي أحاطني وملأني بالسلام والسكينة.



(الصلاة هدية من الله)

بلا اتصال نوراني، أنت كتلة لحم منطفئة.

حان وقت صلاة الظهر، ذهبت إلى المكان المعتاد، وهو كوخ صغير مخصص للمكالمات والاجتماعات الافتراضية، يوفر الهدوء اللازم لمن يريد. اقتربت من الكوخ فإذا بصوت شخص يتحدث داخله، فعدت إلى مكتبي المشترك الفارغ، إلا من إيمانويل، وهو أستاذ لطيف ولبق، عقله مرتب وحديثه كعقد بديع، كلماته المنسابة بهدوء وحكمة، كلالئ منتظمة مدهشة وجميلة. جاء قبل شهرين وعرفني بزوجته، «تعرفت علي ديلاني في معمل بحثي في جورجيا تيك، وأظنتني محظوظًا بها». هنيئًا لكما تكامل العلم والحياة. كلما مر علي ذلك، فكرت بإمكانية حدوثه معي، وتذكرت صعوبة حصول ذلك، فكل معارف وزملاء التخصص حولي في أماكن اغترابي ودراستي ومؤتمراتي العالمية، هم من الصين أو الهند، وهم مغمورون كما شعبي بالارتباط من نفس جنسياتهم، إن لم يكونوا مرتبطين أساسًا، أو هكذا شكلت لنفسي عذرًا مريحًا مفهوميًا لعقلي... لست أدري. ثم أجدني أسأل نفسي بشكل سري، هل كنتُ سهمًا مارقًا من كل شيء ليستقر في عالم العلم والعلماء «وحده»؟

هل هذا قدرتي والثمن الذي أدفعه كوني اخترقت نسيج العادات والتقاليد؟

لكني عندها فورًا أستحضر نعمة المكان والمكانة العلمية التي تمتعت بها والتوفيق المستمر الذي قادني لأكون أول باحثة سعودية تعمل في معمل علوم الحاسب والذكاء الاصطناعي في (MIT) أعظم محضن علمي تقني وهندسي في العالم، فأقف بكامل الأمتنان وبالغ، مكلمة بالرضا.

الكوخ مشغول، لم لا أصلي هنا في المكتب! فالمكتب فسيح، وإيمانويل في آخره عند الحائط المقابل للباب، وظهره للباب، لن يشعر بي حتمًا. ثم فكرت أخرى وظننت أنه من الأفضل أن أخبره أنني سأصلي، لأنني سأقوم بحركات معينة، وسأنقطع عن الاتصال البشري فترة الصلاة. كان منهمكًا في العمل ومرتديًا سماعته الكبيرة، اقتربت وأشرت إليه بأنني أريد أن أحدثه.

التفت إلي بكامل جسده، وأنزل سماعته فورًا، وقال باهتمام بالغ: كيف أساعدك؟ هل يمكنني الصلاة هنا؟ وأشرت إلى جهة مكتبي، الذي يبعد عن الباب مسافة مكتب واحد نظر إلي بلطف شديد، وأومأ برأسه: نعم! بالتأكيد..

استمر يوماً برأسه مؤكداً كلماته شكرًا أردف بعد صمت يقول: أنا أصلي كل يوم! صحيح؟ نعم أنا يهودي وأصلي كل صباح، ولن يتفهم صلاتك وطلبك شخص أكثر مني، يقول ذلك بنبرة لطيفة كلها تفهم ولين، أخجلني رده واهتمامه البالغ.. لم أكن أتوقع ذلكم أتمالك فضولي، واستغللت الفرصة، وسألته كيف تصلي؟ ثلاث صلوات

(16)

: شاخرس، مينخا، مايرف، وهي صلاة الصبح، والعصر، والمساء. الصلاة لله ولكنها هدية من الله لنا، تشترك فيها الكلمات، والأحاسيس، والأفكار. أشكر الله على نعمه، وأدعوه بما أريد، وبأن يفهمني تفاصيل خلقه، لذلك أنا عالم، لأؤدي رسالة الفهم هذه. شكرًا، لقد استفدت كثيرًا من كلامك عفواً وأنا هنا لأي خدمة

أقبلت على صلاتي بعينين جديدتين، وقلب كله امتنان.

(ترمب رئيسًا.. والجامعة لطلابها: لا بأس!)

كان انتخاب ترامب فاجعة كبيرة لكل الأوساط، حتى مؤيدوه يعلمون أنه العم «اللي يحترمون سنه بس يفضلهم بالمجالس».

بروفسور آن، قابلتها عند المصعد، وقد كنت للتو مارست «أشعبيتي (17)» في حفل استقبال وكيلة الطلبة الجديدة في الأسفل، حيث الكعك وماء الفواكه. كنت أحمل معي كأسًا ودفتراً غارقةً في التفكير في رسالة الاعتذار التي سأكتبها للدورة التي سجلت فيها ويمنعني الضغط الشديد من حضورها. هكذا في بوسطن، وتحديدًا في (MIT) نختار بعض الأشياء من بين عشرات الخيارات الرائعة عالميًا وعلميًا كل يوم، وفرصة محرجة، أتمنى توزيعها على عمري لأسعد بها للأبد. ففتح باب المصعد وخرجت بروفسور آن، وأنا أنوي دخوله، اصطحبتني للممر المقابل للمصعد وبادرتني

أه كنت أبحث عنك! وددت سؤالك عن رأيك بالانتخابات! قلت بشكل متكلس وقد فاجأتني: لا يد لي في ذلك، ولكني أرجو الأفضل لنا جميعًا... قالت بنبرة لطيفة وفي عينيها لمعة اعتذار وحب: نعم صحيح... لكن أخشى أن يضايقك أحد هنا... لست أدري... فهمت مقصدها، فهي تشير لديني وحجابي، ابتسمت ونظرت بصمت... تذكرني أننا كلنا معك هنا، وأنا أعرف أن «أونا مي» (مشرفتي الحالية) ستخدش عين من يفكر في ذلك!

أدهشني تعبيرها، وأسعدتني كلمتها كثيرًا، شعرت بالأمان وباتصال عميق خلال حوارنا الذي دار في أقل من دقيقة... ظللت أتأمل بلاغة كلمة «ستخدش عينه» «أوتش»!

في المساء وعند السادسة حضرت هاكثون كلية إدارة الأعمال وكلية الهندسة الكهربائية وعلوم الحاسب (EECS) الذي اشتركت فيه في آخر لحظة. أخذ كل منا مكانه في الطاولة المخصصة والمعدة بعناية لتشمل كافة التخصصات ليكون الفكر والمنتج أقوى وبفرصة أكبر للتفوق والنجاح. تقدمت وكيلة الكلية بكل تواضع وجلست في طاولتنا بيني وبين شاب إيطالي أنيق جاء ليحضر ماجستير إدارة الأعمال من (MIT)، وقالت بنبرة كلها خجل واستياء: ما حصل البارحة كان مريعًا! واسترسلت بلغة كلها خزي وارتباك تصف ما حصل.

كنا نخفف عنها ونواسيها، وفي قرارة نفسي كنت قد تأثرت كثيرًا وطمأنني كلامها وردة فعلها وإحساسها العالي. حقًا هنا «لبرستيج» معنى مختلف، فهو ليس بالانعزال واعتماد مخالطة الأمثال في المنصب والمكانة فقط، بل هو بمقدار العلم الذي تملكه في رأسك، ومقدار الانفتاح والتواضع المرتبط بذلك العلم، والذي يدعو إلى مزيد من الفتوح والعلم والارتقاء، وهو بمقدار «الجهد» الذي تبذله في سبيل هدفك. وكما يقول «بيزوس» مالك إمبراطورية أمازون: المواهب تستحق الحمد، ولكنها ليست مزايا، المزية هي ما تصنعه بتلك المواهب، وما تبذله استثمارًا وصقلا لها، بما يعود على الأرض بالنفع.

مدير الجامعة لم يبتعد كثيرًا، فهو كعادته سريع جريء في كل مناسبة وحدث وطني أو عالمي يمس الجامعة. يتفاعل ويرسل رسالة مباشرة «للجميع». فقد أرسل رسالة لطيفة ومعبرة وواقعية قال فيها: « مهما تغيرت الأشياء في واشنطن، فإنها لن تُغير الرسالة والقيم التي تجمعنا هنا». حقيقة لم أقاوم أن أضع الرسالة كاملة هنا، فهي بالنسبة لي أنموذج في الذكاء والدبلوماسية وسرعة التفاعل والظهور والاتصال المباشر الواضح المناسب مع كافة أعضاء الجامعة بكل أطرافها. وهي في تفاصيلها خطاب يستحق التحليل والنظر.

إلى أعضاء مجتمع معهد ماساتشوستس للتقنية،

اليوم، علمنا أنه سيكون لدينا إدارة جديدة في واشنطن، تعد بقدر كبير من التغيير.

في مجتمع «MIT» العالمي والذي يضم أكثر من 26,000 واحد منا هنا في كامبريدج وفي مختبر لينكولن، و134,000 من الخريجين والذي سيجد بعضهم هذه التغييرات موضع ترحيب والبعض خلاف ذلك.

كما رأيت بعد ظهر هذا اليوم، غلّف الطلبة الأعمدة الستة العظيمة في المدخل رقم ٧ بأوراق ضخمة. ثلاثة منها تطلب «شارك آمالك» والثلاثة الأخرى تطلب «شارك مخاوفك». أصبحت مغطاة بكتابات الطلبة واستجاباتهم. الناس تتوق لقراءة وإضافة آرائهم الخاصة. يقول الكثير إنهم يخشون علي مستقبل البلاد، والبعض على سلامته الشخصية، والحقوق المدنية، أو أن «قيمي لم تعد تهم». ويخشى آخرون أن أقرانهم لن يأخذوا أبدا الوقت الكافي لفهم سبب تصويتهم للفائز. أمل واحد صدمني على وجه الخصوص: «أمل أن أفهم الثمانية وأربعين بالمائة من الأميركيين ممن يختلفون معي». تقريبا

جميع الكتاب عبروا عن نوع من الألم. وفي نفس الوقت، خلقوا جميعا مثالا رائعا على الاحترام المتبادل والحوار المدني.

مهما تغيرت الأشياء في واشنطن، أو من بأن هناك قوة عظيمة بتذكر أن ذلك لن يغير من القيم والرسالة التي توحدنا.

كمجتمع وكقوة عملية من أجل الخير، معهد ماساتشوستس للتقنية هو تعبير جوهري لأمريكا في أفضل حالاتها: جريء، متفائل، ويركز على ابتكار المستقبل. مسرور ومتحفز بتنوعنا، مع أنفتاح جدير للمواهب والثقافة والأفكار من أي مكان. متواضع، واقعي، مجنون بالعلم ومصر على البحث عن الحقائق. مكان للصرامة والإبداع وحل المشكلات الحقيقية للعالم، حيث تأتي أجيال من العقول الشابة المشرقة من كل ركن من أركان الأرض لصنع شيء من أنفسهم والعمل معا لجعل العالم أفضل.

هذا هو معهد ماساتشوستس للتقنية.

لا شيء يمكن أن يغير ذلك. وليس هناك ما يمكن أن يغير التزامنا لمعالجة مشكلات البشرية الكبيرة والمهمة - تغير المناخ، والطاقة النظيفة والأمن السيبراني، وصحة الإنسان - مع الزملاء من كل هوية وخلفية.

كمؤسسة، نحن نعمل بعضا من أفضل أعمالنا عندما نلتفت للخارج وللعالم. دعونا نستمر في القيام بذلك الآن. مقتفين أثر طلابنا، علينا أن نجد السبل للاستماع إلى بعضنا البعض - مع التعاطف والتواضع واللياقة والاحترام والالطف.

المخلص،

رفاييل ريف

,To the members of the (MIT) community

Today, we learned that we will have a new administration in Washington .that promises a great deal of change

Within the global (MIT) community – more than 26,000 of us here in Cambridge and at Lincoln Lab, and 134,000 alumni – some will find those .changes welcome. Some will not

As I saw this afternoon, students have wrapped the six great columns in Lobby 7 with huge sheets of paper. Three ask that you “Share Your Hopes,” three to “Share Your Fears.” They are covered with handwritten responses. People are lingering to read and add their own. Many say they fear for the future of the country, some for their personal safety, for their civil rights or that “my values no longer matter.” Others fear that their peers will never take the time to understand why they voted for the winner. One hope struck me in particular: “I hope to understand the 48% of Americans who disagree with me.” Nearly all the writers express some kind of pain. Yet together they have created a wonderful example of mutual respect and civil dialogue.

Whatever may change in Washington, I believe there is great power in remembering that it will not change the values and the mission that unite us.

As a community and as a practical force for good, (MIT) is a quintessential expression of America at its best: Bold, optimistic and focused on inventing the future. Delighted and energized by our diversity, with a meritocratic openness to talent, culture and ideas from anywhere. Humble, pragmatic, crazy about science and insistent on seeking the facts. A place of rigor, ingenuity and real-world problem-solving, where generations of bright young minds have come from every corner of the Earth to make something of themselves and work together to make a better world.

.That is (MIT)

Nothing can change that. And nothing can change our commitment to tackling big, important problems for humanity – climate change, clean energy, cybersecurity, human health – with colleagues of every identity and background.

As an institution, we do some of our best work when we turn outward to the world. Let’s continue to do that now. And, following our students’ lead, let us find ways to listen to one another – with sympathy, humility, decency, respect and kindness.

,Sincerely

L. Rafael Reif

.This email has been sent to soah@mit.edu, [click here to unsubscribe](#)

(في «قصر» مشرفتي)

وصلني بريد الدعوة، من موقع يدعم «عدم طباعة الأوراق». مكتوب في الدعوة موقع المنزل ومعلومات الداعي، وتحوي الدعوة زرين للتأكيد أو الاعتذار. كان المكان بعيدًا عن المدينة، ولا توجد وسيلة نقل عامة توصل إلى المنزل، أقرب محطة قطار تبعد عن المنزل مسافة 25 دقيقة مشيًا. عند رؤية المنزل من خرائط قوقل بدا وكأنه نقطة في الغابة، آخر منزل في آخر شارع متفرع! امممم «والله مقطوع» هل عليّ أن أحضر؟

بينما أنا أجري حساباتي، أقبلت علي البروفسور وبادرتني:

سارة، هل يمكنك الحضور يوم السبت؟ سؤالها المباشر حفزني، وبدد ترددي، نعم يسعدني ذلك، ولو كنت مرتبطة سألغي كل شيء لأحضر! رائع! وهل ستحضرين معك طبقًا سعوديًّا؟ اممم الأطباق السعودية تحتاج إلى أدوات وأوانٍ وهي ليست لدي... لكن سأحضر طبقًا على أية حال

علامات خيبة صغيرة ارتسمت على وجهها... وشعور عميق خالجنى بأنه «شعدوا كان قلت طيب وبس...» شعورٌ آخر ربّث على كتفي بأنه «الآن ستقدّر أي شيء أحضره وتثمنه جيدًا»، سأزيد عامل الدهشة بخفض التوقعات، ووجدتُ عذرًا لنفسي أمام شفافيتي «المُفرطة». صباح الجمعة، أرسلتُ رسالة استنجد لكل من أعرف من أهلي وأقاربي: «وش أطبخ، شي سهل، وسعودي؟». من ضمن من أرسلت لهم، صديقة الطفولة التي جمعني القدر بها هنا في نفس المدينة! ردّت علي الفور بأنها ستحضر كل شيء، وأخذت تعدد الأطباق وتساءل عن عدد الأشخاص والوقت... أذهلني حماسها، وقلت لها لا تتكلف كثيرًا، فأني طبق يكفي، بعد مداوات عدة وإصرار شديد منها مليء بالوطنية والكرم، خلصنا إلى ثلاثة أطباق: محشي كوسة، مندي رز ودجاج، كيكة تمر!

صباح السبت خرجت لأتريض وأحضر طاقة ورد لتقديمها، وصلت وقيدت دراجتي أمام المحل، في الداخل وجدت خمس نساء ورجلاً واحدًا يعملون فيه.

- أهلاً، كيف يمكنني مساعدتك؟ قالتها فتاة تعني جيدًا بشكلها كما يليق ببائعة ورد...

- نعم، أريد طاقة ورد.. جميلة.. فهي هدية.. قلتها وأنا أتأمل الطاقات التي أمامي، فهي شبه ذابلة..

- أوه نعم ها هي أمامك..

- هل يمكننا تنسيق واحدة غير هذه؟

- نعم طبعًا، أي ورد تريدين؟

- اممم... ربما سأختار الزنبق أحبه جدًّا.. هل أجده؟

- نعم، هناك، أشارت بلا مبالة وأكملت عملها...

- ولكن... هل يمكن المساعدة في اختيار الزهور المصاحبة؟

- يمكنك اختيار ما تريدين..

شعرت بفراغ في عقلي مع كثرة الخيارات.. اممم أحب اللون الزهري، لكن لم أجد إلا واحدة، قأخترت الأبيض والأصفر والبرتقالي! كلها زنابق...

- ماذا أيضًا... قلتها وأنا أنتظر اقتراحاتها ورأيها...

- هذه هنا...

- هيا لنجرب...

- لااااا.. كلانا بصوت واحد.. بعدها أيقنت أن هذه الطاقة مسؤوليتي وحدي، وصرت أجمع الزهور بنفسني وهي تجمع المكملات الخضراء

- خذي هذه سأحضر المزيد، مدت يدها بمجموعة النباتات لأمسكها عنها... وكنت أمسك بالزنابق أيضًا..

- هل يمكن أن نضعها هنا حتى تحافظ على شكلها؟

- لا، لا عليك سألفها الآن بنفسني هناك، وتشير إلى طاولة المحاسب..

أخذت كل ما جمعنا، واتجهت به عند طاولة المحاسب، المكان مزدحم بأدوات مكتبية وأشياء أخرى، كنت مشغولة بتفعيل بطاقة البنك، والتفت ووجدت

الزهور وفوقها الأوراق الخضراء محشورة لتلفها كلها لفة جرجيرية خانقة ضيقة، شكلها كسر قلبي قبل أن يكسر بتلات الزنابق حقيقة.

- لو سمحت... هل يمكن أن نرتبها ونصّفها بشكل أفضل وأجمل حتى لا تتكسر؟

- بكل برود: اوه نعم..

- اوه انظري الزنبقة الزهرية الوحيدة انكسرت بتلاتها

- لا عليك سأزيلها وهمت بسحب ساق الزهرة مع كافة براعمها وزهراتها بلا مبالاة

- لا لا يمكننا فقط إزالة الزهرة المكسورة... فللبراعم الزهرية مستقبل هنا!
- اه نعم..

تعجبت لها كيف تعمل في محل زهور بهذه الجلافة والجهل في تنسيق الزهور، حاولت أن أفكر بطريقة لأنقذ ما تبقى من روح وجمال الزنابق، فوضعت الأوراق الخضراء ثم الزنابق ووسعت ورق التغليف الذي كان يخنق الزنابق لتكون حرة

- «الحين أحسن!!»

بدت الطاقة كمهرجان ألوان، ووشاية ربيع.. وقوس مطر وحياة!

اتصال من صديقتي.. الأطباق جاهزة، أستطيع إيصالها لمنزلك، اوه هذا كثير شكرًا لكرمك أنت بطلّة وطنية!

بالفعل وصلت الأطباق، لكنها ليست ثلاثة، بل أكثر، ولكل طبق ملحقات ومرق و«صوص». صدمت من كثرتها! تزامم الامتنان مع الصدمة مع الحرج...

- «اووه كثير كذا أكثر من الاتفاق»

- «ما عليك جزء مما نود إظهاره.. الكرم»

جلست معها في سيارتها في انتظار سيارة «أوبر» التي ستقلني، وصلت سيارة الأجرة وكنا نضع الأطباق بعناية في مخزن السيارة الخلفي

- «ما ينكبّ كذا؟» قتلها وأنا أشير لعلبة الطحين..

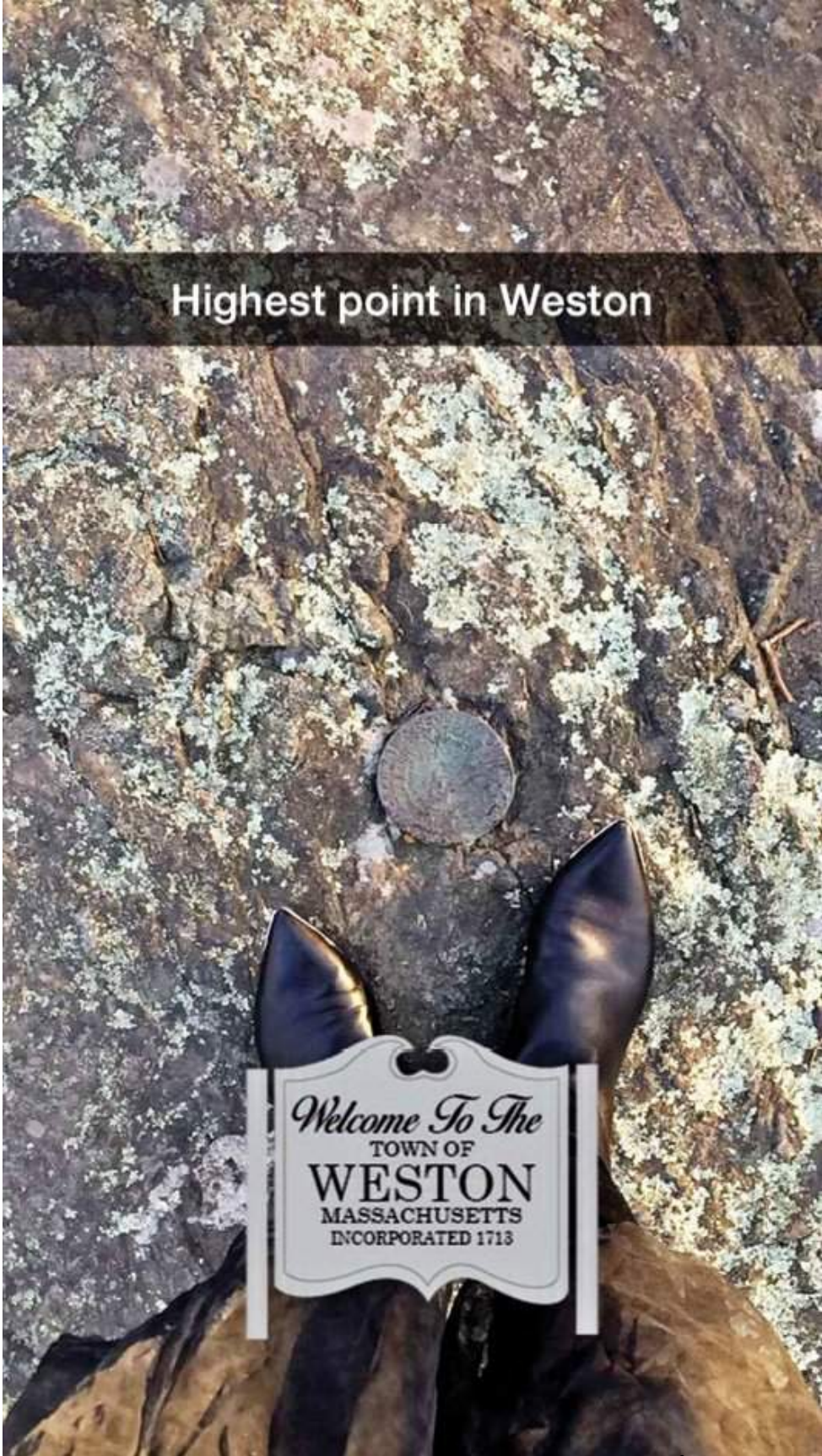
- «لا ما ينكب».. قالها السائق وهو يساعدنا!

- اوه أهلاً! تحكي عربي؟

- «أهلاً فيكم، لا تخافوا المخبوس حيوصل سليم!»

ضحكنا جميعاً...

ودعتني، وانطلقتُ لبيت البروف! وصلت إلى منزلها، بل قصرها الصغير، في بلدة «ويستن» المعزولة عن العمران تمامًا. حيث تشرف غرفتها في الطابق العلوي على مسطحات خضراء في غابة تعيش فيها السناجب والثعالب والغزلان! في هذا البيت وُلدت ونشأت فتياتها الثلاث. وعلى جدار يرتفع طابقيين عشرات الصور المصفوفة بجمال أحاذ لطفولتها وشبابها مع زوجها وبناتها وأصدقاء العائلة والأقارب. ومعهم يسكن الكلب الذي أصابه العمى، ولولا أنهم أخبروني بذلك لما علمت، لأنه يتنقل بمهارة عالية. كان معنا طلابها وفريقها من: كوريا، بيرو، إسبانيا، فرنسا، النرويج، الهند، كندا، نخبة من أميز الطلبة والباحثين في العالم! بدأنا الزيارة بجولة في المنزل الجميل، ثم في الغابة المجاورة له، وصعدنا أعلى قمة «ويستن» قبالة منزلها المرتفع. ومن الطريف أن أعلى نقطة في البلدة هي هنا بالضبط حيث هذا السك المثبت على التل! ويستن ليست بلدًا عاديًا بل هي أثري بلدة في ولاية ماستشوتس، حيث يحقق سكانها أعلى معدلات الرواتب في الولاية، والولاية ترتبها الثالثة من ناحية دخل الأفراد في كل أمريكا! «مشرفتي غنية مرة!».

A photograph of a rocky, moss-covered peak. A coin is placed on the rock. A person's feet in dark boots are visible at the bottom. A sign is overlaid on the bottom of the image.

Highest point in Weston

Welcome To The
TOWN OF
WESTON
MASSACHUSETTS
INCORPORATED 1713

المنطقة وادعة وكأنها ضاحية، بعيدة عن الخدمات مثل البقالة والمحطات، لكن تمر على المنزل حافلة المدرسة الصفراء كل يوم، وهذا جيد.

استغرقت مع نفسي طويلاً، فأنا درست سيرة مشرفتي جيداً، وأطلعت على محاضراتها المنشورة في يوتيوب قبل أكثر من عشر سنوات، هي تعمل في واحدة من أعرق الجامعات لعلوم الحاسب، وهي من مؤسسي علم البرمجة الجينية، وقد عملت «بجد» ونافست «بشراسة» لتكون في مكانها هذا، هي مستمرة في العطاء كل يوم، ليس العطاء فحسب، بل الركض المعنوي، والركض الحقيقي طوال الوقت، كانت تركض في الخامسة من كل مساء، حتى لا يفوتها القطار! والآن أرى جانبها الاجتماعي: بناتها وزوجها وقصرها الصغير.. حقاً إنها إنسانة عظيمة!

هل ثقافة القتال والعطاء المستمر للأرض والعالم «مقدرة» لدينا، وتؤتي أكلها؟ هل هذا هو ما نتوقع حصوله مع عودة العلماء والعالمات من أعرق الجامعات؟ هل هناك محضن يستثمرهم ويُعظم نفعهم ليصب حراً في جسد المعرفة واقتصادها؟

بعد الجولة تم صف الأطباق المتنوعة والتي ترأسها المندي ومحشي الكوسة. أحد الزملاء من بيرو لم يبد عليه في المكتب سوى الهزل الذي تؤكدته ضحكته الساخرة الحاضرة على كل شيء والتي توحى دوماً بأنه «قال أمها»، كان يبدو من تصرفاته وهيئته أنه أعزب لاه، اليوم كانت معه أسرته: زوجة وابنتان، وكان يتناوب مع زوجته على رعايتهما، وعلمت أنه يحضر لاختبارات عدة لاجتياز الدكتوراه. فهمت حينها حجم «الهزل» الذي يعيشه! وقررت ألا أحكم على شخص من زاوية واحدة فقط! وأن الإنتاجية أو المنصب أو الشهادة لا يرافقها حتماً «ثقل» أو «برستيج»، كما هو شائع في ثقافتنا وفي رأسي أيضاً! تحدثنا عن العمل والعلوم والدراسة والمنزل، كما تناقشنا عن نظام الارتباط في بلادي، حيث إنه الموضوع الذي دائماً ما يسألني عنه كل من عرف جنسيتي، وعمري، وفي كل مرة لم تكن إجاباتي البسيطة تشفي فضولهم وتعطيهم إجابات واضحة حيال هذا الموضوع المعقد والمتداخل.

(«كشنة» الجريش!)

درّست لأكثر من عشر سنوات، وقدمت عشرات الأوراق في مختلف بقاع الأرض، وأمام الكثير من العلماء والشخصيات، إلا أنني لم أقلق بشكل كبير إلا مرتين، مرة في المؤتمر السعودي الأول في بريطانيا، والثانية في بوسطن (MIT).

في المرة الأولى كنت في أول سنة للدكتوراه، ودُعيت إلى أول مؤتمر للطلبة السعوديين في بريطانيا. جهزت موضوعي وتدرّبت جيدًا، إلا أنه كلما اقترب الموعد، ازداد قلقي. كانت تلك هي المرة الأولى التي أعرض فيها لجمهور كبير خارج نطاق الجامعة الأنثوية التي درست ودرّست فيها. التهمني القلق في دوامته، ولم أعرف كيف أتصرف حقيقة.

ما زلت أذكر جدول المؤتمر وترتيب عرضي، كان الأول في الجلسة الأولى في اليوم الأول، وصادف ذلك حضور معالي سفير بريطانيا سمو الأمير محمد بن نواف، الذي جلس في الصف الأول ووالدي بجانبه، صمْتُ قليلًا لأستجمع قواي، قطع ثواني الصمت والدي يلهجته الإنجليزية المتقنة: «سارة يمكنك البدء الآن» وهو يحني رأسه قليلًا للأمام، ويمد يده ويبسط كفه أمامه مرحبًا بي. بدأت بالعرض، وأنسجمت ولم أتنبّه إلا عند انتهائي. وصلتني تعليقات كثيرة منها: «كنت تعرضين بثقة بالغة». صدمني هذا الانطباع عني، أنا من كاد يقتلني القلق على هذا الموقف أوصّف بالثقة البالغة؟ حقيقة لم أكن أعرف نفسي جيدًا، سحابة القلق حجبت عني قدراتي وتفاؤلي في أن كل شيء سيكون كما يرام.

الآن وبعد عشر سنوات، في بوسطن (MIT) سأعرض بحثي في ندوة عامة، يحضرها طلاب وأساتذة الجامعة، إضافة إلى أساتذة وأعضاء التدريس المنتخبين من جامعة الملك فهد للبترول والمعادن. ما الذي سيُرسي غروري العلمي، ودقتي، ومثاليتي المشذبة بالكثير من الخبرة والتدريس لمختلف العلوم، ولطرق العرض!

في العرض الأول ترافق قلقي مع جهلي نواحي كثيرة في نفسي وطرق التكيف معها، ومع قلق للجديد المجهول. هنا في المرة الثانية، أستطعت تركيز تفكيري على ثقتي بأن كل شيء سيكون كما يرام مثل كل مرة، وأنها تجربة ثمينة، قلق لتحديد في إعداد المحتوى اللائق لجمهور فائق. كنت أجمع دوريًا مع مشرفتي لمتابعة مستجدات البحث، فاجأتني بطلبها، هيا،

قدمي عرضك، قلت لها أنا غير مستعدة الآن ولم أجمع نقاط العرض بعد، ما زلت في طور ترتيب الأفكار. لم تقنع، وأصرت على أن أقدم العرض.

كنت مشتتة حينًا من عدم ترتيب النقاط أساسًا، وحينًا لأنني غير راضية عن أن تكون أول فرصة لي في العرض أمامها غير لائقة، فخرج المزيج على شكل عرض لزوج عائم عارمّي ومن قناعتني، لم يكن كافيًا وشفافيًا لي ولطموحاتي. انتهيت، أظلم وجهها وانكمش، بشكل لا يمكن نسيانه حتى اللحظة! كنت أعني مسؤوليتها تجاهي، وأعني مسؤوليتي تجاه نفسي، كنت أود طمأننتها بأن كل شيء سيكون كما يرام، لكن ما حصل كان خلاف ذلك، أخذت ملاحظاتها واستفدت منها.

في يوم العرض، القاعة هائلة، وفي آخرها كما في معظم محاضرات الجامعة المهمة، فريق التسجيل التلفزيوني، لتسجيل المحاضرة. حين انتهيت، بادرنى الزملاء بالثناء، وأن محاضرتي رغم بعدها عن مجالهم العلمي، إلا أنهم فهموا معظم ما تحدثت عنه فيها. أسعدني ذلك وزادني ثقة في أسلوبني في العرض، الذي تشكّل بعد كثير من الملاحظة لمحاضرات العلماء وأصحاب الأعمال والمتخصصين، والمهرجين والكوميديين! تتنوع تلك العروض بين السيئة جدًا أو الجيدة جدًا، فأصبحت أهدف في كل كلمة ألقياها لغير المتخصصين في مجالني الدقيق، أن يخرج المتلقي وقد شعر بشعور جيد وفهم شيئًا مما أقول، فليس حتمًا أن تكون المحاضرات أدوات إملال وتضجير مهما كان المحتوى. قبيل خروجي بادرنى اثنان من الطلبة، بالشكر والإعجاب، كان تعليقهم العفوي يعني لي الكثير، قطلبة الجامعة هذه عن مائة من أساتذة في غيرها، فهم نخبة النخبة من العالم أجمع. في اليوم التالي للعرض، قابلت مشرفتي لاستشارة سريعة، وقالت لي: «أهلاً في اليوم التالي، لكلمتك العظيمة!» أسعدني لطفها، وكانت كلمتها كرزة الكعكة، أو «كشنة» الجريش لسائر اليوم!

(أحزن.. رغم الوداعات الكثيرة)

كنت أظن أنني مع كثرة الوداعات أنضج وأقسو، وأنه سيمرُّ من خلالي، خفيًا هيئًا، إلا أنني ومع كل عشاء أخير مع صحبة طيبة يتسرب حزن صغير وحيرة تفيض وتغرقني، أودعهم وأستسلم. لبدأ وداع الأشياء التي علقت أطرافها في قلبي، فهاهي الطرقات التي تبدأ هناك وتنتهي في حجرة قلبي الرابعة، يقفز قلبي إلى عيني، ليقرأ كل شيء ويقرئه السلام، الطرقات الهاذئة، المباني العتيقة الثمينة، الجسور والأنهار، القوارب الشراعية التي تختال في النهر قبالة نادي الجامعة للإبحار في منظر أسر، غروب بوسطن الهائل، طرق المشاة المحفوفة بالشجر... كل تلك الأشياء منحت قلبي تجربة وادعة واحتضنته بلطف. مرّت عليّ أربعة فصول باذخة، صيف ثري أخضر، خريف بألوان النار، شتاء مهيب أبيض، ربيع مجنون ملوّن، في معرض رباني فاتن في كل تفاصيله. يا للأشجار! تتكيف ولا تبدو إلا عظيمة صابرة أو قاتنة جميلة، فهي بين الصبر والشكر والعطاء تتقلب ولا تفتأ، راسخة تستمد الثبات من الأرض والمبدأ والجذر، ولا تزيدها الفصول المتقلبة إلا قوة ورسوخًا... تغمرني بالثبات والإلهام والحب، فشكرًا.

أغلقت باب سيارة الأجرة وأنا أشكر وأودع، وتذكرت عندها كم ودّعت... فكل شيء حولي في هذه الرحلة مؤقت، بيتي وعملي وأصدقائي، كل شيء هنا يمكن اختصاره بين قوسين يمثلان: اللقاء الأول والوداع الأخير. رحلتي هذه تشبه رحلة الحياة، التي بدأت بالقوس الأول الذي فُتح لما نُفخت فيّ الروح، وأستمر راحلة أنمو وأتعلّم داخل قوسي الأول في أقواس صغيرة تُفتح وتُغلق لكل مراحل التي أعبرها. وهو أيضا يشبه الكينونات البرمجية. فتبدأ كينونة البرنامج الأساسية بقوس افتتاح بداخله يمكن صفّ الأوامر أو الكينونات البرمجية الأخرى التي تبدأ بقوس وتغلق بقوس إغلاق وهكذا إلى أن يُغلق قوس الكينونة الأساسية لينتهي البرنامج. كل شيء يأخذ معناه بين قوسين، سوى قوس حياتي الأكبر فلا نهاية!

كانت الرحلة ١٢ ساعة متصلة بين بوسطن والرياض. مهما حاولت قراءة المزيد عن «الأيروديناميكا» والقوى الأربع التي تمسك الطائرة لتستمر في اختراق الهواء، مهما قرأت فإنني في كل مرة أغرق في دهشة عميقة وأنبهر جدًّا كلما حملتني تلك الحجرة المعدنية ذات المروحتين الساحرتين لأكون بين السماء والأرض. مررنا قرب القطب الشمالي، فهذا الطريق «شورت كت» للعودة. هنا بدأت مطبات هوائية عنيفة! واستمرت مدة ساعتين. معها بدأ

مهرجان الأفكار العاقلة والمجنونة، مهرجان دون تذاكر برعاية هرمون
الخوف «اللي ما يصدق»! خواطر كثيرة مرت في ذهني، منطقية
أو «تهويلية»: هل عليّ أن أخاطر بحياتي لهذا الحد؟ هل كان عليّ أن أقترّب
من الموت جدًّا؟ وماذا عن الطائرات المأليزية التي اختفت؟ هل سنختفي في
عمق المحيط المتجمد؟ أتمني أن تكون الميته سريعة وألا نتعذب بغرق أو
حرق. ولو قدّرت يا رب ذلك فأسألك إغماءة تفصلني عن الشعور وتنقلني
بسلام إليك. فيما أنا «أتخضخض» فعليًّا وفكريًّا، أنظر في من حولي، وبالذات
في المضيفين، فهم مؤشر السلامة، أتأمل سلامهم وابتساماتهم الهادئة،
وأفكر في عدد حوادث الطائرات الضئيل جدًّا، فنسبة أن تكون في طائرة
متحطمة، واحد من ١١ مليونًا! وجلست أتذكر الشرح العميق لأحدكم، فلو أن
الطائرة اضطرت لأن تهوي للأسفل أو تسقط فهي قادرة على الارتفاع
للتحليق مرة أخرى. الملايين من الناس يمرون بهذه المطبات ويعودون
بسلام. أحشر هذه الحقائق كحرس في مهرجان الأفكار المذعورة لتبيدها
وتطفئها، تهدأ المطبات، نقترّب من القارة الآسيوية، أدخل في نوم عميق في
وضع الجلوس. أعود للرياض بسلام.

(بين جلاسكو وبوسطن)

هناك، يحملون أوطانهم في حقائبهم، هكذا يتنقلون بخفة من بلد لبلد، لكننا نحمل أوطاننا فينا، في شراييننا وعمق وجداننا، ننتقل، ويبقى القلب هناك حتى نعود...

بوسطن في إنجلترا الجديدة، الولايات المتحدة، وجلاسكو في بريطانيا. عشت في هاتين المدينتين، ولكل منهما ميزات. جلاسكو من كبرى المدن في أسكوتلندا وبريطانيا. خضراء جميلة وادعة ببحيراتها وسهولها وجبالها، ثرية في تاريخها وقلاعها وحصونها الصامدة منذ قرون. درست فيها الدكتوراه، وتعرفت فيها على نفسي، وواجهت فيها مخاوفي وآلامي، وبنيت فيها علمي وآمالي. فيها تعلمت مبادئ المعرفة السلوكية، وفهم تصرفاتي ومنبع مشاعري. كان ذلك بالدعم والموارد المتوفرة في الجامعة. النظام الصحي في جلاسكو متاح وسهل، فلكل حي عيادته الخاصة، ويمكن مراجعة المشفى إن لزم الأمر بسهولة. ما زلت أذكر توعُّك والدي، فبمجرد مناداة الإسعاف نقلوه، وعالجوه وصرقوا له وصفة الدواء، كل ذلك بشكل احترافي، سريع، ومجاني. بعكس بوسطن، فالخدمات الصحية باهظة الثمن، تخرم جيب الطلاب إلا أن ينقذهم تأمين. أيضًا جلاسكو مدينة هادئة علميًا وثقافيًا، لم يحصل في الكلية مؤتمر لعلم الحاسب إلا مرة واحدة طيلة سنواتي الأربع. مقارنة ببوسطن وفي (MIT) الأمر على النقيض تمامًا. ففي (MIT) وفي المبنى الذي أباشر فيه العمل (CSAIL)، تقام الفعاليات بشكل مستمر، المحاضرات العلمية، عروض الشركات، حفلات توقيع المؤلفين. أنت محاط بكل ما يحفزك للنمو، والمشكلة الوحيدة هي في الوقت! ليس ذلك فحسب فخارج دائرة الجامعة «زحمة» أخرى للجامعات الرائدة، مثل هارفارد وتفتس وآلاف الشركات الابتكارية والناشئة والرواد الذين يقدمون للحياة أكبر المنافع والخدمات. لا غرو إذ وصفها المحافظ بقوله: «بوسطن عاصمة العالم للتعليم». لك أن تتخيل جودة الحياة والمناشط التي تكون في تلك البؤرة، حتى فعاليات الترفيه والموسيقى تجدها بيسر وجودة كبيرة عبر جلسات وعروض الكليات المختصة والمتاحة للجمهور. وجودي في ذلك المكان مخرج لجدول الأعمال الذي بالكاد يتسع لثلاث فعاليات علمية أو ثقافية كل يوم إضافة للعمل البحثي. هناك انكسر القمقم وخرج المارد، وأخذ يسألني بإلحاح عن آميأتي ورسالتني في هذه الحياة. كان حوارني معه قصيرا، وانتهى بعودتي إلى منسبي الإداري، ونافورة الأعمال المهنية الغير منتهية. لا

يزال المارد يتجول حولي يزورني باقتضاب، يسألني في كل مرة، «ماذا تريدون؟».

(فقاعة دوت كوم)

في جلسة هادئة حميمة في بيت خالي، وبعد العشاء، حكيت له إعجابي وعجبي من انفجار مشاريع «الكريبتو» أو العملات الرقمية القائمة على تقنية «البلوك تشين»، وأن الجميع يطرح مشروعه والجميع يكسب! وفي قمة حماسي للموضوع، تنهد وقال: ما أشبه اليوم بالبارحة! هي فقاعة مثل فقاعة دوت كوم! - لا أظن الأمر كذلك خالي! الأمر هنا مختلف تمامًا!

دعيني أحكي لك القصة، منذ نهاية الثمانينات كان وادي السيليكون منطفئًا هادئًا تقنيًا. وجامعة ستانفورد، التي تعتبر أكبر محتضن وداعم أكاديمي لريادة التقنية حاليًا، كانت منفصلة، باردة تغرد بعيدًا عما يحصل في الوادي كأي جامعة أكاديمية علمية أخرى. وفي ذات الوقت أخذت شمس الولايات المتحدة تغرب، وهي التي كانت مركز الصدارة في صناعة أشباه الموصلات «سيمي كونداكتورز»، لتشرق شمس اليابان ولتترتع على عرش تلك الصناعة المهمة في صناعة الحواسيب والأجهزة الإلكترونية. كل ذلك لم يكن يشي بأي شيء سوى بالإحباط والهدوء التقني المطبق. في تلك الظروف المظلمة بزغ أمل جديد غريب يعد بكل شيء وكأنه ثورة! - ما هو؟- الإنترنت! تعلق الجميع بهذا الأمل المجهول المجهول، المليء بالغموض والدهشة والكنوز التي تغري أي مبرمج ورائد أعمال. في 98 بالتحديد كان السباق محمومًا بين الرواد لفتح شركات تقنية أوضح ما فيها أنها تعد بوجودها على الإنترنت وبموقع ينتهي اسمه بـ «دوت كوم»، وبنموذج تجاري فضائي مشاع يحل مشكلة ويغير وجه العالم للأبد. ولك أن تتخيلي سارة، كيف انسكب الاستثمار في تلك الشركات بسخاء، فيكفي عرض واعد أو حالم وتقييم مجنون من رئيس الشركة ليحلب المستثمرين بمباركتهم ورضاهم. تدرين، الكل يريد أن يكون جزءًا من المشهد ويخشى أن تأتي سنة 2000 وهو خارج اللعبة! - والمستثمرين أغبياء؟ - بالعكس! صحيح أنه لم يكن يهتم بعضهم استقامة ونجاح نموذج العمل أو قدرته على تحقيق المكاسب المستدامة، لكن، كل ما كان يهتم، هو التخارج الضخم والطرح المجنون في سوق الأسهم ليبيع أسهمه على العامة ويخرج بمكسب! العامة «الغلابة» الذين شاهدوا أموالهم تتضاعف أمامهم، تكبر، يكبر أملهم أو طمعهم، ثم تنفجر هكذا. وحصل في 2000 ما لم يكن بالحسبان، أو كان بالحسبان كأي فقاعة أخرى، وانفجرت فقاعة «دوت كوم» وحصلت «الطيحة» أو الهبوط الحاد «جدًا». خرج الكثير من مشروع «دوت كوم»، وبقيت شركات مثل «باي بال» و«أمازون». رغم بقاء الأولى إلا أنها كانت متخبطة جدًا، تدور حولها الشكوك إذ كيف تنجح

شركة كل ما تقوم به هو تحويل المال باستخدام البريد الإلكتروني؟ يا
لللبساطة! لكن الأقدار والدعم والطلب أسهم بشكل كبير في قفزة الشركة
بعيدًا عن وهم الفقاعة الخطر، واستمر أحد مؤسسيها «إيلون مسك» في
تحقيق الحلم والريادة واختراق الفضاء. أما أمازون فصمدت ثم صمدت وها
هي الآن من أعظم وأكبر شركات العالم وصاحبها من أثري أثرياء الأرض.
كسب من كسب وخسر الكثير، وبقيت بعض المشاريع. أظن ذلك تمامًا هو ما
يحصل مع الكريبتو الآن، أتتفقين؟

(في الرياض: أتنفّس بفخر)

بعد (MIT)، اتسع أفقي وامتألت بالأفكار والحكايا والنوايا. صرت أبحث عني، ببساطة، أنظر ملياً في مرآة روعي لأفهمني. كنت أغلف نفسي بألف غلاف لأحميني من أي تعارضٍ مع ما حولي فأرتاح، حتى لو كلفني ذلك أن أخفيّني تماماً، تَغَلَّفْتُ حتى تَغَلَّقْتُ وكدت أنسى ملامحي! ثم وجدت أن المكاشفة بيني وبينني، وبينني وبين الحياة، أعظم نفعاً لي وللعالم بشكل شبه مطلق! مغامراتي علمتني أن أخطفني من بين الأعمال لأتأمل، أن أغوص بداخلي لأكشف دوافعي الحقيقية وأتصل بقدراتي لأصقلها، أن أحطم وثن الصورة النمطية للأبد، قلن يسألني الله عنها! أن أغار على وقتي من أن يسرقه «الكرسي» إلا بنفع كبير يرتبط به، وأن أتسلل من «البرستيج» أحياناً لأنطلق بحرية في غابة كل الاحتمالات!

اختلف نظام القيم لدي بشكل جذري، وأصبحت أنظر لحياتي كفرصة ثمينة بل لا تقدر بثمن، كل يوم جديد هو هدية من الله ليرى ما أصنع فيّ وفي العالم!

عدت إلى الرياض إلى وحدتي البحثية. الوحدة المقصودة هي العزلة، كون العلاقة بين الشركات والجامعات لم تؤطر أو تشرع بعد. وحدة، كون فكرة المعامل البحثية، غير موجودة، وإن وجدت فهي ناشئة وبسيطة منفصلة عن الشركات والصناعة والمجتمع، ودعمها المستدام غير متجذر وراسخ بعد. وحدة، كون الباحث يترقى بنقاط أعلى كلما قل عدد الباحثين معه. فلو عمل أربعة بحوث «وحده» فإنه حقق النقاط المطلوبة للترقية من أستاذ مساعد إلى أستاذ مشارك. بينما يعمل الأستاذ هناك لجمع المنح من الجهات المختلفة، ثم العمل مع فريق متعدد الدرجات، يبدأ من طلبة البكالوريوس، ويمتد إلى طلبة الدراسات العليا، و«البوست دوك». يرأسهم الأستاذ مدير المشروع لكتابة البحوث عالية الجودة، وإجراء التجارب، والنشر في كبريات المجلات والمؤتمرات، وإقامة الصلات مع مؤسسات الدولة الحكومية والخاصة، في شراكة فاعلة، والتنافس يكون على قوة تلك الصلات وجودة المخرجات، وليس على «قلة» عدد المؤلفين، لكسب «نقاط» الترقية.

تحدي البحث العلمي، مع العبء التدريسي والإدارة التي جرّبتها رافقه تحديات أخرى. فعندما عدت للرياض من أمريكا صادف ذلك وقت إجازة السائق، كنت أنظر لسيارتي أو «سيارة السائق» كل صباح يتجمع عليها الغبار، ثم أطلب سيارة من «أوبر»، وفي حقيبتي رخصتا القيادة البريطانية

والأمريكية، يا للتعاسة! سيارة ورخصتان ثم أطلب سيارة أجرة! فمرة أكون في سيارة تعجّ بالدخان، و«القربعة»، ومرة أكون في سيارة سباق بداخلية حمراء فاقعة مع شاب متحمس، ومرات بعد الطلب والانتظار يتم إلغاء الطلب بكل بساطة لأبدأ البحث عن سيارة أخرى من جديد في فقرة تنسيق تلتهم وقتي وتتلّف أعصابي. تراكمت تجاربي مع سيارات الأجرة مدة شهرين إلى أن أزعجني وأحبطني ذلك، وكنت على شفا الانفجار. عاد السائق وصرت أبحث عن سيارة أخرى جديدة بدلاً من السابقة، أدرس خدمات ورفاهية المقعد الخلفي دائماً. استمر البحث إلى أن جاء صبح يوم عظيم وصدر القرار «الثوري» الذي كان نصه: «اعتماد تطبيق أحكام نظام المرور ولائحته التنفيذية - بما فيها إصدار رخص القيادة- على الذكور والإناث على حد سواء، علي أن يبدأ التنفيذ في 10 شوال 1439هـ». علي حد سواء؟ سيّرني ذلك و«أبكاني»، دموع فرح كبير مسحت كل حتق أحرقني. هل حقاً يمكنني قيادة السيارة دون تثريب أو ملامة؟

وش رأيكم، وش أفضل سيارة؟ سألت أبي وأخي. الأفضل مرتفعة، لتصمد في أقسى الظروف وأصعب الطرق، المطبات أكثر من الإشارات، قالها ساخرًا، بس ليش الآن؟ ما تنتظرين 10/10؟ عادي باخذها الآن، تستريح بالقراج وأستريح أني جبتها، كان هذا ردي لتهدئة الأمر وطمأنتهم.

ابتعت السيارة، وهي تختلف كليًا عن سيارتي في بريطانيا، التي قدتها قبل ثماني سنوات، لا تشبهها إلا في عدد الإطارات! حاولت فهم ما يمكنني فهمه من يوتيوب، درست خياراتها الكثيرة والمتطورة مع نفسي جيدًا، ثم قررت أن أدور بها قليلًا في الحارة، لم أكن أريد أن أثير القلق في نفس والدي وأخي، فقررت خوض التجربة وحدي. أدت المحرك وخرجت وأنا في قمة السعادة والخوف والترقب والحذر، أنتهت أن هنالك مؤشرًا أحمر مشتعلًا، بحثت في يوتيوب بارتباك وقلق عن المؤشرات، حاولت فهمها ولم أهتدٍ لشيء. قررت أن أرسل البائع مباشرة، بدلًا من أن أثير قلق أخي في خروجي وحدي، أرسلت له صورة، وسألته:

لو سمحت، تعرف هذا نور إيش؟ ما أدري.. يمكن ما فكيتي الجلنط؟ أوكي شكرًا

تبا! ما هو الجلنط؟! رجعت فورًا للمنزل، فأنا لم أبتعد كثيرًا، واتصلت بالسائق لأسأله، ثم جاء لفحص السيارة وأرشدني لمكان «الجلنط» أو الفرامل اليدوية، التي لم تكن يدوية في سيارتي هذه، بل كانت عند قدمي اليسرى. كان ذلك من بدهيات القيادة ولم يمر علي في مقاطع اليوتوب التعليمية،

الحمد لله فهمت الآن! ثم صرت أخرج سرًّا إلى «الجيم» مكاني المفضل في الرياض، بيني وبينه شارع واحد فقط. أقف في المواقف الخلقية للمطعم المجاور له، ثم أتحرى المكان جيدًا وأنزل عند خلّوه من الناس. كانت رحلة الجيم تلك شافية لأبعد حد، ليس لأنه يهديني هرمونات سعادة في كل مرة أتمرّن فيها به، بل أيضًا من أجل تلك المغامرة الفردية المثيرة التي تُمطرني بالدوبامين. علم أبي مرة عن خروجي هذا وأبدي قلقه الشديد، يا بنتي أخاف يأذيك أحد! طمأنته بأن هناك قانونًا، وأن الأمر ليس متاحًا للفوضى أو الأذى، خصوصًا بعد حادثة حرق سيارة إحدى الفتيات التي قادت سيارتها، وانتشار مقطع لمراهق يهدد فيه من تقود سيارتها، اللذين أعقبهما فورًا بيان التجريم لمن يحاول إلحاق الضرر بمن تقود سيارتها.

وفي إحدى رحلات الجيم المجنونة اللذيذة، كانت المواقف خالية، فتجرات وأوقفت سيارتي أمام البوابة مباشرة، ولكنني نزلت من الجهة المغايرة لمكان الحارس. كل شيء بدا جيدًا.

بعد التمرين وجلسة البخار الملكية، والتي تشعرني بأني ولدت للحياة من جديد، خرجت وركبت السيارة بخفة وأمان، أدت المحرك وتبّهت لاقترب عامل ضخم البنية بلحية كثّة، متعمم يغطي نصف وجهه بوشاح صوفي بني، أربعتي شكله، اقترب كثيرًا من نافذة الراكب وأوشك علي وضع يده علي النافذة ليرى السائق جيدًا. جف حلقي، وخفق قلبي بشدة، حرّكت سيارتي بسرعة وتركته مع تساؤلاته، غرقت في خوفي، ليس بسببه فحسب، بل خفت أن يلحق بأبي أي أذى لو علم أنني شاغبت هذا الشغب.

كان قرار القيادة، وفتح النوادي الصحية مصاحبًا للتغير الكبير في تمكين المرأة. فبعد أن كان النمط السائد والمقبول لمهنة المرأة «معلمة» والنمط الآخر الخجول «طبيبة». أصبحت تشارك في السلم كله، من أوله لآخره، صورة مشرقة، لنساء يعملن ويعطين بكل جدّ واحترافية وإتقان ويقابلن عطاؤهن بالاحترام والتقدير. صورة تكاملية بين الرجل والمرأة «على حد سواء». كل شيء أخذ في التحسن والتغير، حتى تخطيط الأحياء اختلف وتحسّن، من كان يتخيل أن تكون هناك حديقة حي، وأن تمتلئ بأهله من المواطنين؟ ما أجمل هذا التغير والانفتاح والفسحة التي نحتاجها جميعًا في عيشنا وتعايشنا في المدينة. ومع عودة آلاف المبتعثين، انتقلت معهم ثقافة الرحلات، وازدهرت مشاريع السياحة والتخييم والتنزه والتسلق. فصرت أقضي نهايات الأسبوع في الكهوف والوديان والجبال أكتشف وأمشي وأتحرر بامتنان بالغ، مع مجموعات يقودها شبان وشابات يحبون الحياة، والطبيعة والمغامرات، لست أتنفس باسترخاء فحسب، بل أتنفس بفخر

وأمتلئ بسعادة عميقة لا تشبه أي سعادة سابقة، أنا سعيدة لأنني محاطة
بطبيعة بلادي، نجومها الساطعة دوماً، وسمائها الصافية، تحيط بي أرواح
أهلها الساطعة بالكرم، والصافية نقاء وبهاء، والتي أجد فيها ما يشبهني
وأنتمي إليه. بعد اغترابي، صار رمل الصحراء الأحمر أعلى عليّ من الذهب،
وكل ذرة فيه هي ذرة تسبح في فلك قلبي تمنحني الأمان والأرتياح
والتجذير في الأرض والوطن.

منذ 2017 إلى اليوم في 2021، وأنا مغمورة بالتغيير الكبير الذي يحصل في
بلدي. التغيير الذي يمس كل شيء من المؤسسات، والهيئات، إلى الفرد، وإليّ
أنا!

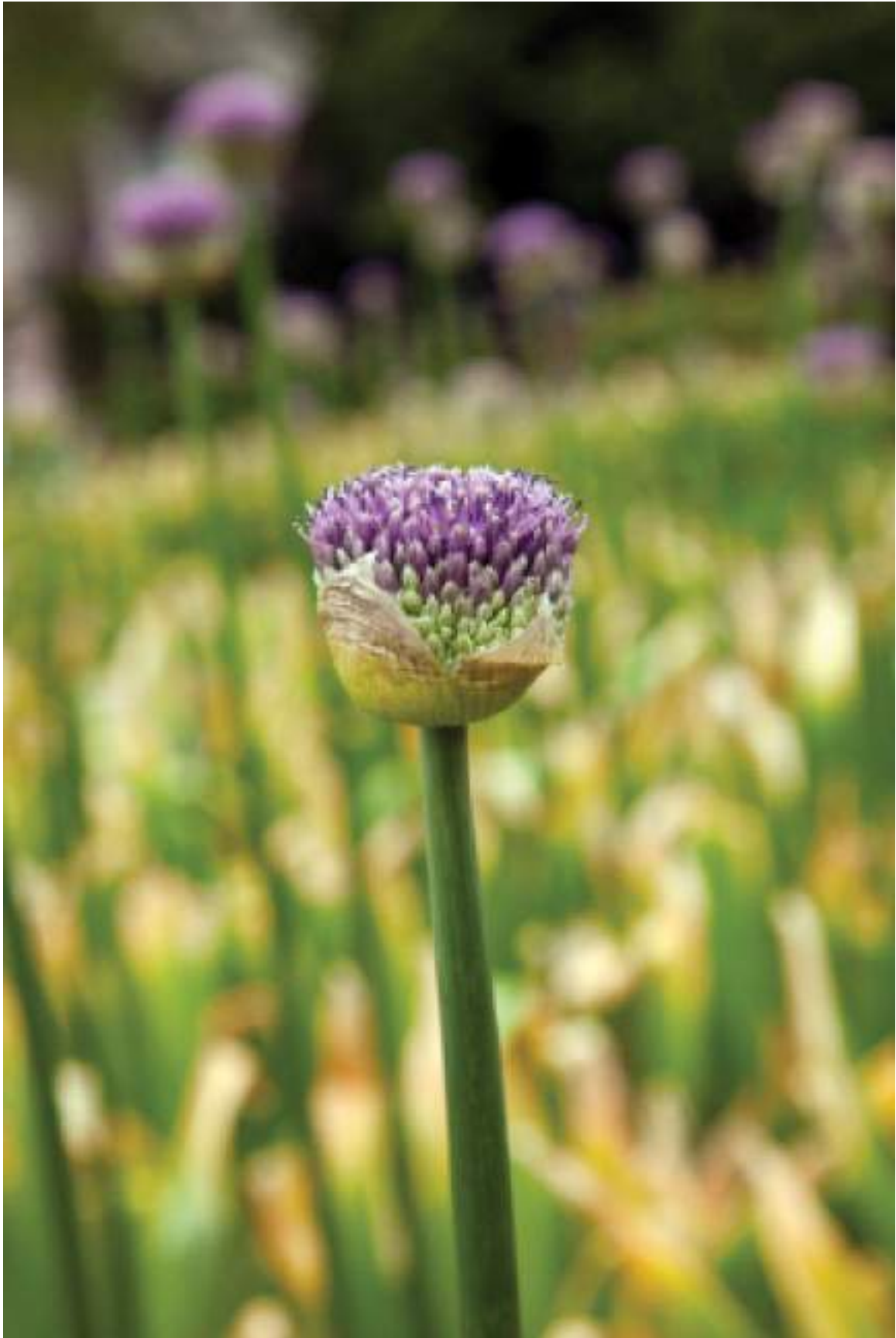
بعد 2017 وبعد كلمة «محمد بن سلمان» الأمير الشاب تغيرت «لي» الرياض،
بكل ما فيها وأصبحت صديقتي التي تفهمني وأفهمها. من حولي اختلفت
البيئة، فبعد أن كنت منفصلة عنها أغرد مع نفسي، أصبحت جزءاً من حراك
جميل تقوده رغبة قوية للتعويض والوصول، بل الصدارة! فأميرنا يقودنا
وهو معنا وبيننا يعمل بطموح، يدعم الجيد، ويزيح السيئ، قدوة حية للعطاء
بقوة وتميز، وبهمة «طويق».

ذكريات الضوء

كنت أحمل معي «الكاميرا» في كل زمان ومكان، وكأنها صمام أمان ضد التسرب والنسيان، بين جلاسكو وبوسطن، نظمت لي الضوء في صورة غنية بالذكري والمشاعر والألوان، واخترت من تلك الصور ما هو بين يديكم الآن.



















(1) .The War of Art, by Steven Pressfield

(2) حاسوب صخر الشخصي (MSX) هو نتاج تعاون شركة صخر العالمية الكويتية مع ياماها اليابانية، وكانت للشركة جهود كبيرة في إنشاء البرمجيات العربية وتحليل ومعالجة اللغة لغرض الأتمتة والتقنية بقيادة الريادي المبدع محمد الشارخ.

(3) القَطّ في العربية هو القطع، والقَطّة في لهجة أهل نجد هي تقطيع أجر بضاعة واحدة إلى أجزاء صغيرة تقسم على أشخاص مختلفين، ليشاركوا في ملك هذه البضاعة بينهم.

(4) Fear of Missing Out (FOMO)

(5) القصاصة في الموضوع السابق

(6) الدافور في اللهجة السعودية الدارجة، هو المجتهد صاحب الدرجات العالية والسبق والحظوة لدى المعلمين، وهي تعني المنفاخ الدائري المخصص لنفخ النار وإضرامها.

(7) في المرحلة الابتدائية، كانت تُمرّر لنا قصيدة مطلعها،

إن المعاكس ذئب يغري الفتاة بحيلة ... يقول هيا تعالي إلى الحياة الجميلة
قالت: أخاف العار والإغراق في درب الرذيلة ... والأهل والخلان والجيران بل
كل القبيلة

القصيدة تلخص أيديولوجية الذئب الغادر، والنعجة التي تنقاد بغباء لمطالب الذئب ليلحقها عار القبيلة. حديثك مع شاب هو حديثك مع ذئب متربص، هكذا تلوّن فكر الشباب والفتيات في تلك الفترة واصطبغ بلون واحد وهو لون تجريم التواصل بينهما مطلقاً، وتشويهه من يقوم بذلك.

(8) Scottish Gaelic

(9) جداول الصواب هي جداول رياضية تستخدم في المنطق والجبر
البولياني (truth tables)

(10) هذه مقولة تكرر في نجد، ومغزاها هو أن الشخص الكبير في السن أو المتقاعد يفرغ من شؤون المهنة ويبدأ في التدقيق في الشؤون الصغيرة لبيته، مثل إطفاء الأنوار الزائدة عن الحاجة، وهو أمر لم يكن يهتم به سابقًا لعظم انشغالاته.

(11) UI: User Interface وهي واجهة المستخدم والتي يحرص مصممها أن يجعلها واضحة سهلة تبين للمستخدم بشكل مباشر أثر النقرات والعمليات التي يقوم بها حتى يفهم ما يجري ولا يقع في حيرة من أمره.

(12) هبة هي كلمة باللهجة السعودية وهي الترجمة الأدق بحسب علمي لكلمة «فاد» الإنجليزية، والتي تشير إلى الاهتمام الجمعي بشيء محدد لمدة محددة

Visual Display of Quantitative Information (13)

Envisioning Information

Visual Explanations

Beautiful Evidence

(14) صفير بطريقة محددة، يستعمل للتعبير عن الانجذاب.

Grace Hopper Celebration of Women in Computing (15)

Shacharit (the morning prayer), then Minchah (the afternoon prayer), (16)
)and finally Maariv (the evening prayer)

(17) أشعب: شخصية أسطورية عربية، أصلها حقيقي، لكنها أصبحت مضرَبًا للمثل في الجشع، واقتناص فرص الإغارة على موائد الطعام.

المحتويات

إهداء 5

(كيف وصلت إلى هنا؟!) 7

(الكتابة المؤقتة، حلٌّ دائم) 8

(بين الحجاز ونجد) 15

(النقاشة) 20

(شرارة شغف) 26

(اختيار التخصص: سأكون كما تظنين!) 31

(100 عال) 38

(الثامنة صباحاً: وحدي في القاعة!) 42

(أزمة بداية) 45

(النزول من القطار!) 49

(هايبرلنك - 1999) 51

(موقع بلا «نت»!) 54

(مصلى ليبرالي!) 61

- (حراج الكمبيوتر) 66
- (بداية الشهرة: «معجزة فوق الرمال») 70
- (امسكي الثور من قرونه!) 75
- (علاقة غرامية) 79
- (عُدثُ إليك) 83
- (الدرس الأول.. درّس لي!) 86
- (واختفى الأسد!) 90
- (حلم الدكتوراه) 98
- (محطةٌ أولى لطريق لا ينتهي) 103
- (دكتوراه ولكن..) 108
- (لم يبقَ غير الدموع) 114
- (في جلاسكو.. أعاتب المطر) 117
- (في الشارع ولا يراني أحد!) 123
- 130 (PhD)
- (إلى أقصى الجنوب.. لمكافحة الاختراق) 135

140 (الأصعب من الصعود: النزول!)

145 (الحياة تزلج أكبر)

153 (تواضّل خارج الوعي!)

159 (كايلي)

162 (كركوبة)

166 (في السجن لا يجلبون لك البيض المسلوق!)

184 (الحالات الثلاث)

190 (أسلحة غريبة، لِقَلْقٍ لا أعرفه!)

201 (تسألني البُحيرة: ماذا بعد الموت؟!)

208 (المنعطف الأخير، 25 مايو 2011)

216 (وداعًا جلاسكو – 2011)

220 (في الرياض: أشعرُ بالغبية!)

226 (أصغر وكيلة!)

231 (سيرك الشمس)

238 (في برشلونة أنقّب عن أجدادي)

- (MIT).. الأمل يتحقق 244
- (في البؤرة الأشد سخونة: بوسطن) 251
- (بزنس في الجامعة (1/2)) 257
- (بزنس في الجامعة (2/2)) 262
- (الفيزياء الاجتماعية) 265
- (مشوار صباحي) 270
- (دافينشي البيانات) 275
- (في العلم.. لا توجد عتبة أخيرة) 281
- (ابق جائعًا!) 285
- (غرفة ضيقة لا تساع الجسد!) 288
- (حلقات زحل) 293
- (بداخلنا مجد) 299
- (أسبي) 305
- (مع ماري لا يمكن أن تخاف!) 313
- (الصلاة هدية من الله) 322

(ترمب رئيسًا.. والجامعة لطلابها: لا بأس!) 326

(في «قصر» مشرفتي) 334

(«كشنة» الجريش!) 343

(أحزنّ.. رغم الوداعات الكثيرة) 347

(بين جلاسكو وبوسطن) 350

(فقاعة دوت كوم) 353

(في الرياض: أتنفّس بفخر) 356

ذكريات الضوء 363



•
•
•